إبراهيم عبدالمجيد

البلدة الأخرى

رواية

الدار المصرية اللبنانية

البلدة الأخرى

رواية

إبراهيم عبدالمجيد، 1946-

البلدة الأخرى: رواية/إبراهيم عبدالمجيد. - ط1. -

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

408 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789777952002

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2018/ 19948

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah. com

www. almasriah. com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2019م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

البلدة الأخرى

رواية

إبراهيم عبدالمجيد

الدار المصرية اللبنانية

إلى فاطمة....

1

انفتح باب الطائرة فرأيت الصمت.

شيء نادر أن تشعر في ظهرك بهواء المكيف بينما صدرك ووجهك يقابلان الشمس وأنت بعد لم تفارق باب الطائرة، لكن الذي خلفي دفعني برفق فخطوت أول خطوة.

ما كدت أفارق السلم الصغير، وتلامس قدماي الأرض، حتى أحسست أني والأرض والفضاء شيء واحد، ساخن وفارغ.. وكان عليّ أن أمشي المسافة القصيرة حتى صالة المطار.

المطار صغير ليس فيه غير طائرة واحدة صغيرة بعيدة لونها أصفر قاتم، على جانبها رأيت صورة العلم الأمريكي، وتحت الصورة قرأت بالإنجليزية «القوات الجوية للولايات المتحدة»..

***

على باب الصالة رأيت بعض الجنود سمر الوجوه. زعق أحدهم: «الرجال في صف والنساء في صف».

وشاهدت خلف زجاج جانب الصالة سيرًا عريضًا يتحرك دائريًّا فوق الأرض، فأدركت أن فوقه ستصل حقائبي.

- تقدم يا ولد.

زعق فيّ أحد الجنود. أدركت أن الذين أمامي دخلوا إلى الصالة، وأني نمت واقفًا في الطابور.

- هل نسيتني؟

- إطلاقًا، كنت أنتظرك.

أجبت بعد أن اضطربت وكدت أعتذر. قال:

- إذن لا تغادر المطار دوني.

وبدأت الحقائب تظهر فوق السير، فوجدت نفسي أتركه وأقترب منها.

ما الذي يجعلني أنفِرُ من هذا الشاب؟

***

حملت حقيبتي الحمراء الصغيرة، ووضعتها أمام أحد الكشّافين الذين بدوا صغارًا لا يتجاوز أكبرهم العشرين من العمر.

ما كدت أغلقها حتى أمرني بفتحها من جديد.

- ما هذا؟ كتب؟

- «طبيبك الخاص» مجلة مصرية.

- هذه ممنوعة.

تعلقت عيناي بعينيه.. لم أجد ما أقوله.

- يا أخي ما للمصريين يحبون القراءة؟!

تساءل وأنا صامت. هل أقول إن «فاروق» الذي أرسل لي عقد العمل، أوصاني بإحضار هذا العدد الخاص عن الحمل والولادة؟ هل أقول إني لا أعرف قوانين البلد؟

- امضِ..

قال بلا مبالاة، وأغلق الحقيبة بسرعة تاركًا المجلة داخلها. انصرفت غير مصدق، ورأيت فارق ينظر إليّ من خلف زجاج الصالة مبتسمًا.

***

- ألم أقل إنك تنساني؟

أحسست بالحرج الشديد، ها هو ذا «عابد» يفاجئني للمرة الثانية. كنت جلست بالسيارة جوار فاروق، وكان يحدثني من النافذة المفتوحة يكاد يُدْخِل وجهه الطويل ذا العينين الضيقتين والحاجبين الكثيفين الملتحمين من الوسط.

تَخَلّصْتُ من ارتباكي، وقَدّمته إلى فاروق الذي قال وهو يدير السيارة:

- أهلًا. لقد تقابلنا من قبل.

وتساءل عابد:

- هل هذا قريبك حقًّا؟ إنه خجول جدًّا..

- هذه أول مرة يترك مصر. سيحضر إلى العمل غدًا.

كان فاروق يتحدث من دون أن يكلف نفسه مجرد النظر ناحية عابد الذي أدخل رأسه بالفعل من الزجاج المفتوح، فكدت أتنفس أنفاسه، وصرت لا أعرف إلى من أنظر، لكن عابد انصرف فسألت فاروقًا الذي تحرك بالسيارة:

- لماذا لم تدعه إلى الركوب معنا؟

- معه سيارة.

- إنه قادم معي من القاهرة.

- لا تشغل بالك بأحد.

وبدا لي أني لن أفهم شيئًا فآثرت الصمت، وأحسست بالجو حارًّا وخانقًا.

***

انطلقت السيارة الداتسون اليابانية على الطريق الضيق الطويل الذي تحيطه الرمال المترامية على الجانبين. فاروق يقود السيارة بسرعة مجنونة. الطريق خال حقًّا، لكني لم أركب من قبل سيارة تكاد تطير. انكمشت. فتح فاروق الراديو فسمعت صوت محمد عبده «لا تردين الرسايل»، ولما ظهرت بعض أكشاك خشبية على جانب الطريق قال فاروق:

- هذه شركتك.

رأيت طفلين يمرحان أمام الأكشاك. فرّت سيارة من جانبي، فذعرت، ابتسم فاروق وقال:

- الجميع هنا يقودون سياراتهم بجنون ويمرون من الجانب الخطأ.

لكني رحت أنظر إلى كلب أبيض بعيد بين الكثبان الرملية المتناثرة. كلب ضخم بدا لي مثل حمار شارد. لا بد أن فاروق لمحه أيضًا لأنه قال:

- هنا يقتلون الكلاب، يعتبرونها نجسة، هذا الكلب يعرف ذلك ولا يستطيع الاقتراب من العمران.

وضحك. وأنا تراجعت بذهني إلى الطائرة وكيف جَاوَرَت المصادفة بيني وبين عابد فكان لابد أن نتكلم. عرفت أنه يعمل في الشركة نفسها التي أسافر للعمل بها، وأنه كان يمضي إجازته السنوية بالقاهرة، وعرض عليّ أن أمضي ليلتي الأولى معه في سكنه، فأخبرته أن لي قريبًا بالبلدة ينتظرني، فحدثني عن غلاء أسعار السكن، وكيف أن للشركة سكنًا خاصًّا، لكن يحتله الآسيويون ونادرًا ما يخلو فيه سرير، ثم سألني عن عملي السابق وكيف حصلت على العقد، وخططي للمستقبل، وما إذا كنت خاطبًا أو متزوجًا وغير ذلك كثير مما سبب لي بعض الضيق، لكني فكرت إنه ربما يود معاونتي فعلًا.

وتساءل فاروق:

- لاحظت أنك تأخرت قليلًا في صالة الاستقبال؟

- «طبيبك الخاص» قالوا إنها ممنوعة.

ضحك وقال:

- لم تعد بذات فائدة.

ابتسمت، قلت:

- أصبحت أبًا إذن.

زاد من سرعة السيارة وقال:

- أصبحت أعزب. طلقت!

***

ظهرت البلدة الصغيرة واختفت بسرعة، ذلك أن فاروق جنح بسيارته إلى طريق يتجه إلى اليمين ويدور حولها من بعيد. في آخر الطريق رأيت مجموعة من البيوت المنخفضة، بينما البلدة حين لاحت لي، ظهرت بعض مبانيها عالية شيئًا ما.

فوق أزقة غير مستوية من الأرض كانت العربة تتأرجح، رأيت سيارات كثيرة تقف أمام المنازل ذات الأبواب الحديدية الضيقة.

قال فاروق:

- كل شارع هنا معرض للسيارات.

قلت:

- لم يمض عام واحد على زواجكما!

قال:

- لا تشغل بالك. أرادت أن تشتري أرضًا في قريتها وأردت أن أشتري في قريتي.

ولم أفهم. لم يبد من المرات القليلة التي التقيت فيها بفاروق أنه عصبي أو أهوج. هو في الحقيقة ابن عم لأمي ظهر فجأة في حياتنا منذ خمس سنوات. أي عام تخرجي من الجامعة. في ذلك الوقت قال إنه تم تعيينه مهندسًا في مصلحة الطرق بالإسكندرية ففكر في زيارتنا، وسألَتْهُ أمي عن أسماء كثيرة لأقارب لها بقريتها سمعت أنا أسماءهم لأول مرة، فأخبرها

فاروق بموتهم جميعًا. انقطع عن زيارتنا بعد ذلك عامًا، ثم ظهر يعاتبني على عدم زيارتي له، وعدم اصطحاب أمي لزيارة عمها الذي شاخ وهرم ولا يزال يذكرها، بل ويذكرني أنا أيضًا منذ كان يأتي إلى الإسكندرية في الخمسينيات، يشتري الكُسْب والأعلاف من شركة الزيوت والصابون، ويبيت ليلة في بيتنا. كانت أمي تشارك فاروق الحديث، وتصدق على كل كلامه، وأتردد أنا في القول بأني لا أذكر شيئًا من ذلك، بل وأشعر بأنه من الصعب أن يظهر لك قريب. هكذا فجأة وأنت في سن الشباب، ثم تنمو بينكما علاقة قوية، وأفكر أيضًا أني لا أعرف قريتنا هذه التي انحدرت منها أمي. لم أولد فيها ولم أزرها يومًا. لكن فاروق عاد واختفى مرة ثانية، ولا أدري كيف عرفت أمي أنه سافر إلى السعودية، ولا أعرف الدافع الذي جعله يرسل أكثر من خطاب يعرض عليّ فيه مساعدته في الحصول على عقد للعمل. لم يحدث أني شكوت أمامه من شيء ولا ألمحت لأي رغبة في ذلك.

لكن كان لا بد أن أسافر. من يرفض الآن فرصة سهلة كهذه؟ إنه شيء يحسدني الناس عليه. هكذا قالت أمي. إن عملي في التدريس لن يتحرك بي خطوة للأمام، وانتظاري للإعارة وفقًا لجدول وزارة التربية والتعليم، يعني الانتظار حتى يجف النفط. هكذا قال فاروق في رسائله.

- كان يمكن أن تؤجلا هذا الشراء.

قلت فجأة، فقال حاسمًا:

- ولماذا لا تطيع الزوجة زوجها؟

سَكَتُّ. وسَكَتَ هو لحظات ثم قال:

- أعطيتها ثلاثة آلاف جنيه. كنت تكلفت مثلها أيضًا في الزواج. سوف أعوض ذلك وأتزوج بأحسن منها. هذه هو البيت. يسكن معي طبيب ومدرس.

وتوقف بالسيارة أمام بيت صغير من دور واحد مبني من الطوب الأسمنتي.

***

كان الدش البارد شيئًا رائعًا بحق. وددت لو تركوني أنفرد بنفسي، لكنهم أصروا على أن أجلس معهم أشاهد المباراة الحامية في «الطاولة».

لم أرتح للبيت بشكل عام. حجرتان في كل ناحية، بينهما ردهة واسعة غير مسقوفة، وفي الطرف البعيد دورة المياه والمطبخ. قال فاروق إنه بيت على الطراز العربي، لكني وجدته مجرد مكعبات من الأسمنت. حجرات ضيّقة تطل نوافذها عَلَى الردهة، لا علَى الشارع، والنوافذ أيضًا ضيقة كأنها كوى سجن.

تحت المياه الباردة كنت أسمع صوت حركة «الزهرين» وفرقعات «القواشيط» وتصفيقًا وضحكات، وفكرت أن أخرج بسرعة متجهًا إلى غرفتي التي جهزها فاروق بدولاب صغير من البلاستيك، وسرير معدني لشخص، ومروحة، لكنهم لمحوني وأنا أقترب من الحجرة فهتفوا معًا: «لا نوم إلا بعد منتصف الليل، هذا قانون الطبيعة».

توجهت نحوهم، لاحظت أن عرقًا تفصَّد على ساقيَّ وصدري خلال المسافة القصيرة من الحمام إلى منتصف الردهة حيث يجلسون، ها نحن أولاء ندخل في المساء ولا يتغير الجو. هل هذا شهر سبتمبر حقًّا؟ في الإسكندرية يلف سبتمبر الناس والبيوت بموجة من النسيم الحاني. هنا هواء راكد ثقيل تستطيع أن تمسك قطعًا منه في يدك.

- هل معك ريالات؟

بادرني الطبيب الذي عرفت أن اسمه «وجيه». أثارني السؤال، وجاءت الإجابة من «سعيد» المدرس:

- نحن نلعب قمار.

كنت قد جلست على مقعد جهزوه لي بينهم. وسمعنا طرقات على الباب الحديدي فنهض فاروق بسرعة.

رأيت وجه عابد يطل علينا فقمت إليه. كان فاروق قد فتح الباب نصف فتحة ووقف بطريقة لا تترك طريقًا لعابد للدخول.

- خلا أحد الأسرَّة بسكن الشركة فإذا أحببت الانتقال إليه أستطيع تخصيصه لك.

قال عابد. وددت أن أزحزح فاروقا من مكانه، وأدعو عابدا للدخول، لكن فاروقًا يمسك بالباب ويكاد يسد الجزء المفتوح بجسده، وسبقني وقال:

- سنرى في الغد.

- لقد تعبت جدًّا حتى عرفت بيتكم، من حسن الحظ أني عرفت بخلو السرير بمجرد وصولي إلى الشركة، لا بد أنك رأيت الشركة في طريقك، لقد أخبرني «نبيل» عامل البوفيه، أن أحد الباكستانيين توفي في أثناء إجازتي، ووجدتها أنا فرصة أن أخبرك.. إنها فرصة نادرة لا تجعلها تفلت من يدك.

بدا وهو يتكلم، شديد الإخلاص، وصرت في غاية الارتباك من موقف فاروق الذي لا يترك الباب، ولا يتزحزح من مكانه، والذي سبقني مرة أخرى وقال:

- شكرًا.

انصرف عابد، بمجرد أن استدار، أغلق فاروق الباب وعاد، وظللت واقفًا للحظات ثم تبعته.

- سأقرض إسماعيل خمسين ريالًا.

قال فاروق قبل أن أجلس ولم أعلّق. خاطبني وجيه:

- لا تخف. ما تخسره ستأخذه. هذا قانون.

لم أعلق. قال سعيد:

- نلعب الدور بعشرة ريالات، وندوّن الخسارة والمكسب في هذه النوتة.

وبقيت صامتًا، فقال وجيه:

- آخر الشهر يعيد الكسبان للخسران ما خسره ونبدأ من جديد. وسكتنا جميعًا للحظات، فعاد وجيه يقول:

- لا بد أنك تتساءل عن جدوى ذلك إذا كان كل شخص يضمن استرداد أمواله، الحقيقة نحن لا نعرف..

***

2

- أول يوم مسموح لك فيه بالتأخير.

قال فاروق وهو يشرب معي شاي الصباح. قلت:

- أفكر أن أظل معك حتى أوصلك إلى المطار.

كنت متعبًا من كابوس داهمني بالليل. رأيت نفسي أتراجع في بطء وفزع، ويتقدم نحوي أربعة رجال سود، لهم عيون جاحظة، كل عين في حجم بيضة تدور أمامي، وفي أيديهم سياط طويلة رفعوها عاليًا، وأنا لا أعرف أين أذهب، فهم يحاصرونني من كل ناحية ويسوقونني، وأنا أتراجع بظهري، حتى دخلت إلى زقاق مظلم تحده من جانبي وخلفي جدران عالية من حجر بازلتي أسود ضخم، جدران أشبه بجدران القلاع القديمة، وراحوا على مهل يضربونني، وعلى مهل عيونهم تدور، وعلى مهل أصرخ، ولم يأت أحد لإيقاظي من الحجرات الأخرى. لا بد أن صوتي لم يصلهم. ولعله لم يخرج، وقمت لاهثًا أنظر حولي، فأدركت أني في حجرة صغيرة ضيقة في بلد بعيد.

لم يعاودني النوم إلا بعد وقت طويل فكرت فيه في الزمن الذي مضى من عمري لم أرَ فيه حلمًا ولم يهاجمني كابوس. قرأت مرة أنه بعد سن العشرين تندر أحلام اليقظة، وبعد الثلاثين تكاد تنعدم أحلام المنام. بعد العشرين يشرع الإنسان في تحقيق أحلامه. وبعد الثلاثين يكون قد حقق الكثير. أنا في الثلاثين ولم أحقق شيئًا ولا أحلم. زملائي المدرسون والمدرسات في مصر كانوا كثيرًا ما يتحدثون عن أحلامهم وحيرتهم في تفسيرها. معظمهم مثلي لم يحقق شيئًا ذا قيمة، ولكنهم يحلمون ويتحدثون عن أحلامهم.

كنت دائمًا أقول لنفسي: لماذا لا أحلم حقًّا مثلهم؟ وأتساءل حتى وصلت إلى أنني شخص راضٍ بما أنا فيه. راض شديد الرضا لا أرى للحياة بعدًا غير رعاية أمي وإخوتي بعد موت أبي. كثيرًا ما فكرت أني ربما صرت شخصًا غير راغب في الحياة.. ما الذي أوصلني إلى ذلك؟ القراءة القديمة التي انقطعت عنها؟ أم هو غبار في الفضاء يفسد صَبَوات الروح قبل أن تنشأ؟ ربما كرهي الدفين لحالة الرضا الزائد التي أعيشها، هو الذي جعلني أوافق على السفر، لو لم أفز بأي شيء فلابد أني سأهز الركود عن روحي ولو

مرة، لا يمكن أن أعود كما جئت. إن لم أفز بشيء سيصيبني ولو جرح صغير، إن لم أنجح سيكون لديّ أسباب للفشل، وها هي ذي روحي أخذت في الاهتزاز. تداهمها الكوابيس، مع أني لم أرتكب خطيئة، ولم أتناول طعامًا ثقيلًا في العشاء..

وقال فاروق:

- طائرتي ستقلع في الواحدة. الساعة الآن الثامنة. اذهب يحسب لك العمل من اليوم.

فاجأني أمس خلال السهرة بسفره اليوم إلى القاهرة. قال إنه أخَّر السفر حتى يستقبلني، وشعرت بامتنان حقيقي له، وسألته هل هذا موعد إجازته السنوية، فابتسم وقال إنه يسافر ليتزوج، ولم أتحدث معه بقية الوقت.

***

- لقد تأخرت.

قال عابد بمجرد دخولي إلى مكتبه ولم أرد. جلست على مقعد واسع من الجلد ورحت أتطلع إلى الغرفة الصغيرة وأحس بهواء المكيف البارد. الجو بعد لا يحتاج إلى المكيف فالساعة لم تدخل في العاشرة. وأزعجني صوت الجهاز. جدران الغرفة رمادية. جهاز التكييف رمادي. الموكيت المفروش على الأرض رمادي، المكتب الذي يجلس عابد خلفه رمادي. الغرفة كلها كئيبة. وصوت الجرس البيانو يدق مرات متتابعة ملسوعة، فيقفز عابد من خلف المكتب، ويقف لحظة يغمض فيها عينيه، ثم يطفئ سيجارته في المنفضة، وبهدوء يتقدم يفتح بابًا لم أنتبه إلى وجوده يُفضي إلى حجرة داخلية يدخلها وينغلق الباب خلفه، فأسمع صوتًا قويًّا..

- من عندك؟

- الزميل المصري الجديد..

- أدخله.

في اللحظة نفسها تقريبًا، رأيت عابدا أمامي يقول هامسًا:

«المدير». ويشير لي أن أتبعه.

واجهتني غرفة المدير باتساعها، وبرائحة الياسمين المشعشع فيها، وأحسست بالأرضية عميقة تحت قدمي. كانت مفروشة بالموكيت الأخضر القاتم الغني، لون المقاعد الستة الواسعة المنخفضة نفسه، ذات المساند العريضة المكسوة كلها بالمخمل الوثير. جدران الغرفة مكسوة بالورق الأبيض المفضض، والمكتب الخشبي واسع بيضاوي أبيض لامع، فوقه أربعة تليفونات: الأحمر مستطيل، والأسود مستدير، والأصفر أسطواني يرتكز على قاعدة سوداء مربعة، والأبيض في حجم علبة السجائر، والمدير خلف المكتب لا يظهر منه غير وجهه، الذي حين رفعه إلينا رأيته قمحي اللون، حاد العينين، صغير الأنف، رفيع الشفتين، وغترته فوق رأسه بيضاء لامعه والعقال الأسود حولها زاه. لكن المدير عاد ينظر إلى ورقة فوق المكتب، وتابعت النظر إلى دولاب زجاجي زواياه من الخشب الأبنوس، وبداخله بعض ملفات صغيرة رشيقة الألوان والأحجام، وكان المكيف يعمل، ولكن لا ضجة تصدر منه، وكدت من فرط هدوء المكان وانتعاشته أنام واقفًا. نسيت عابد الذي كان لا يزال يقف جواري، وفكرت، هل الصوت القوي الذي سمعته منذ قليل هو صوت هذا الرجل الهش حقًّا؟

- يا هلا.

قال المدير الذي تراجع بظهره قليلًا.. رددت في أدب وابتسام:

- أهلًا بك.

- تعرف الكتابة على الآلة؟

- لا.

بان الامتعاض على وجهه.

- تعرف القيادة؟

- لا.

قلت لا هذه المرة بصوت وددت لو لم يخرج. تأملني قليلًا وخاطب عابدًا:

- قل لأرشد يعلمه القيادة «ويسوّي» له رخصة.

ثم سألني بالإنجليزية:

- دو يو ريد آند رايت إن جود إنجلش؟

- ييس سير..

أجبت على الفور وخرج صوتي عاليًا بشكل ملحوظ.. تذكرت الجنود حين يتلقون الأوامر من قادتهم في الأفلام الحربية الأمريكية وكدت أضحك. رأيته يبتسم ابتسامة لا يريد لها أن تظهر. ربما يسخر مني، وربما هو مدهوش فعلًا من صوتي العالي.

***

لم يكن هناك شيء مهم..

عرفت أني سأجلس في الغرفة المجاورة لغرفة عابد. مبنى الشركة كله عبارة عن صف من ثلاث غرف خشبية ودورة مياه، يتعامد معه صف آخر من ثلاث غرف مهجورة، وبوفيه. بين الجميع باحة ترابية واسعة تقف فيها سيارات المدير، وسيارة عابد، وسيارات الزوار، ويحيط الجميع سور عال من القرميد الأبيض، له بوابة واسعة، ولا توجد شجرة واحدة.

ما كدنا ندخل إلى الغرفة التي سأعمل بها، حتى انشغل عني عابد بفتح خزانة معدنية مثبتة في الحائط. وقفت متحيرًا للحظات. لم أستطع أن أغض بصري عن رؤية حزم النقود الورقية الزرقاء الزاهية داخل الخزانة. عابد لم يدخل إليها شيئًا ولم يخرج منها شيئًا. فتحها فقط وأغلقها بعد لحظات.

أشار لي أن أجلس، فجلست خلف مكتب معدني كبير صدئ الزوايا، وجلس هو خلف المكتب القريب من الخزانة، ليس بالغرفة غير هذين المكتبين، ومقعدين جلديين قديمين، ودولاب معدني مفتوح بإهمال به أوراق مُثْرِبَة غير مُرتَّبَة.

قال عابد إنه سيكون عليَّ ترتيب الأعمال الإدارية، وقال إن العمل روتيني، وإن عدد العمال لا يتجاوز الثمانين. ثم تنهد وقال إنه كان يحلم بيوم يشاركه في العمل شخص مثلي، فهو سكرتير للمدير ومسئول مالي، وكان أيضًا يقوم بالأعمال الإدارية للأفراد.

الآن سيرتاح مع الأفراد ومشكلاته مع الغياب والحضور والمرض والسفر والإجازات والتعاقد وإنهاء الخدمة. سوف أقوم أنا بذلك، وأترجم أيضًا التقارير الواردة من القسم الفني الذي يعمل به الفنيون الأمريكان. للأمريكان مواقع عمل بعيدة، وسكن متميز، لكنهم يتبعون الشركة. هنا لا يوجد غير عمال عاديين يعملون في النظافة والبناء، وإقامة المباني، وصيانة منشآت قواعد الدفاع الجوي بالمنطقة الشمالية، وكلهم من الأجانب أيضًا، آسيويون بالأساس. هنا قطاع الخدمات. وللأمريكان قطاع الأعمال الفنية الراقية الذي سنتلقى منه بعض التقارير نترجمها لعم عبدالله. ثم قال إن أفضل طريقة للتخاطب مع المدير هي مناداته «بعم عبدالله». عبدالله اسمه، وكلمة «عم» بدلًا من أستاذ عندنا في مصر. ثم قال فجأة:

- هل تعرف أن عم عبدالله، أخفى عني نبأ التعاقد معك؟

- الحقيقة لا أعرف.

ابتسم وقال:

- له تصرفات غريبة عم عبدالله، لكنه دائمًا شخص طيب.

- يبدو كذلك فعلًا.

قلت غير معني بمدى صحة قولي. ودخل الغرفة شاب متوسط الطول يرتدي جلبابًا سمني اللون، أدركت من وجهه أنه مصري، كان يحمل صينية فضية فوقها علبة من «السفن أب» ويبتسم.

- هذا نبيل عامل بوفيه، يعيش معي في غرفة خلف المكاتب، لقد أبلغني أمس بخلو سرير في سكن الآسيويين كما قلت لك.

كنت أنا أبتسم مصافحًا نبيل الذي قال وهو يبتسم بدوره:

- أهلًا بك في بلدك.

أحسست بالارتياح لوجه نبيل. وجه مثير بحق. أنف عريض وشفتان غليظتان وعينان صغيرتان جدًّا، ولم يضايقني هذا التنافر، أحسست بالطيبة والعفوية خلفه. وسألني:

- حضرتك الأخ إسماعيل؟

- أجل.

- حدثني عابد عنك أمس. الحقيقة كنت أنتظرك بفارغ الصبر. أريد أن أسألك: غرفة مثل هذه مهجورة، وبلدة مثل هذه مهجورة، وخزانة مثل هذه عامرة ماذا تفعل بها؟ هه. قل لي بالله عليك.

كان يتكلم ويضحك، ولم أجد إجابة غير أن أبتسم.

***

جلست طويلًا وحيدًا في غرفتي صامتًا، فكرت فيما يمكن شراؤه من أثاث، فلم أجد حاجة إلا إلى دولاب زجاجي بدلًا من هذا القديم الصدئ، وعدد من الملفات الجديدة. أخبرني عابد أننا يمكن أن نشتري ما أحتاجه اليوم.

فجأة قفزت أمي إلى ذهني. لابد أنها تفتقدني الآن. كانت أكثر المتحمسين لسفري وأعرف أنها لا تحب أن أفارقها، ليتني كتبت خطابًا أرسلته مع فاروق. لا أستطيع أن أترك العمل من أول يوم لألحق به في المطار. سأكتب إليها في المساء وأرسل الخطاب بالبريد.

أعرف أن كل إنسان يحب أمه. هكذا في الغالب، وأنا مثل سائر الناس. لكني منذ موت أبي، صار حبي لها ولإخوتي مضاعفًا. حُبٌّ يخالطه نوع من القلق. حُبُّ أبوّة غير حقيقية. أنا إذن أختلف عن سائر الناس. لكن أمي مثل كل الأمهات لابد أنها تعرف أن آلافًا من المصريين يأتون إلى هذه البلاد، ومثل كل الأمهات لا تفكر إلا في ابنها الغريب الوحيد في هذا العالم. منذ الآن إذن عليّ أن أحرص عَلَى كتابة الرسائل، وأحرص على الكذب فأقول إني دائمًا بخير، وأحكي كل كابوس على أنه حلم جميل.. هكذا يفعل كل الذين اغتربوا حبًّا لغيرهم. هذا حقًّا زمن الكذب الجميل، وأنا واحد من رجال هذا الزمن.

وإذ أحسست باحتجاب الضوء القادم من الباحة، نظرت إلى الباب فرأيته شابًّا أسمر، مكفهر الوجه، يقف يسد الباب وفوق كتفه قرد. أجل قرد..

الشاب يرتدي جلبابًا أبيض سابغًا ونظيفًا للغاية، والغترة فوق رأسه بيضاء ونظيفة، والعقال أسود ونظيف، ولكن القرد هو الذي يشد عينيّ. لم أقف والشاب يدخل دون استئذان، ويجلس خلف المكتب الآخر القريب من

الخزانة، وتابعت النظر إلى القرد.. صغيرٌ بُني اللون، قليل الشعر، ذو عينين ملونتين حولهما شعر طويل، وحول عنقه هالة من الشعر الأزرق المنفوش، وله خصيتان زرقاوان ظاهرتان فوق كتف الشاب، وبين فخذي القرد كبليتين لامعتين. قرد جميل بحق يرفع ذيله الرفيع أعلى من رأس صاحبه.

- أين عابد؟

- في غرفته.

- غير موجود.

- ربما خرج في مشوار قريب وسيعود.

كنت لا أزال أنظر إلى القرد الذي وضع يديه فوق رأس الشاب.

- أعرف.

قال بحسم. وضعت رأسي فوق كفي اليسرى، وارتكزت بمرفقي على المكتب، ولذت بالصمت. لكنه سألني:

- أنت المصري الجديد؟

- أجل.

- شو اسمك؟

- إسماعيل.

وابتسمت علّني أتخلص من ضيق الصدر، لكنه تنهد وردّد اسمي لنفسه بدهشة، ثم زفر بغيظ غير مفهوم، وظهر نبيل واقفًا بالباب يضحك.

- ها. منصور!

ودخل مسرعًا يصافحه، لكن منصورًا لم يعطه يده، ولمحته يبتسم ابتسامة صغيرة. مد نبيل يده إلى رأس القرد، فتراجع منصور قليلًا. ضحك نبيل وخاطبني:

- هذا منصور.. هاها. وعلى كتفه منصور الصغير.. هاها هاها!

وراح يضحك بشدة، فنهض منصور مضطرب الوجه، وغادر الغرفة بلا كلمة. كان القرد يلتفت مضطربًا، وأدهشني أن منصورًا صَوَّبَ لي نظرة حادة غاضبة.

***

في العربة التويوتا الهايلوكس نصف النقل. قال عابد:

- ألم تفكر حقًّا في السكن مع الآسيويين؟

كنت أفكر في منصور وقرده. يَبْدَؤني بالعداوة دون سابق معرفة. كيف يتعامل معه نبيل بهذه البساطة؟ لقد حدثني عنه بعد خروجه، وقال إنه طيب ومسكين ويجب أن لا أخشاه.

- هل أنت مرتاح للسكن بالبلدة؟

- أجل.

وصمتنا، وتابعت النظر إلى الطريق الأسفلتي الذي بدا لامعًا للغاية على عكس ما كان في الصباح. الشمس الآن في وسط السماء، ولأن الأضواء تنعكس على الطريق متماوجة، أدركت عدم استوائه.

وفي اللحظة التي رأيت فيها الكلب الأبيض يجري بعيدًا بين الكثبان، الكلب نفسه الذي له منظر الحمار الشارد، هَبّت زوبعة ترابية صفراء جعلت عابد يبطئ السير بالسيارة. حاصرنا الغبار من كل ناحية فأغلقنا النافذتين. أضاء عابد كشافات النور، فرأيت ذرات التراب تطير أمامنا في عمودين من الضوء، وتمور في الفضاء.

- هذا هو «العَج» ريح متربة تهب على البلدة بلا موعد.. ربما كل يوم. ربما أكثر من مرة في اليوم الواحد. وكثيرًا ما تختفي لأيام طويلة.

وبدا أن العاصفة لن تهدأ، وكدنا نختنق. أدار عابد مَسَّاحات الزجاج التي راحت تزيل التراب المنهمر كما تزيل ماء المطر، وسمعنا صوت ارتطام ذرات الغبار بجسم السيارة، وبدأت أخاف.

قلت:

- لابد أن نقف.

كان عابد يهدئ من السرعة كثيرًا، ويأخذ جانب الطريق ليقف، لكن العاصفة راحت تنقشع شيئًا فشيئًا، ويعود الفضاء أبيض، والأسفلت أسود، والسماء فَوْقنا عادت زرقاء. رأيت البلدة تقترب ممتدة على الجانبين بمبانيها المنخفضة البيضاء ودخلناها.

***

- هذا هو الشارع العام. الشارع الرئيسي بالبلدة.

قال عابد، ثم أضاف:

- البلدة صغيرة. وأحياؤها قليلة. السليمانية. الفيصلية. العزيزية. أم درمان. البلدة كلها في حجم ميدان التحرير بالقاهرة، لا بد أنك رأيته. خانق. أليس كذلك؟ وبنوا فيه «كوبري» علويًّا للمشاة. تصور!

كنت منجذبًا إلى الزحام، ومشهد السيارات الزاحفة في نَهْرَي الشارع، والمحلات المفتوحة على الجانبين. الشارع العام هو السوق الذي سنشتري منه ما أريده لغرفتي وعملي. وتركت عَيْنَيّ ترتفعان وتنخفضان مع الأقمشة المعلقة في علاّقات عالية أمام المحلات، ورحت أنظر إلى الأدوات والأجهزة الكهربائية المكدسة والمرايا اللامعة خلفها بارفانات وعطور وساعات وكتب وأقلام وثياب فضفاضة زاعقة ألوانها؛ الأسود صارخ، والأحمر صارخ، والأخضر صارخ، والأصفر والأزرق. والأزهار كبيرة تتوسط الألوان، والأبيض قليل، والكراتين الفارغة على الأرصفة، والأوراق المهملة في الطريق، وجماعات من الكوريين الشباب تجري وتضحك، ورجال بجلابيب، ورجال بسراويل، وهنود لهم لحى سوداء وعمائم ضخمة يمشون على مهل، ورجال بلحى حمراء مخضبة بحناء بيض الوجوه، مسنون يمشون في تعب. عرفت أنهم أفغان، وشباب ورجال عيونهم تلمع في الفضاء وهم يسرعون في سراويلهم الفضفاضة والقمصان الواسعة فوقها، باكستانيون. ورأيت الأمريكان في الجينز، والمصريين أيضًا، والنساء لا أرى وجوههن إلا كشعاع يختفي وأنت تغلق نافذة. شمس عالية، وفضاء أبيض واسع، وسيارات زاحفة إلى الناحيتين، ورائحة شواء. وأكاد أرى راقصات من ألف ليلة وليلة يوزعن الكئوس على المارة مترعة بشراب ثقيل، وشهريار يمر في موكب من

الغلمان والقيان خلفه أعلام وصنوج، وأصوات نفير السيارات تختلط بأصوات المسجلات. وقال عابد:

- «تبوك تنسيك أمك وأبوك» مَثَلٌ يتداوله المصريون هنا.

وحطّ على الدنيا صمت.

- ما هذا؟ اسمع.

وأبطأ من سرعة السيارة البطيئة أصلًا. أرهفت السمع. رأيته يفتح عينيه بأقصى اتساع، ويمد رأسه إلى الأمام يكاد يخرج بها من الزجاج. سمعنا «المتوسطة».

وكأني أرى الصمت نفسه فقد توقف كل شيء عن الحركة الآن.

- فضيحة جديدة!

قال عابد وأشار لي بأصبعه أن لا أتكلم. لم أتكلم وراح الصوت يقترب. ظهرت من شارع جانبي سيارة شرطة مكشوفة يقف في صندوقها الخلفي شرطي يمسك بميكروفون وتقف جواره امرأة أو فتاة. شيء مغطى بالسواد كله من الرأس حتى القدمين لا يكون إلا كذلك. الشرطي يتحدث في الميكروفون بصوت تضخم الآن وبدا متنافر النغمات. لحيته طويلة، والغترة فوق رأسه خضراء حائلة بها خطوط سوداء قديمة، وحولها العقال باهت، وملابسه صفراء تلمع أزرارها النحاسية تحت الضوء ويقول:

«... واضحة بنت سليمان بن سبيل التلميذة بالمدرسة المتوسطة بالعزيزية كانت تخرج كل يوم بعد الدراسة، مع اليمني اليامي بن عبدالله اليامي...».

ويزداد الناس على الأرصفة وفي أفواه المحلات، ويزداد الضوء فوق الدنيا، وأرى الفتاة هشة ضئيلة، إلا أن العباءة السوداء تلمع وتحدد لنفسها موضعًا في الفضاء الأبيض الواسع، وتشد كل العيون.

«... كانت تخرج معه كل يوم إلى طريق تيماء المهجور».

ولا أعرف كيف استطاع عابد أن يوازي سيارة الشرطة. صار الصوت كأنه كُتَلٌ من الحجارة تسقط فوق رأسي.

«اليامي لم يعتد عليها، لكنها لفعلتها الشنعاء فُصِلَتْ من المدرسة».

- فاجرة.

هتف عابد وهو يعض على أسنانه، وأنا الذي لم يخطر ببالي شيء كهذا تصلّبت عيناي على الجسد الصغير ضائع القسمات تحت العباءة السوداء الواسعة. أريد، يا ربي، ساعدني، أن أرى وجهها. صار ذلك حاجتي التي تتمدد بالحزن في صدري. الحَبْرة فوق الوجه ثقيلة، لكن ضوء الشمس باهر يستطيع أن يكشفه لو أراد. يقيني أنها ماتت واقفة، وأملي المؤلم، أن أراها تتحرك، آه لو تتحرك. إنها حتى لا تهتز مع حركة العربة، والشرطي القرد الضخم لا يكف عن الوقوف والانحناء وهو يصرخ في الميكرفون:

«اليامي سُجن ثلاثة أشهر سيغادر بعدها المملكة بلا عودة».

وأتطلع إلى الشمس في قُبة السماء. بعيدة. لكن الضوء يغمر الدنيا ببراءة اللبن الحليب، ويأخذ عينيَّ مني سواد العباءة والحبرة وجمود الجسد. يا ألله. يا أرحم الراحمين. ها هو ذا الجسد الصغير يختلج. أكثر من مرة يختلج. لا ريح في الفضاء ولا نسمة، ولا يحرك العباءة الآن إلا اختلاجة الجسد، وانتفاضة الروح..

ولم أعد أسمع الشرطي، ولا عابد الذي صار يتكلم كالمجنون يسبّ الفتاة واليمني. رحت أتابع العربة التي تبتعد. أتابع العباءة وهي تتحرك. الجسد وهو يختلج، حيّة هي إذن لم تَمُتْ، والناس عادت تتحرك في الشارع والعربات، وراقصات ألف ليلة وليلة قفزن يوزعن الكئوس، وموكب شهريار راح يتقدم حوله الفتيان والغلمان وخلفه الأعلام والصنوج، وعاد الكوريون يجرون ضاحكين، والهنود يمشون على مهل ممشوقي القوام، والباكستانيون يبتسمون ويعكسون أشعة الشمس في عيونهم، والأفغان المسنون فتحوا أفواههم للفضاء في ذهول، والمصريون يتلكئون أمام الفتارين، والأمريكان يشربون «البارد» وأيديهم اليسرى في خصورهم وعلى أنوفهم العالية نظارات قاتمة، وحاصرتني البضائع وأصوات المسجلات المختلطة الناشزة وعدت أشم رائحة الشواء، ولم أعد أرى في الشارع نساء.. أي نساء.

3

صرت أحب البيت ووقت العودة. تأتي الساعة الثالثة فيتسع الفضاء بي. لم أتعلم القيادة بعد. «أرشد» كل صباح يسألني وهو يوقِّع في دفتر الحضور: متى ستأتي إلى الورشة مستر إسماعيل.

وأجيب: في أقرب فرصة، وللآن لم أذهب لا أعرف لماذا.

يحملني عابد في سيارته، وأصل إلى البيت في حوالي الثالثة والنصف لأجد سعيدًا قد أعد الغداء. سعيد أول من يصل منا.

أحيانًا أساعده، لكنه كثيرًا ما يكون انتهى من إعداد كل شيء. نتغدى في العادة وحدنا. وجيه يعود في الخامسة، وكثيرًا ما يعود مرة أخرى إلى المستشفى. غداؤنا قطع كبيرة من اللحم المسلوق وأرز وأي نوع من الخضر وسلطة، والفاكهة عنب أو كمثرى أو بطيخ. كل شيء يأتي طازجًا من الأردن. يقول سعيد. ووجيه يحتج على كميات اللحوم الكبيرة التي نلتهمها، ويلفت انتباهنا إلى ضرر الخضار المسبك في هذا الحر، وضرورة أن نتعلم أكل السوتيه، لكن سعيد يضحك ولا يهتم. لا يغير طريقته في طهو الطعام، ولا وجيه يتوانى عن التهام أكبر كمية منه!

أدركت صحة كلام وجيه من النوم الذي يداهمني بسرعة بعد الغداء، ومن الوخم الضاغط الذي يكبس على صدري ورأسي. ومن الحركة الغريبة التي صرت أحسها في أمعائي وإلحاحها عليّ لإخراج الرياح، لكني لم أسع لتغيير طريقة سعيد في الطهو.

صرت أحب البيت، وتهفو نفسي إلى العودة إليه، منذ يقف عقربا الساعة على الثانية عشرة. لماذا اشتريت يوم نزلت إلى السوق ساعة الحائط هذه للمكتب؟ لماذا وافقتُ عابدا عَلَى ذلك؟ لقد ثبتُّها أمامي، وكأني أعذّب نفسي، أرفع بين وقت وآخر عيني إليها. حين ينضم العقربان إلى الثانية عشرة، أبدأ في متابعة حركة عقرب الدقائق دقيقة بدقيقة. أراه يقفز أو أسمع صوت قفزاته. في الثانية عشرة أكون انتهيت تقريبًا من معظم الشغل، وتصبح الساعات الثلاث الباقية دهرًا، فأفكر في البيت.

هنا لا أستطيع أن أترك العمل، الغرفة، لأكثر من دقائق، ونبيل لا يستطيع أن يمضي وقتًا طويلًا معي، وعابد في غرفته أو خارج المكان كله. عابد في العادة يمضي معظم وقته في أعمال عم عبدالله الخاصة، وهي أعمال غير أعمال الشركة. يقول لي أن أجلس في غرفته حتى يعود، ولا يعود إلا بعد وقت طويل يكون عليّ فيه أن أقوم بأعمال السكرتارية التي لا تزيد على استقبال الرسائل التليفونية.

- آلو.

- من أنت؟

- إسماعيل.

- عَمُّك موجود؟

- لا. هل من خدمة أؤديها لك؟

- أخبره أن الشيخ صالح «ذهم» عليه.

وأضع السماعة ويدق التليفون.

- آلو:

- من أنت؟

- إسماعيل.

- وين عبدالله؟

- خرج.

- أدري. وين خرج؟

- ما أدري والله.

- كيف ما تدري. حمار أنت؟

وتغلق السكة في وجهي، ويدق التليفون.

- آلو:

- يا عابد جهزت الريالات؟

- أنا إسماعيل.

- من هو إسماعيل؟

- موظف جديد.

وتغلق السكة، ويدق التليفون وليس لي أن أشكو. عليّ فقط أن أدون الأسماء حتى إذا جاء عابد أو عم عبدالله أقدمها له.

الآن وقد مضى عليّ أسبوعان لم يعد يزعجني ذلك، تعودته وتعود المتحدثون وجودي واسمي، وخَفَّتْ حدة كلامهم، وبعضهم صار يداعبني، ويسألني عن مصر، وأحوال مصر، وأنا لا أعرفه، ولم يسبق أن التقيت به، لكني لم أعد قادرًا على نسيان النظر إلى الساعة حين تصل إلى الثانية عشرة. حتى لو كنت في غرفة عابد، أنظر إلى الساعة المماثلة تمامًا، التي اشتراها هو أيضًا لغرفته.

بعد الثانية عشرة يبدو الكون هنا واسعًا فارغًا؛ فالشمس تضيئه حتى كأنها ستشعله، ويصبح ظهور شخص أو سيارة أمرًا نادرًا إلا اليمني العجوز الذي يرتدي زيًّا إفرنجيًّا، وأفاجأ دائمًا به وقد جلس على أرض الباحة بجوار السور، وراح يضع السواك في فمه يحركه بيده. لم يحدث أني رأيته يدخل الباحة مرة. دائمًا أراه جالسًا بعد الثانية عشرة يحرك السواك في فمه. لا تضايقه الشمس فوقه ولا تراب الأرض التي يفترشها. أنظر إليه فينظر إليّ ويبتسم، وأرى نبيل يتقدم نحوه بكوب من الشاي يأخذه في صمت، ويعود نبيل في صمت أيضًا. وإذا دخلت سيارة عابد أو عم عبدالله أو أي زائر، وأثارت التراب في الباحة، فلا يتحرك من مكانه. كلما نظرت فقط إليه نظر إليّ مبتسمًا تلمع عيناه بذكاء حاد. إنه سائق شاحنة وفي حوالي الخامسة والخمسين. قلت لعابد مرة:

- ليس لهذا اليمني اسم في دفتر الحضور، ولا في دفتر الانصراف، وليس له ملف عمل عندي.

- هناك اتفاق بينه وبين عم عبدالله أن يتقاضى راتبه من دون أن يتم تعيينه بشكل رسمي.

- لكن تعيين اليمنيين لا يترتب عليه أي أعباء، إنهم يعاملون كأبناء المملكة، ويستطيعون ترك العمل في أي وقت!

- صحيح، وهو يعرف ذلك، لكنه يقول من يضمن ثبات الأحوال. عم عبدالله يحبه ويوافق على شروطه.

قلت لنفسي: إذن لن يدخل هذا الرجل مكتبي أبدًا.

لا أعرف بحق لماذا فكرت في ذلك، ولا أعرف لماذا أحببت أن يدخل هذا الرجل مكتبي. أشرت له بيدي مرة أن يتقدم إلى المكتب، فلم يفعل أكثر من أنه ابتسم، وعاد إلى السواك يديره في فمه. وفجأة فكرت كيف لا أراه إلا وهو جالس في موضعه بعد الثانية عشرة. شغلني ذلك، وراقبت الباحة ليومين حتى أراه في قدومه، ودائمًا كنت أنشغل في أمر ما. كانت لحظة من الانشغال كافية لأن أجده جالسًا ينظر إليّ مبتسمًا وتلمع عيناه بالذكاء المشتعل كأنه يعرف بالضبط ما أريد، ولا يريد أن ينيلني إياه.

صرت أحب البيت، ومنذ الثانية عشرة كل يوم لا أكاد أستقر جالسًا، ما الذي يقلقني كل هذا القلق؟ أستطيع لو أغمضت عينيّ أن أفسح الطريق لمرور الوقت والساعات الثلاث الباقيات لا تمر بطيئة إلا لأني أنتظر مرورها.

البيت حقًّا جميل. بعد نوم القيلولة نضع «الطاولة» بيننا في الباحة ونضع النوتة وعلبة النقود. الآن نادرًا ما أخسر. لا يمر يوم إلا كسبت ثلاثين ريالًا، وكلما ضبطت نفسي جادًّا في اللعبة أكثر مما ينبغي، قلت يا إسماعيل لا مكسب ولا خسارة، كل شيء سيعود إلى أصحابه. لكني سرعان ما أنسى وأبدو جادًّا في اللعب، ويضحك سعيد ووجيه على هذا التحول الذي أصابني.

ردهة البيت جميلة حقًّا بالمساء. نحن نتقدم في سبتمبر، والنسمة بالليل تبدو وقد لانت قليلًا، والتليفزيون دائمًا أمامنا حتى لو كنا نلعب الطاولة. أنا الذي أنقل التليفزيون من حجرة سعيد إلى الردهة. أنا الذي أحرص على ذلك.

صرت أحب التليفزيون وأحفظ كل برامجه. لم يحدث في مصر أني ضبطت نفسي متلبسًا بالاهتمام بالفرجة على التليفزيون. هنا تنمو بيننا علاقة غير مفهومة. هنا أكاد أتخيل أن برامجه حقيقية تدور حولنا. وصرت مغرمًا بالفرجة على حلقات رجل بستة ملايين دولار، التي تُبَثّ أكثر من مرة في الأسبوع. لم أهتم قط بها في مصر، هنا شاهدت ثلاث حلقات مثيرة، وأمس أعلنوا قرارًا بعدم عرضها مرة أخرى بسبب حوادث في الرياض والدمام.

ألقى بعض الأطفال أنفسهم من الأدوار العليا تقليدًا لستيف أوستين. أعلنوا عرض حلقات جديدة بعنوان «الرجل الأخضر» ستبدأ الأسبوع القادم، وأنتظر بشغف شديد هذه الحلقات. كل شيء تافه في التليفزيون هنا صار يأسرني. بثوا فيلم فارس بني حمدان مرتين، وفي المرتين رأيته كأني أراه لأول مرة، وفي المرتين أحببت فريد شوقي وكرهت غريمه محمود مرسي، رغم إدراكي لسذاجة الفيلم كله.

في الردهة، وتحت السماء العالية، وفي نسمة لينة، تبدو أصوات المغنين شيئًا ساحرًا. وفي الردهة، وتحت السماء العالية، يأخذني صوت المؤذن لصلاة المغرب ثم صلاة العشاء إلى آفاق عالية من الشجن. صوت المؤذن كأنه نداء طائر ذبيح من فوق جبل شاهق.

بعد المؤذن أسمع صوت المذيع الشجي وهو يرجِّع أحد الأحاديث النبوية. يا إلهي ما سر هذا التوقيع العميق، وتلك النبرة شديدة الأسى، التي تحملني إلى أودية الوداعة والسكينة؟ فضاء يفتح بوابات الراحة في روحي، ويكاد الدمع يترقرق في عينيّ أنا العاصي الذي لا يعرف ذنبًا ارتكبه.

صرت أحب البيت، وأرفض كل دعوة للخروج منه، حتى لو كانت دعوة عشاء عربي مما يتكرر كثيرًا. يذهب سعيد أحيانًا أو وجيه لحضور مثل هذه الدعوات عند بعض أصدقائهما أو أصدقاء لأصدقائهما من أهل البلدة، ويأتون يتحدثون عن «الكبسة» الأكلة الشعبية العربية، حيث تقدم الخراف الصغيرة المشوية فوق صوانٍ كبيرة فوقها الأرز المحشو بالصنوبر واللوز والجوز، وكيف يصير الأكل بالأيدي مباشرة، والشاطر هو من يضبط شهيته، لأن الإسهال كثيرًا ما يصيب الذي يُقبل على الأكل بهمّة. ويقول سعيد: «ليس مهمًّا أن تأكل. المهم أن تتفرج»، لكني أحب إذا دخلت البيت أن لا أغادره.

ينتهي الإرسال التليفزيوني، وأدخل حجرتي أقلب في الصحف والمجلات التي يشتريها وجيه وسعيد، ويتركانها في المطبخ بعد قراءتها. كل الصحف تتحدث عن السادات وتلعنه، وحملت المجلات عنوانًا يقول: «ألا من رصاصة تزف إلى رأس الخائن»؟! وفوق العنوان صورة للسادات في البدلة العسكرية الألمانية وفي فمه البايب الشهير. لا أقف كثيرًا عند السياسة. أتجاوزها وأبحث عن الإعلانات عن نساء. صور عارية لنساء. لا أجد ذلك حتى الآن رغم كثرة الإعلانات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث إيطاليا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة.. النساء شيء لم أفكر فيه من قبل، لكن لا بد أني ما جئت إلا من أجل ذلك. لماذا أتيت هنا حقًّا؟ لجمع المال؟ لإخوتي؟ للأكذوبة التي وضع أبي حبلها في عنقي؟ أنا لا بد

خائض بحر النساء يومًا. ذلك البحر الذي لم أشأ أن ألقي فيه يومًا بحجر، والذي بسبب ذلك الحرص اللعين على الأكذوبة، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذي لا أعرف من أين أصابني، ضَيَّعْتُ أكثر من قلب، وضَيَّعْتُ قلبًا كبيرًا. أي رجل تعيس أنا! لكني صرت أحب البيت ساعة ننقل مراتبنا إلى الردهة لننام. ويقول وجيه إن ذلك سيصحبه أكبر الضرر فيما بعد، لكنه لا يتركنا. ويقول سعيد ليس أجمل من نوم رجل وامرأة هنا تحت السماء والطير والنجوم، ونضحك. في بنصره الأيمن دبلة الخطوبة، ولم أحاول أن أعرف منه شيئًا، هو لا يتحدث في الأمر، لكنه ينشد وهو ينظر إلى قبة السماء المرصعة بالنجوم.

كليني لهم يا أميمة ناصب

وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تقاعس حتى قلت ليس بمنجل

وليس الذي يرعى النجوم بآيب

ونضحك، ويقول وجيه: لكن صاحبتك اسمها «وداد» وليس «أميمة»، فيغمز لي سعيد بطرف عينه ويقول: «جاهل»! وأُعجب من معرفة سعيد بالشعر وهو مدرس التربية الرياضية.

أود أن أقول إني أيضًا أعرف الكثير وإن علا التراب الذاكرة، وإني قضيت صباي ومطلع شبابي مع الأغاني وعيون الأخبار وإني وإني.. ولا أقول، بل أقول لنفسي: كان الوقت متسعًا فلا تأسَ.

وأفكر كيف أن سعيدًا أبدًا لا يخوض في حديثه عن خطيبته التي عرفت اسمها فقط، كذلك لم أعرف عن وجيه حتى الآن أكثر من أنه متزوج. ذلك واضح من الدبلة التي في بنصره الأيسر، لكن سعيد قال له: «لا يقاسي الحب من يتسع قلبه لامرأتين يا دكتور». وسكتُّ أنا مرتبكًا، وفوجئت بوجيه

لا يهتز. يضحك ويقول: «الله يعرف أكثر منا، لذلك شرع أربع نساء للرجل، وأنا أبحث عن الثالثة الآن».

ونظر إليّ وقال: «هل يبدو أني متزوج من اثنتين»؟ ابتسمت مرتبكًا، لكنه استمر يضحك ويقول إنه تركهما معًا في المنصورة، لم يشأ أن يصطحب واحدة فتغضب الأخرى، وهو يحب أن «يرفق بالقوارير».. ولأمر ما ترَكَنا وجيه للحظات ودخل حجرته، فهمس لي سعيد بأن زوجتيه فائقتا الجمال، لواحدة ولدٌ كالبدر وللثانية بنتٌ كالقمر، وهو ما دام تحدث عن امرأة ثالثة فلابد سيفعلها، لكني لم أجد من الواجب أن أخوض في شئون أي منهما طالما أنه لا يفتح الباب. عَوّدت نفسي ذلك، وآثرت أن أعرف عنهما ما يلقيان به إليَّ، ولم أشعر بأي ضيق. أنا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلأكن مرآة لامعة تنزلق عليها الوقائع، ولا أفسد إحساسي بالراحة في البيت، ولا أحاول أن أغتنم فرصة غياب واحد منهما لأعرف منه شيئًا عن الآخر. أمامي وقت طويل معهما لابد ينكشف لي فيه كثير من الأسرار.

- ما لك اليوم تلعب شاردًا؟

قال سعيد ونحن نلعب الطاولة في الردهة. كان وجيه نوبتجيّا الليلة بالمستشفى.

- فاروق. لم يصلني منه خطاب.

ضحك وقال:

- هل تنتظر خطابًا من شخص سافر ليتزوج؟ العب.

وقذف بالزهرين بقوة، وسمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب.

- تُرى من الذي يأتي الآن؟ ربما وجيه ترك العمل وعاد يلعب الطاولة.

قال سعيد وهو قائم يضحك ليفتح الباب. فتح وسمعته يصيح:

- أهلًا يا دكتور رأفت. تعال. لدينا زبون جديد.

ودخل الردهة شخص ذو قامة طويلة، تقدم يصافحني بحرارة، فبادلته المشاعر نفسها، وقدّم له سعيد مقعدًا وهو يقول لي:

- الدكتور رأفت. طبيب مسالك بولية عظيم. إنه هو صاحب فكرة اللعب بالفلوس ورد الخسارة لصاحبها آخر الشهر. لا بد أنك ستلعب معنا يا دكتور، مضى وقت طويل لم نرك.

ابتسم رأفت بهدوء، وقال:

- الحقيقة أنا لم آت لأسهر. جئت فقط لأودعكم. أين وجيه؟

تساءل سعيد بدهشة:

- تودعنا؟ خيرًا يا دكتور.

- إنني عائد إلى مصر عودة نهائية.

- معقول؟!

- لماذا لا يكون معقولًا؟ سأسافر في الصباح. ألم يخبرك وجيه؟

- إطلاقًا. وجيه اليوم نوبتجي في المستشفى.

هزّ رأفت كتفه وابتسم وخاطبني:

- القرار الصعب هنا أن تحدد متى تعود. الوقت هنا ممل. يبدو كذلك حقًّا، لكنك تكتشف فجأة أنه مرَّ بسرعة وأخذ معه خمس سنوات من عمرك. بعضنا هنا أمضى عشر سنوات. كم خمس سنوات وكم عشر سنوات في عمر الواحد منا؟ لا أحد يفكر في ذلك. قوة الشباب وكثرة المال تُنْسينا. لقد حاول كثيرون ثنيي عن العودة لكني قررت. خمس سنوات كافية جدًّا لأي بلد غير الوطن. هنا لو تأملت الأمر ستجد سجنًا كبيرًا. من حقك أن تزور الناس وتتحرك، لكن الناس هي الناس ولا صباح جديد ولا مساء جديد - ولم يلاحظ أن حديثه طال أكثر مما ينبغي- أنا لا أستطيع البقاء في دولة يتم الانتقال بين مدنها بالطائرات، أكثر من خمس سنوات. ثم ماذا يريد الواحد منا غير مبلغ معقول يبدأ به حياته في مصر؟ أنا فعلت ذلك. عندي الآن عيادة في طنطا، وسأسافر من هنا إلى أمريكا أشتري بعض الأجهزة، وأعود أعمل بالعيادة وأعيش كأي مواطن يعتمد على عقله وقوته.. هل تراني مخطئًا؟

ابتسمت. أجبت:

- على العكس. معك كل الحق.

كان سعيد قد تركنا واتجه إلى المطبخ ليعد كوبًا من الشاي لرأفت، وعاد به يقدمه إليه قائلًا:

- شاي بدون سكر يا دكتور.

- أشكرك:

وأخذ كوب الشاي، وقال لي:

- السكر عندي مرتفع. لا تنزعج. يحدث ذلك لكثيرين الآن.

وقال سعيد:

- لا أظن أن وجيه سيتأخر. إنه نوبتجي بالمساء فقط، لن يبقى للصباح.

- غريب أنه لم يخبرك، يعرف أني سأسافر غدًا ولا يفكر أن يمر بي.

- قد يفعلها في عودته. ربما رتب نفسه على ذلك.. ستوحشنا كثيرًا يا دكتور. إسماعيل سيّئ الحظ لأنه لم يتعرف عليك من قبل. أنت لم تزرنا.

وخاطبني الدكتور رأفت:

- أنا سعيد بمعرفتك يا أخ إسماعيل. هل تحب أن أحمل لك أي رسالة لمصر؟

- احمل لي السلام يا دكتور.

- تصور يا أستاذ إسماعيل، إنني أكثر الناس احتياجًا للبقاء هنا. سعيد يعرف ووجيه. ابني المصاب بشلل الأطفال يلتهم علاجه معظم ما أكسبه. ابني هناك في مصر، لكني قررت أن لا أبتعد عنه أكثر من ذلك.

ارتبكتُ كثيرًا. قلت:

- ربما كان وجودك معه أفضل علاج يا دكتور.

- هل تظن ذلك حقًّا؟

- بالتأكيد.

وصمتنا، ولاحظت أن دمعًا بدأ يترقرق في عينيه. وفي اللحظة التي همَّ فيها بالقيام، سمعنا المفتاح يدور بالباب، وهتف سعيد:

- هذا هو وجيه.

ودخل وجيه بالفعل وهو يقول:

- مساء الخير على المصريين.

صافحنا وقال لرأفت:

- أنا قادم من عندك. لم أجدك بالطبع. لا تلمني. ما حدث الليلة فظيع!

- ماذا حدث؟!

تساءل رأفت بهدوء. فقال وجيه بعد أن جلس على مقعد رابع:

- تبوك لن تنام الليلة. ثلاثة من الصعايدة قتلوا صاحب العمل. قطّعوه قطعًا صغيرة منذ شهر، ووضعوه في ماكينة خلطة الخرسانة، وضاعت الجثة في البناء. اكتُشِفَتْ الجريمة اليوم فقط. ثم القبض عليهم واعترفوا، ونُقِلَ أحدهم إلى المستشفى بين الحياة والموت من أثر التعذيب!

***

4

أي يوم جميل هذا؟!

وقفت أحدث نفسي أمام باب غرفة مكتبي متطلعًا إلى السماء الزرقاء العالية، والفضاء السابح في نور الشمس الباهر. الصمت بعد لم تفسده قوة الحر، فالساعة لم تتجاوز الثامنة. جاء العمال وانصرفوا بعد أن وقَّعوا في دفتر الحضور، ولم أفعل شيئًا بعد ذلك غير شرب القهوة، والجلوس قليلًا أتذكر دخولهم في السابعة مسرعين.

«صباح الخير».

«جود مورننج».

«السلام عليكم».

جمل ثلاث أسمعها كل صباح، وفي الظهيرة حين يعودون للتوقيع في دفتر الانصراف يقولون فقط «السلام عليكم». يتحدثون بسرعة كما تأكل الأرانب، وأبتسم في وجوههم لأنهم دائمًا يبتسمون. لكنهم دائمًا على عجل. لا فرصة لقيام علاقة مع أحد. يحدث أن يتردد البعض إلى المكتب أثناء النهار، لكن لوقت قصير أيضًا، لمقابلة عم عبدالله أو للتحويل إلى طبيب، أو لطلب إذن بالانصراف ساعة لقضاء عمل يتعلق بالبنك أو استقدام الزوجة والأبناء. فيليب سوساي بيليا، الكهربائي السيلاني العجوز هو الذي يقف أحيانًا يتحدث معي. أَخْرَجَ مرة نسخة صغيرة من القرآن من جيب سترته وفتحها وأشار إلى آية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[(1)]، وسألني ماذا تعني؟ راعني أنه يحمل نسخة من القرآن، وراعتني النسخة نفسها فهي بالإنجليزية والعربية معًا. أجبته:

- في تعب ومشقة.

تساءل:

- كل الناس تتعب؟

- المعنى أنه لا راحة في الحياة الدنيا. الراحة الحقيقية في الآخرة.

قال في دهشة:

- لكن الناس هنا مرتاحون جدًّا؟

- من تقصد؟

- أهل البلدة مستر إسماعيل.

ابتسمت. سألته:

- هل أنت مسلم يا فيليب؟

- بوذي لكني سأشهر إسلامي. أنا لا أريد العودة إلى سيلان.

أدهشني وهو الذي تجاوز الخمسين أنه يفكر على هذا النحو، لكني ابتسمت وشددت على يده وهو ينصرف. لم يمر يوم بعد ذلك إلا سألني فيليب عن معنى من معاني القرآن، ولما سألته متى سيشهر إسلامه، قال:

- بعد أن أفهم القرآن كله مستر إسماعيل. إنني جادّ في الأمر.

غير فيليب كان هناك «منذر» الأردني الذي يدخل ويخرج في عجلة واضحة، يُلقي السلام ويوقع في الدفتر ويمضي غير منتظر أن أرد عليه التحية. أكثر من مرة فكرت أسأله لماذا هذه العجلة، ودائمًا أنسى. في النهاية قلت لنفسي: لله في خلقه شئون ولم يستلفت انتباهي من بقية العمال غير «آرون بونكرد» التايلاندي ذي العينين اللوزيتين والشارب المغولي. يربكني في حضوره وانصرافه. يوقِّع بالإنجليزية، وينظر إليّ طويلًا، ويبتسم ابتسامة واسعة، ويمضي على مهل. يفعل ذلك كلما جاء إلى المكتب، وأحيانًا يسألني عن حالي، فأقول: بخير. فلا يقول شيئًا آخر ويمضي. بدا لي مثل شخص يعرفني منذ زمن بعيد، ويريد أن يذكرني بنفسه.

ورأيت عابدا يقف فجأة بباب غرفته. نظر إليّ وقال:

- يوم جميل أليس كذلك؟

ابتسمت. قلت:

- كنت أقول لنفسي ذلك منذ لحظات.

عم عبدالله لديه اجتماع في الإمارة اليوم. أنا لن أترك المكتب. تستطيع الذهاب إلى أرشد لتعلم القيادة. يجب أن تتعلم القيادة حتى لا تحتاج لأحد لتوصيلك للبيت.

في اللحظة نفسها لمحت نبيل يقترب من ناحية البوفيه يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة. نبيل يفعل ذلك مرتين في الصباح. بعدها لا يقدم لنا شيئًا إلا إذا طلبنا. وفجأة صاح:

- يا فتاح يا عليم. جُمعة وصل.

كان يحدِّث عابد. ونظرت إلى البوابة حيث أشار، فوجدت شابًّا مصريًّا ضخم البنيان يتقدم في الباحة مبتسمًا.

- صباح الخير على المصريين.

قال وهو يقترب منا. أخذه عابد من يده ودخل غرفتي فدخلت معهم.

صافحني الشاب بقوة، ووقف نبيل يحمل القهوة وينظر إلى الشاب في دهشة، ثم خاطبني:

- استعد يا عم ستدفع خمسين ريالًا من أول راتب.

كنا تسلمنا رواتبنا أمس. ما كدت أشرع في الكلام حتى قال الضيف:

-ليس لي والله. للميت..

ولابد أن الارتباك الشديد بان على وجهي وأنا أجلس. ورأيت عابدًا يتجه إلى الخزانة يفتحها ويخرج منها خمسين ريالًا، وظل جمعة واقفًا، بينما وضع نبيل القهوة، وقال لعابد:

- سأضع فنجانك في غرفتك.

واستدار يمشي فقال جمعة ضاحكًا:

- ألن تدفع يا نبيل؟

ضحك نبيل وقال:

- الميت القادم.

وخرج، وجمعة يضحك، وعابد يبتسم وهو يقدم له الخمسين ريالًا، وأخرجت أنا من جيبي مثلها قدمتها له، وقال عابد:

- جمعة يعمل في شركة البازعي أكبر مقاول في البلد، أكبر مقاول في المملكة تقريبًا، عنده سفن في البحر، وأسطول سيارات يحارب به إسرائيل لو أراد، لا يمر يوم من دون أن يموت عنده واحد من العمال، البازعي ومديروه يرفضون دائمًا دفع مستحقات الميت، يرفضون دفع ثمن شحن الجثة، يرفضون حتى ثمن الصندوق الخشبي. ادفنوه في المملكة. أرض طاهرة. دائمًا يقول. أصبح معروفًا أن لكل جنسية مندوبًا لجمع التبرعات للموتى عند البازعي.

ما كدت أستوعب الأمر حتى دخل نبيل المكتب يقول لجمعة:

- لو أرسلت أحدًا غيرك مرة يا عم جمعة قد لا يموت أحد بعد ذلك.

احمّر وجه جمعة، لكنه لم يكف عن الابتسام حتى بدا لي فجأة شخصًا شديد الحماقة.

***

شربت قهوتي وحدي. انصرف جمعة، وعاد عابد إلى غرفته، وانشغل نبيل في تنظيف السيارة الكاديلاك الواقفة في الباحة، سيارة بيضاء جميلة تقف مثل إوزة ضخمة تسبح في بحر من النور. لدى عم عبدالله أكثر من سيارة، ويركب في اليوم الواحد أكثر من واحدة، وكل منها مجهزة بتليفون لاسلكي.. لم أستطع أن أطرد وجه جمعة من الغرفة. قال عنه نبيل بعد انصرافه: إنه يعرفه ويتشاءم من مجيئه، وإنه في الأصل يعيش في القاهرة بمقابر الإمام وإن أباه «تُربي»، وضحك وقال: «الدم يحن» لكن لم أضحك كنت مأخوذًا بما يقول.

نهضت أذهب إلى «أرشد». لا يجب أن أفسد بهاء هذا اليوم. قطعت الباحة الباهرة بضوء النهار، وترك نبيل عمله في السيارة الكاديلاك، ولحق بي بعد البوابة.

- إلى أين؟

- إلى «أرشد» أتعلم القيادة.

- إذن خذني معك.

ومشينا، لا بد أن نبيل يعرف بانشغال عم عبدالله بالإمارة اليوم فهو يخشاه حتى الموت.

- أتمنى يا أخي أن أتعلم القيادة مثلك.

قال نبيل ونحن نتقدم صامتين. لم أرد. تطلعت إلى الجراج القريب المجاور للكامب الذي يسكنه الآسيويون. هذا مكان لم أحضر إليه من قبل. الأرض بين مكاتب الشركة وبينه ليست ممهدة، لكنها ليست صعبة. أرض من الحجر الجيري عليها طبقة رقيقة من الرمال. واستمر نبيل يتكلم:

- المشكلة يا أخي أني لا أجد الوقت بالنهار، لأن عم عبدالله يمكن أن يعود في أي وقت ويحتاج إلى القهوة.

- لماذا لا تتعلم في المساء؟

- أرشد يخاف استخدام السيارات بعد العمل. وعابد لا يسمح لي بالتعلم على سيارته.

أربكني بحق. فكرت لماذا إذن يأتي وقد لا يجد فرصة أخرى؟! قال كأنه يقرأ أفكاري:

- أحببت اليوم أن أراك وأنت تتعلم. سوف أتعلم مما تفعله أمامي. «شفهي» يعني.

ابتسمت. كدت أضحك. قال:

- أي والله.

اندفعت أضحك، وأحسست أن الفضاء يجاوبني في ضحكاتي رغم أنه لا جبال حولنا. وقال فجأة:

- لماذا لا تصدقني؟ لماذا تسخر مني؟

وكأنما الفضاء الواسع ازداد اتساعًا فجأة. أحسست أنه لا يوجد في الدنيا كلهاغيرنا. أنا ونبيل فقط في هذا العالم. وأحسست، ويا لغرابة هذا الإحساس الذي لن أنساه أبدًا، برغبة في أن أقتله. لو أن سكينًا كانت في يدي لطعنته، ووقفت أراقب الدم يمشي فوق الأرض لامعًا تحت الضوء.

- هل تصدق أني أحببتك جدًّا يا أستاذ إسماعيل؟

قال، فأدهشني. وأدهشني أنه لا يرفع الكلفة بيننا يومًا اليوم، لا يحدثني باسمي مباشرة كما تعود. واستمر يتحدث:

- أعتقد أنك طيب يا أستاذ إسماعيل. عابد هذا ثعبان. كوبرا. ينام معي في غرفة واحدة وأعرفه. تصور أني أحيانًا أقوم من النوم فزعًا خوفًا من أن يقتلني. لماذا يحدث ذلك يا أستاذ إسماعيل هل سأجن هنا؟

وتوقفت عن المشي. مزيج طاغ من المشاعر أوقفني. لا أعرف هل أردت أن أهون عليه أمْ ألعنه أم آمره بالعودة. قلت وأنا أمسك بذراعه:

- لا تصدّ نفسي عن الناس يا نبيل.

ويا لنظرة عينيه وهو يكاد يبكي فجأة. وقال:

- أنا لم أقصد ذلك. أردت أن أذكرك أن لا تتمادى في صداقة أحد. أنت هنا مثل كل الناس لجمع المال فقط.

تركت ذراعه، ومشيت صامتًا، لاحظت أننا نبتعد بعضنا عن بعض قليلًا ثم نعود ونقترب. لم يطل مشينا فالمسافة قصيرة. وقبل باب الجراج بقليل سألته:

- هل جئت لتعلم القيادة حقًّا؟ أستطيع لو أحببت أن أقنع أرشد يعلمك في المساء.

قال:

- لو حدث أني سرقت الخزانة هل يقتلونني؟

***

سألت أرشد:

- وحدك تعمل في هذه الورشة؟

أجاب:

- معي «وهّاج الدين». خرج يجرب إحدى السيارات. الورشة صغيرة كما ترى.

كنا قد انتهينا من الدرس الأول، الذي لم يزد عن التعرف على أجهزة تابلوه السيارة، ونقل الحركات والسيارة في حالة وقوف.

لقد تركني نبيل بمجرد بلوغنا باب الجراج. قال إن عم عبدالله ماكر يمكن أن يعود في أي وقت، ولم ينتظر إجابة مني عن سؤاله المفاجئ الذي أربكني.

انشغل أرشد عني قليلًا وراح يملأ كوبين بالشاي من «تورمس» أخرجه من دولاب خشبي صغير. رحت أتأمل الورشة والجراج.

سيارات قليلة معطلة، وكثير من العدد القديمة تملأ الأركان، والأرض سوداء متسخة. لأرشد وجه شديد الحضور، عليه دائمًا مسحة استنكار واستياء. تزداد هذه المسحة حين يأتي إلى المكتب ويدخل في نقاش مع عابد حول مشتريات الكامب من الأغذية. أرشد مسئول أيضًا عن إعاشة الآسيويين.

لأرشد عينان عسليتان، حادتا الذكاء، وبياض بشرته يميزه عن كثير من الباكستانيين، رغم أن له الشارب نفسه المحفوف بعناية واتساق مع الشفة العليا، وله الشعر نفسه الأسود الناعم. لكن ملامح أرشد كلها تضيع وهو يناقش عابدًا فيما هو مطلوب من غذاء. يبدو أرشد في البداية لطيفًا، وهو يتكلم بإنجليزية يختار كلماتها بعناية، لتكون واضحة وسهلة لعابد الذي لا يعرف الكثير منها، ودائمًا يطعّم حديثه بكلمات عربية، لكن سرعان ما تختلط ملامح وجهه، وترتفع فيه حمرة الدهشة والاستنكار. أرشد يبدو جادًّا دائمًا وعابد يحدثه بغير اهتمام، بالضبط كما يلقي الواحد بورقة في سلة مهملات. يقول عابد: «ماتش كمون!» ويهز كتفه، فيقول أرشد: «ييس ماتش كمون مستر عابد، كمون إذ نيسيسري». ويطول الجدال دائمًا حول كمية التوابل التي يطلبها أرشد. التوابل من أرخص الأشياء بالمملكة، إلا أن عابدًا يحلو له أن يتوقف عندها ويتعنت. يقول أرشد نافد الصبر: «مستر عابد بليز ريميمبر هاو ميني تايم آي طولد يو ذات كمون آند شطة آند بيبر آند أول بهارات إذ

نيسيسري فور أوَرْ فود» وأكاد أضحك من هذا المزيج الغريب من العربية والإنجليزية المعجون بلكنة أوردية.

الحقيقة أني دهشت من موقف عابد الذي لا بد أنه يدرك قيمة التوابل في طعام الآسيويين. قلت مرة لأرشد وهما محتدان في النقاش، إن عابدًا يداعبه فقط، ففوجئت بعابد يقول لي جادًّا: «أنا لا أداعبه. إنهم يستهلكون كمية كبيرة جدًّا ويكلفون الشركة الكثير» بعدها لم أتدخل في النقاش.

- اشرب الشاي مستر إسماعيل.

قال أرشد، فأخذت الكوب في يدي، ورشفت رشفة، وقلت:

- أرشد. أنت تعرف أن الباكستانيين غير التايلانديين غير السيلانيين. أنا في الصباح أو بعد الظهر، في حديثهم معي، لا أكاد أميز بين كلماتهم. يصبح صوتهم واحدًا تقريبًا حين يقولون صباح الخير أو جود مورننج أو السلام عليكم، أنت الآن تحدثني بالإنجليزية، لكن صوتك لا يختلف عن صوت أحد.. إنني أسمعك فأتذكر الجميع. شيء غريب. أليس كذلك؟

ابتسم أرشد، وراح ينظر إليّ بألق شديد في عينيه. ابتهج أرشد فجأة لا أدري لماذا. أنا قلت ذلك كله دون ترتيب، ولا أعرف بالضبط متى فكرت فيه. قال:

- أنت أيضًا سيتشابه صوتك معنا مستر إسماعيل.

سكتنا، ورحنا نشرب الشاي، ووقعت عيناي على كتاب فوق مقعد قريب، فقام وأخذ الكتاب ووضعه في الدولاب الخشبي وعاد يقول:

- أنا آسف مستر إسماعيل. لقد أحضرت هذا الكتاب معي عفوًا. أنا لا أجد وقتًا هنا للقراءة.

تأملت وجهه قليلًا، فأغمض عينيه. لماذا يخشاني إلى هذا الحد؟ رشفت ما بقي من الشاي دفعة واحدة، وقمت أصافحه عَلَى أن نلتقي في الغد.

***

يا إلهي. ما هذه السيارة التي تدخل الباحة بهذه السرعة وتثير كل هذا التراب؟ قلت لنفسي، وما كدت أدخل الغرفة عائدًا من عند أرشد. وسمعت

صوت باب السيارة وهو يُفتح، ثم يُغلق بقوة، ورأيت عابدًا يقفز داخلًا مكتبي:

- ملف السيلاني بسرعة.

- أي سيلاني؟

- فيليب. هل لدينا غيره؟

كان لدينا أكثر من سيلاني. لم أشأ أن أرد. وقفت أتعجب منه. لا يعطيني فرصة إحضار الملف، بل يهجم على الدولاب يفتحه، ويختطف ملف فيليب، ويعود يهرول خارجًا. أسقط وهو يبحث عن الملف عددًا آخر من الملفات فوق الأرض، رحت أعيد ترتيبها في غيظ، ثم رحت أدور في الغرفة. وددت لو أصرخ في أحد وبأي شيء. ورأيت نبيلًا يدخل حاملًا صينية فوقها فنجان القهوة.

- تشرب قهوة؟ لقد ذهبت بها إليه فرفض.

كيف أعد القهوة بهذه السرعة وذهب بها أيضًا. لابد أن عم عبدالله هو الذي دخل الباحة مثيرًا لكل هذا التراب. كدت أنفجر بالضحك.

- رفض القهوة وصرخ في وجهي أن أنصرف. ستطردني أنت أيضًا؟

- ضع القهوة على مكتبي واجلس. هل عرفت شيئًا.. ؟

- كارثة. فيليب سرق راديو من السوق وقُبض عليه..!

- كيف عرفت؟!

- سمعت عم عبدالله يقول ذلك لعابد وأنا أدخل.

وراح يهتز بالضحك، وبمحاولته أن لا يصدر صوتًا، وسمعنا صوت عم عبدالله وهو خارج من المكتب يقول لعابد:

- اجلس هنا لا تتحرك. وقل لهذا - يقصدني بالتأكيد- أن لا يترك مكانه.

وسمعت صوت باب السيارة يُفتح ويُغلق بعنف مرة ثانية، وسمعتها تدور، ورأيت عم عبدالله يعود بها إلى الخلف في سرعة. لم ينس أن ينظر إليّ

بحدة، ثم اندفع إلى الأمام بقوة، فملأ الفضاء مرة أخرى بغبار أكثر مما هو فوق الأرض.

***

نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة. نظرت إلى الباحة فوجدت اليمني العجوز يدير السواك بيده في فمه. دخل مع غبار السيارة. كانت هناك فرصة أن أراه يدخل اليوم لولا غبار عم عبدالله. ابتسم وبرقت عيناه وهزَّ لي كتفه حين رآني أنظر إليه.

ابتسمت وجلست إلى مكتبي أتعجب من خلق الله. ما الذي حقًّا يجعل فيليب يسرق؟ رجل مثله تجاوز الخمسين مهيب الوجه وملاحظ كبير لأعمال الكهرباء ويريد قضاء أكبر وقت بالمملكة ويستعد ليشهر إسلامه. ماذا سيقول لزوجته «روزالينا» وأبنائه العشرة. خمسة هنا وخمسة تركهم في سيلان. العاشر من أبنائه أنجبه هنا وأسماه «فيرلاندو» ويقول إنه ليس أسود مثله ولكنه بُنِّي مثل «روزالينا». قطعة شيكولاتة صغيرة. وعمره عامان الآن، ويصحو في الصباح مع فيليب يتعلق بساقه لا يريده أن يخرج بدونه، فيحمله فيليب من فوق الأرض، ويضعه فوق الدولاب، فيضحك «فيرلاندو» ويخرج فيليب ويعود آخر النهار فيجد «فيرلاندو» كما هو فوق الدولاب لكن يبكي. لا تفكر أبدًا «روزالينا» صغيرة الجسم أن تصعد على كرسي وتنزله. «فيرلاندو» معجزة إلهية؛ فمن كان يصدق أن روزالينا تُنجب بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين، لكنها الأرض الطاهرة مستر إسماعيل. هكذا يقول لي:

«إنني وزوجتي مثل النبي زكريا وزوجته في القرآن مستر إسماعيل» فيليب يفسد كل شيء ويسرق راديو. لن يشهر إسلامه ولن يبقى بالمملكة.

أحسست بالضيق فقمت عازمًا على ترك الغرفة والجلوس في البوفيه قليلًا مع نبيل.. لكني رأيته يدخل ويتساءل:

- وين رايح؟

وقفت مندهشًا من عودته بعد انقطاعه كل هذا الوقت. كان يتجه إلى المكتب الآخر القريب من الخزانة ويجلس خلفه والقرد فوق كتفه. يسألني كأنه كان معي منذ دقائق، مع أنه اختفى لأكثر من عشرين يومًا الآن، ولم يفكر حتى بإلقاء السلام.

ودق التليفون.

- آلو.

- أنزل السماعة.

صوت عم عبدالله. أعرفه ولا أخطئه. هو أيضًا يعرف صوتي. لابد. وإلا ما قال ذلك. يريد عابد. ما ذنبي إذا كان التليفونان على خط واحد؟ جلست من جديد إلى مكتبي ممتلئًا بالغيظ.

- يا هلا يا إسماعيل.

ذكرني منصور بوجوده. قررت إذا أساء إليّ أن أردّ الإساءة بأعظم منها.

- تسمح لي بالجلوس؟

- لقد جلست بالفعل.

وسكتنا قليلًا. قال:

- لقد سافرت إلى عمان. ذهبته بالسيارة. عمان جميلة جدًّا.. لم أرد. وظهر نبيل بالباب حاملًا طبقًا به قليلٌ من الفول السوداني والفستق.

قال منصور:

- ضعه على الأرض.

وضع نبيل الطبق، وتألقت عينا القرد، وهز منصور كتفه هزة بسيطة، فقفز القرد إلى المكتب ثم إلى الأرض وراح يلتقط الفول السوداني والفستق في سرعة مضحكة. راح نبيل يضحك ويقول:

- سيرك.. سيرك المعلم منصور.

احمرّ وجه منصور، ورأيته يحاول إخفاء ابتسامة صغيرة، وفجأة وجدت نفسي أضحك بشراسة. قال نبيل بعد أن توقفت عن الضحك:

- منصور زارنا بالليل. أحضر لنا فستقًا من عمان.

لم أهتم. قال منصور لنبيل:

- فستق عمان طازج ليس كالذي يباع هنا. لكن لا تنس أنه ليس كله لك. لا تنس الكيس الخاص بالقرد (ثم خاطبني): هل يضايقك أن يأكل القرد هنا؟

- بالتأكيد.

أجبت بحسم:

- لو أحببت أن أخرج لخرجت.

لم أرد. وانسحب نبيل الذي لابد أنه أدرك نُذُر الصدام.

وتساءل منصور:

- مصري أنت يا أخ إسماعيل؟

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أقصد هل أنت من القاهرة؟ يقولون عن القاهرة مصر. أليس كذلك؟

- أنا من الإسكندرية.

- جميلة الإسكندرية بها شاطئ وبحر.

- بها أجمل شاطئ في الدنيا.

- رأيت القاهرة ولم أرها. هل تعرف السباحة يا أخ إسماعيل؟

- أنا سباح ماهر فزت في بطولات كثيرة.

كنت أكذب. لم يحدث أني سبحت عشرة أمتار.

- تسبح وسط النساء في البحر؟

- وسط نساء يرتدين المايوهات البكيني. والآن ينزلن بمايوهات قطعة واحدة فقط صدورهن تسبح أمامك. ما رأيك؟

رأيته ينظر إليّ ثم يطرق، وينظر إلى المكتب، ويضربه بأنامله ضربات سريعة منتظمة. لاحظت اتساخ أظافره رغم ما يبدو من نظافة مظهره العام، ورأيت وجهه يكفهر فجأة ويتلبد بالغيوم، ثم وقف ودار حول المكتب. وكأنما أحس به القرد. توقف عن التهام الحبات القليلة الباقية، ومد له منصور ذراعه فصعد عليها. ثم استوى فوق كتفه، واندفع منصور خارجًا بلا كلمة واحدة.

***

كان «منذر» أول الواصلين للتوقيع في دفتر الانصراف. ولأن عم عبدالله استدعى عابدًا ليلحق به في الإمارة، طلبت من منذر أن يحملني في سيارته. ولأني أعرف أنه في عجلة من أمره دائمًا، قلت:

- لن يستغرق توقيع العمال وقتًا طويلًا. لا تقلق.

قال:

- خذ راحتك يا رجل.

وجلس على المقعد الجلدي الواسع ونام. أجل. مد ساقيه، وأرخى قبعته على وجهه، ونام، وسمعت شخيره في لحظات. إلى هذا الحد يتعب منذر في العمل.

سألت نفسي و«آرون بونكرد» يقف أمامي مبتسمًا ابتسامته المحيرة. لاحظت، لأول مرة، أن أسنانه موضوعة في فمه كيفما اتفق.

قال وهو يصوب نحوي عينيه المغوليتين:

- أنا محتاج إلى قرض ثلاثة أشهر مستر إسماعيل.

كدت أضحك من لكنته وهو يتحدث بالإنجليزية يقول «تري» بدلًا من «ثري» ويقول «مَنْ» بالميم المفخمة والنون فقط ويعني شهرًا.

قلت:

- هذا عمل عابد.

قال في يأس:

- أوه مستر إسماعيل. عابد هذا صعب جدًّا.

وربت على ذراعي، وقال إنه مضطر إلى هذا القرض ليرسله لزوجته لتشتري بيتًا في بانكوك. بيت صغير. ثم قال:

- ما فائدة عملي في المملكة إذا لم أشتر بيتًا في العاصمة مستر إسماعيل؟

تأملت قِصَرَه وامتلاء جسمه وصُفْرة بشرته وصلعة رأسه وعظام وجهه الناتئة، واستمر يتحدث:

- ألا تود شراء بيت في القاهرة؟

- أنا أعيش في الإسكندرية آرون.

- أنا أيضًا لا أعيش في بانكوك.

- الإسكندرية أجمل من القاهرة.

- حقًّا مستر إسماعيل. إنها مدينة جميلة جدًّا.

حسبت أنه يجاريني ويتملقني، لكنه قال:

- لقد رأيتها مستر إسماعيل في السينما. في فيلم أمريكي جميل كان اسمه «واحد بيرة مثلج في الإسكندرية».

ربت على كتفه وقلت:

- سأساعدك آرون. سأتحدث مع عابد في الأمر.

قال ببؤس:

- أشكرك مستر إسماعيل. أنت شخص طيب جدًّا.

ثم شبّ على قدميه ليهمس في أذني:

- دو يو لايك فاين؟

للوهلة الأولى لم أفهم. دهشت وأنا أستوعب السؤال. ارتبكت.

عاد يهمس:

- لا تخف مستر إسماعيل. أنا أجهزها بنفسي. إن خمرة آرون شيء رائع..

كانت عيناه تتسعان بألق غريب كأنما يشعرني بالبهجة كلها.

قلت:

- لا أحبها.

وكاد صوتي لا يخرج. أحسست بالخوف حقيقة، حتى أنه انصرف من أمامي من دون أن أشعر.

***

في الطريق ضَرَبَتنا ريح العجاج بدوّامات صفراء ثقيلة. أضاء منذر الكشافات، لكنها لم تفلح في إشعال هذا الظلام الأصفر، يلفنا من كل ناحية، يكاد يخنقنا، صرخ منذر:

- لا حيلة لي في تراب هذا البلد، أنا منذر الذي لا يقف شيء أمامه. كهرباء يعمل، ميكانيكا يعمل، نجارة يعمل، حدادة يعمل، مراقبة يراقب، موت يموت، أنا منذر أعجز عن مقاومة هذا التراب الأصفر؟!

- نقف بالسيارة أفضل.

- نختنق يا رجل، قد يطول الوقت. الكل يقف الآن بعيدًا عن نهر الطريق. الكل يخاف، الطريق مفتوح من الوسط. ننطلق بسرعتنا نفسها.

وصرت أسمع صوت ارتطام ذرات الرمال بالعربة، وأحس كأنما شخص يحملني في صندوق مغلق ويطير بي، المشكلة أني أعرف أني في سيارة، ماذا أفعل؟ هل أتوسل إليه أن يقف. صرخت:

- منذر. قف بالسيارة.

- تصرخ فيّ يا رجل، تصرخ في منذر. تريد أن نموت. ألا تعرف أنها بلدة ملعونة؟

ولم يهدّئ من سرعة السيارة، صار يضحك بهيستيرية، يهذي:

- منذر أفضل من شاذام. منذر يتحدى السوبر مان. هاهاها. لا تخف يا رجل لا تخف يا زلمة، يا أستاذ يا مصري، هل تحب السادات؟ أنا أكرهه. أكرهه جدًّا. هاهاها.

وصوت الرمال صار كصوت مطر من حصى. ماذا أفعل مع هذا المجنون؟

- لا تخف. سأقف. أهدئ من السرعة كما ترى. لا تخف أخي إسماعيل.

وأحسست بالسرعة تقلّ فعلًا، وبالسيارة تأخذ جانب الطريق لتقف، لكن العاصفة راحت تنقشع، وظهرت بيوت البلدة قريبة.

- انظر، لقد قطعنا مسافة طويلة ولم يحدث شيء. نظرية منذر صائبة، الكل يقف على الجانبين. منذر لا يقف ويجري في المنتصف.

- لا أظن أني سأركب معك مرة أخرى يا منذر.

- ستركب معي كثيرًا يا أستاذ.

وراح يقود السيارة على مهل رغم انكشاف الفضاء.

- سأترك السيارات التي تخلّفت تسبقنا. لن أضايق أحدًا.. قل ليبا أستاذ، هل تسكن وحدك؟

رحت أتأمل وجهه المستدير المليء بآثار بثور قديمة. بشرته بيضاء وعيناه خضراوان.

- أسكن مع أصدقاء.

- في بيت عربي.

- أجل.

- هذا أفضل ما فعلت. كنت أسكن في بيت عربي. منذ تزوجت سكنت في شقة في عمارة. أسوأ شيء هنا أن يكون لك جيران.

لم أفهم ماذا يقصد، فراح يحكي لي حكاية صاحب البيت الذي يسكن في شقة تقابل شقته، صاحب البيت رجل تجاوز السبعين، له زوجة لم تتجاوز العشرين، الزوجة السادسة بعد خمس زوجات. منذر في خروجه ودخوله يرى الزوجة الشابة أمام باب شقتها كاشفة وجهها. إنها جميلة جدًّا شقراء. من يرها يقل إنها تُركية منسية في المملكة منذ عشرات السنين. إنه يخاف هذه المرأة الصغيرة. وسألتُهُ:

- هل أنت أردني يا منذر؟

لم أرتب للسؤال، ولم أدر ماذا قصدت منه. أنا أعرف أنه أردني. تساءل:

- هل يهمك هذا يا أستاذ؟

- أبدًا. أريد فقط أن أسألك عن الأردن، يقول منصور إنها جميلة.

ضحك وقال:

- منصور! هذا مخبّل يا أستاذ، هذا له قصة عجيبة سأحكيها لك فيما بعد، أظن أن بيتك قريب الآن.

كنت قبل أن أركب وصفت له البيت. وكنا وصلنا فعلًا. ما كدت أفتح باب السيارة لأنزل حتى هتف:

- أستاذ. أنا لست أردنيًّا. أنا فلسطيني.

وكان ينظر إليَّ بتحد غريب.

***

(1) البلد:4

5

- لماذا لا تحب النزول معي إلى السوق؟

سألني سعيد فجأة وهو يغلق الطاولة. كنا نجلس في الردهة وكان الوقت يدخل في المساء. واستطرد:

- أنت تلعب شاردًا اليوم. لقد خسرت كثيرًا.

لم أشأ أن أحدثه بشيء. ماذا يفيد القول بأني أفكر في الصمت الذي يحاصرني في العمل منذ أيام؟ لا أعرف أي خطأ ارتكبته مع «أرشد» الذي إذا جاء ليطلب من عابد شيئًا وتصادف وجود عابد في حجرتي، تجاهلني ولم ينظر حتى إليّ. يُنهي حديثه مع عابد بسرعة، وينصرف مطيعًا لكل ما يقول. لا يحتج ولا يغضب. وحين أذهب إليه لأتابع التمرين على القيادة يتعامل معي بجدية شديدة.

يبدو دائمًا يغلق كل طريق لحديث آخر. منذر لا يزال يدخل ويخرج بسرعة، لكنه صار ينظر إليّ في خروجه ودخوله بتحد غير مفهوم، يبدو لي متحفزًا للرد على أي شيء أقوله أو أفعله. حتى فيليب الذي توسط عم عبد الله له لدى السلطات، ومنع ترحيله أو عقابه، لم يعد يحدثني فيما يصعب عليه من القرآن. يبدو غير مستعد للحوار في شيء. يعرف أني إذا تكلمت سأسأله عن الذي دفعه للسرقة، وهو لا يريد أن يخوض في ذلك. لكن هل يدعو الأمر حقًّا لقطع كل كلام؟!

لقد بدا لي في الأيام الأخيرة أني شخص لا يأمن الناس جانبه. هكذا بلا سبب اقترفته. وقليلًا ما تذكرت عهدي لنفسي أن لا أكون مشاركًا في شيء، وأن أظل مرآة لامعة تنزلق من فوقها حبات المطر، وشملني الضيق الذي لا أعرف إلى أي وجهة أدفع به، حتى منصور الذي يبدو ضعيفًا أستطيع أن أزيح عليه بعضًا من غيظي، عاد واختفى. لم يعد أمامي في العمل غير عابد الذي لا يمضي من الوقت إلا القليل في المكتب، ودائمًا في أعمال عم عبدالله الخاصة، ونبيل الذي قال لي منذ أيام: «لا تصدق ما حدثتك فيه بشأن الخازنة»، ثم انقطع عن كل كلام معي. يقدم القهوة في صمت ويمضي. أنا واليمني العجوز فقط نتبادل الابتسام من بعيد.

قلت لسعيد:

- إنني فعلًا بحاجة للنزول معك إلى السوق.

وقمنا نرتدي ثياب الخروج، كلٌّ في غرفته. اليوم جمعة. يوم يكون معظم العمل فيه عليَّ، فسعيد يصحو متأخرًا ويخرج إلى الجامع، ويظل فيه حتى الصلاة، ووجيه عادة ما يمضي الليلة في المستشفى، ويأتي إلى البيت صباح الجمعة لينام. يكون عليّ أنا الذي لا يصلي، ولا يعمل ليلًا، أن يعد طعام الغداء. طعامنا يوم الجمعة يكون مصريًّا. سمك مقلي وسمك في الصلصة وباذنجان مقلي وبطاطس مقلية وفول وفلفل أخضر مقلي أيضًا وأرز بالخلطة وطبق كبير من السلاطة وعصير ليمون أو برتقال. لقد تعلمت عمل ذلك كله من سعيد.

يقوم وجيه بعد الصلاة ليتغدى معنا، ويخرج إلى المستشفى ولا يعود قبل العاشرة. نجلس أنا وسعيد نتفرج على التليفزيون، أو نلعب الطاولة. نحرص دائمًا أن نرى حديث الشيخ علي طنطاوي. شيخ تجاوز الخمسين له وجه أليف، مشرق البشرة، تحوطه لحية قصيرة بيضاء، يتحدث كأنه يجلس معك ويخاطبك أنت وحدك بألفة قديمة. يتحدث في أعمق المسائل الفقهية ببساطة نادرة تصل إلى كل عقل، لذلك فيما يبدو تقاسمه الناس. قالوا إنه في الأصل مصري، وقالوا إنه سوري، وقالوا إنه مغربي، وأردني وفلسطيني.

على أني لم أكن بحاجة إلى النزول إلى السوق بسبب ما يحاصرني في العمل من صمت مفاجئ. هنا أيضًا نوع آخر من الصمت في البيت الذي أحببته وأحببت العودة إليه والبقاء فيه أطول وقت. بان لي أن حياتنا تمشي على إيقاع ثابت. إنه لا شيء يربط بيننا غير أننا غرباء. نضحك كثيرًا لكن على حكايات نحكيها عن غيرنا. لم يحدث أن خاض واحد منا في أمر خاص أمام زميليه.

أنا أيضًا لا أفعل ليس عن قصد. ولا يبدو أنهما أيضًا يقصدان ذلك. لابد أن كلًّا منّا لا يزال مشدودًا إلى الطرف الآخر البعيد.. الوطن والأهل، حقيقة أننا سنعود يومًا، لابد أن تفعل فعلها وتسد بيننا وبين ما حولنا، ولأن كلًّا منا مطمئن إلى عودة ظافرة، لا يبدو أن للقلق أو للخوف منفذًا يتسرب منه إلينا. أي حياة هذه التي تبدو نظيمة مثل درس في قواعد اللغة. كل شيء حولي بارد إذن وخروجي اليوم إلى السوق لا يزيد على ابتسامة باهتة.

ركبنا سيارة سعيد الداتسون. جُسنا قليلًا في أزقة جانبية حتى دخلنا إلى الشارع العام. هل يصدق أحد أن هذه ثاني مرة أرى الشارع العام رغم مرور

أكثر من شهر على وصولي لا يزال الشارع مزدحمًا كأني أراه لأول مرة. كأني تركته منذ قليل وعدت إليه. لكننا ندخل في المساء. أضيئت المصابيح على الجانبين ورأيت القمر عاليًا في السماء هلالًا صغيرًا.

- المشي أفضل.

قال سعيد بعد أن جنح بسيارته إلى زقاق جانبي، كنا قطعنا نصف الشارع العام تقريبًا. توقف وتركْنا السيارة وعدنا نمشي.

رصيف الشارع العام ضيق بالمارة والبضائع. صمت بشري غريب ورطوبة عالية مفاجئة في الجو منذ أمس. يبدو أن الصيف يلفظ آخر أنفاسه. نحن في أكتوبر الآن، في منتصفه، وفي النصف الثاني من ذي القعدة، أسابيع قليلة ويهل علينا العيد الكبير والحج. لقد بدأ التليفزيون يبث برنامجًا خاصًّا عن الحج وشعائره. لافتات «النوفوتيه» هي الأكثر شيوعًا في الشارع. فكرت أن أشتري شيئًا لأمي وإخوتي وتراجعت. لا أعرف أحدًا مسافرًا إلى الإسكندرية لأرسلها معه، ولا أعرف أحدًا يسافر في الوقت القريب.

الآن أرى السوق أفضل مما رأيته أول مرة. أمشي على مهل وسعيد لا يتعجلني في شيء، لكني لا أشعر بأي غرابة. هل كان مشهد السوق غريبًا أول مرة حقًّا، أم مشهد عربة الشرطة والفتاة المسكينة فوقها؟ الآن لا أرى ما حولي يختلف كثيرًا عن سوق المنشية بالإسكندرية، فقط لا أحد ينادي على بضائعه، وأشكال الناس هي التي تختلف.

- تستطيع أن تحول نقودك إلى مصر عن طريق بنك الراجحي. إنه أشهر بنك هنا.

قال سعيد حين رآني أتطلع إلى لافتة البنك. قلت:

- أنا فعلًا في حاجة لإرسال مائة جنيه لأمي.

- وأنا أريد أن أسأل عن سعر الجنيه الذهب.

وجذبني من يدي ندخل، وأضاف:

- وجيه سيسألني بالليل عن ذلك. إنه يحب أن يشتري بفلوسه ذهبًا، يقول إن الذهب أفضل من الدولارات.

دخلنا من باب ضيق. زحام شديد ضاغط بالداخل. البنك صغير لا أعرف كيف اتسع لهذا العدد من الناس ولأنفاسهم وعرقهم. وقف سعيد أمام موظف باكستاني شاب سأله عن سعر الجنيه الذهب. مائة وأربعة وتسعون ريالًا. سمعت الموظف يقول ووقفت أنا أمام موظف آخر يفصلنا شباك من الحديد، وطلبت إليه أن يحرر لي شيكا بما يساوي مائة جنيه مصري. أخذ مني خمسمائة ريال، وحرر لي الشيك الذي سأرسله لأمي بالبريد. أحسست وأنا أقف أنتظر انتهاءه من تحرير الشيك أن شعاعًا من الضوء يخترق خدي. شيء يشدني أن التفت إلى ركن بعيد في الزحام، أعرف أنه حين ينظر إليك أحد تشعر بنظراته وإن لم تره. يزداد شعورك حدة إذا كانت النظرة أكثر دقة وإمعانًا. لم أفطن إلى ذلك إلا بعد أن التفت ورأيته بعيدًا في الزحام يصوب إليَّ عينيه كأنهما بقعتا ضوء في غرفة شديدة الظلام. ارتبكت لا أعرف هل أتوجه إليه أم أتجاهله. جذبني سعيد وهو يقول:

- لماذا تقف جامدًا هكذا؟

رأيت وجه منصور يتشكل بالغضب، ورأيت عينيه تتسعان وتتألقان بشيء أشبه بالنذير، وأقبل نحونا كسهم حاد. توقعت أن يسيء إليّ. لا أعرف لماذا أتوقع منه الإساءة دائمًا، لكنه تجاوزنا بسرعة وخرج يشق له طريقًا بكتفيه.

- لماذا تقف، ألا تسمعني؟

هتف سعيد وهو يهزني. كان عرق غزير قد تفصد على عنقي ووجهي. أخذت الشيك الذي أعده الموظف الباكستاني، وتركت سعيدًا يشدني من ذراعي للخروج.

***

- ما لك؟

لم أرد. مشينا نقابل أعدادًا من الباكستانيين السمر، والأفغان البيض حمر اللحى. باللحى فقط تميز الأفغان، وربما أيضًا بنظرة الذهول في عيونهم. ملابسهم لا تختلف عن ملابس الباكستانيين.

القميص نفسه الطويل والسروال الفضفاض الذي قال عنه نبيل مرة وهو يضحك إنه صنع خصيصًا للطفو فوق مياه الفيضانات التي تتحدث عنها

نشرات الأخبار كل يوم!

قابلتنا أيضًا جماعات من الكوريين يمشون مسرعين. وكلما قابلتنا امرأتان معًا يقول سعيد: «مصريات» يشرح لي كيف يمشين اثنتين اثنتين. نادرًا ما تمشي امرأة وحدها. المرأة مع زوجها أو صديقتها. ورأيت أمام أحد المحلات عددًا من الأوروبيين، وربما الأمريكان، يشربون السفن آب، وبينهم فتاة ترتدي بنطلون جينز، شقراء، لا تغطي وجهها ولا شعرها، وتضحك بجرأة. لم أر غيرها في طول الشارع.

أمام محل بقالة ضخم وقفنا. أقبل علينا العامل تاركًا بقية زبائنه، لاحظت أنه في نهاية المحل من الداخل يجلس رجل فوق الأرض مستندًا إلى حشايا صغيرة جوار الحائط، وقد مَدّ ساقيه وراح يدخن النرجيلة، أعطى سعيد ورقة للعامل الذي صافحه مبتسمًا.

- سنعود بعد ساعة.

قال سعيد، فرد العامل وهو يزداد ابتسامًا:

- في أمان الله.

ومشينا. قال سعيد:

- الرجل الذي يدخن النرجيلة هو صاحب المحل. العامل يمني اسمه محمد، يحب المصريين جدًّا ويحبه المصريون. ذكي ولمّاح. كل اليمنيين أذكياء. سنعود بعد ساعة، يكون جَهز لنا كل شيء.

وتابعنا المشي، رأيت إضاءة الشارع تقل، والزحام يخف، والمحلات تتباعد، وتظهر بعض المباني القديمة والخرابات، حتى وصلنا إلى مكان مظلم تمامًا، ووقفنا نشم رائحة المخللات.

محل صغير به مصباح واهن، ورجل مسن محني الظهر، تقدم سعيد نحوه وتقدمت معه. طلب سعيد من الرجل أن يجهز لنا كيسًا بخمسة ريالات، بينما رحت أتطلع إلى البراميل المصفوفة حتى سقف المحل، وإلى البراميل الصغيرة المكشوفة التي في بعضها بصل أصفر وأبيض يسبح في مياه حمراء، وفي الأخرى خيار متراكم في تراخ، تطفو بذوره فوق الماء، وفي غيرها قطع اللفت الحمراء والبيضاء وقرون الفلفل الأخضر، لم يكن هناك غيرنا والظلام، والهلال البعيد لا يضيء شيئًا. وتخيلت البراميل مليئة

بالديناميت الذي سينفجر في الحال. رحت أنظر في الظلام إلى الجامع واضح المعالم أمامي. جامع كبير لكنه مغلق، ومنازل كثيرة بيضاء منخفضة خلفه.

- هذا جامع البلدة الرئيسي، أمامه تُقام الحدود. كل الحدود تقريبًا فيما عدا قصّ الرقبة يتم في مكة. يقولون إن هذا الجامع أقامه في الأصل الرسول نفسه حين غزا تبوك. أعتقد أنه صلى هنا فقط وأقيم الجامع فيما بعد.

قلت:

- هنا إذن الجَلد والرجْم.

- في الغالب لا يوجد رجم. لم أره حتى الآن. يتم ترحيل الزانية من الغرباء. الزانية من أهل البلدة لم يكتشفها أحد حتى الآن. الجلد لا يزيد على ضرب بالخيزرانة يسميه المصريون «تنفيض هدوم». شيء مضحك. لو جئت في رمضان الماضي ربما رأيت الجلد صباح أول أيام العيد. ربما ترى ذلك العام القادم. إن أكبر عدد من المجلودين يتم جلدهم هنا في عيد الفطر. المفطر يتم سجنه بقية شهر رمضان ثم يجلد يوم العيد. الجلد الحقيقي يتم في الإمارة. ينفذه الأمير بنفسه. ليس بالخيزرانة ولا بالسوط، بالعقال على اللحم. وجيه يحدثك عن المنقولين للمستشفى مُشَرَّحين من الإمارة.

اقشعرّ بدني وأنا أصلًا لا أحب الظلام. وأخذ سعيد الكيس البلاستيك الكبير الذي ملأه الرجل بالمخلل، وقَبْلَ أن نعود سألته عن البيوت خلف الجامع، قال:

- هذه منطقة أم درمان، كل سكانها سود. ربما سموها أم درمان لهذا السبب - وابتسم - وربما صار أهلها سودًا لأنهم يسكنون أم درمان. إنها منطقة مشهورة بالخمور وخلافه. معظم سكانها من المنشدين والمغنين والراقصين في الأفراح. الرجال والنساء. مثل عوالم شارع محمد علي في مصر، لكنهم لا يجلسون على المقاهي ولا أمام الأبواب، هل تعرف أنه رغم مرور أربع سنوات على وجودي هنا، لم يحدث أن دخَلْتُ هذه المنطقة؟ إنها خطرة جدًّا.

واستدار يعود في الشارع، فاستدرت معه تاركًا أم درمان خلفي والمسجد المغلق، وصوبت عيني إلى الأضواء البعيدة، لكن سعيدًا قال:

- كلما أتيت هنا ورأيت الجامع، تذكرته غزوة تبوك، وتذكرت حكاية غريبة يتداولها الناس. يقولون إن إحدى القبائل التي مَرّ بها النبي، رفضت أن تقدم له ماء يشرب، وحالت بين جيشه وبين بئرهم، فدعا النبي عليهم أن ينقرض أفراد هذه القبيلة، وتظل حتى يوم القيامة لا يزيد عددها على عشرين، عشرين امرأة ورجلًا وطفلًا فقط، كلما ولد مولود مات أحد أفراد القبيلة. إنها اللعنة التي يتحدث عنها الناس هنا. هل تظن أن ذلك صحيح؟

وقبل أن أجيب أضاف:

- لا تتكلم... إنها حكاية مرعبة لا أحب تذكرها.

ومشينا صامتين، لكني تذكرت منذرًا حين قال عن البلدة إنها ملعونة يوم حاصرنا «العج»، لابد أن منذرًا كان يقصد ذلك. أمر بشع بحق لا أظن أن الرسول يفعل ذلك بأحد. لا أظن أن أحدًا رأى أحدًا من هذه القبيلة. هي قصة مرعبة اخترعها مجنون.. إلا أني أحسست بخوف حقيقي لم ينقذني منه إلا سماعي صوت أذان العشاء عاليًا يصدر من جامع بعيد لا أراه. ورأيت المحلات تغلق أبوابها، والمارة يدخلون في الأزقة، ورجلين مسنين ذوا لحيتين بيضاوين طويلتين، يمشيان على الرصيف يحمل كل منهما في يده درّة يضرب بها من يقابله ضربة خفيفة ويقول بصوت عال: «صلّوا صلّوا».

- هؤلاء أعضاء جماعة الأمر بالمعروف، يغلقون السوق ويدفعون الناس للصلاة.

قال سعيد ذلك وهو يجذبني لندخل زقاقًا جانبيًّا مظلمًا نختبئ فيه قليلًا، فوجدنا عددًا من المصريين قد سبقونا إلى الزقاق، ووقفوا ينظرون إلينا ضاحكين.

انتهت الصلاة، وخرجنا وخرج الناس من أوكارهم، وارتفعت أبواب المحلات، وظهر الناس الذين اختبئوا خلفها، وراحت الحركة تدب شيئًا فشيئًا في الشارع، وصارت الأضواء تزداد في عينيّ كلما تقدمنا، وقابلني كثير من الوجوه التي رأيتها في قدومي عائدة، وانحرف بي سعيد إلى باحة واسعة خلف بنك الرياض، فوجدت سوقًا كبيرًا للخضر والفاكهة واللحوم. اشترينا مانجو وبرتقالًا، وعدنا إلى الشارع لنلحق بمحل البقالة قبل أن يغلق. وسألني سعيد:

- هل نسيت حديثي معك منذ أيام؟

- أي حديث؟

- الدرس الخصوصي.

كان سعيد قد حدثني عن إمكانية زيادة دخلي بإعطاء بعض الدروس الخصوصية. إن ممارسة عملين أمر ممنوع في المملكة، لكن الدروس الخصوصية ليست عملًا رسميًّا. الدروس أيضًا ممنوعة، لكن على المدرسين فقط، أما من هم مثلي لا يعملون في التدريس فلا جناح عليهم. نسيت هذا الحديث ولم أهتم، لكنه فيما يبدو أخذ الأمر جادًّا، دخل بي إلى محل أدوات مكتبية أنيق، استقبلنا فيه شاب صغير مبتسم، قدّمه لي سعيد باسم «خالد» وقدمني له.

صافحني الشاب بحرارة شديدة، وأخذنا إلى ركن بعيد في المحل، ثم فتح ثلاجة صغيرة، وأخرج منها علبتين من شراب «الفيمتو»، وعاد يحدث زبونًا كان يقف معه قبل دخولنا.

انتهينا من الشراب، وانتهى خالد من الزبون، وأقبل علينا هاشًّا باسمًا بسعادة فائقة. كان جلبابه الأبيض نظيفًا لامعًا، وكذلك غترته وعقاله الأسود، وبدا كل شيء فيه مبتهجًا. أخرج من جيب الجلباب الأعلى ورقة قدمها لي وقال:

- هذا عنواننا يا أستاذ إسماعيل.

أمسكت بالورقة لا أدري بالضبط كيف أتصرف ولا ما هو المطلوب مني، وقال خالد:

- لا تفكر بالمكافأة يا أستاذ.. سنعطيك ما هو طيب. إن أختي تلميذة ذكية لا ينقصها إلا أشياء قليلة في اللغة الإنجليزية.

إذن رتب سعيد كل شيء واتفق مع هذا الشاب على أن أعطي دروسًا لأخته. يا إلهي! دروس لفتاة.. وهنا بالمملكة؟ ولابد أن الدم ارتفع إلى وجهي ولم أدر إلا بخالد وقد انصرف من أمامي ليعود وفي يده علبة بها قلمان شيفر مذهبان، وقدم لي العلبة الأنيقة قائلًا:

- هذه عربون محبة يا أستاذ. متى تحضر؟

- بعد أسبوع.

لا أعرف لماذا قلت ذلك. هذا ما حدث على أي حال. رأيت سحابة داكنة تطفو على وجه خالد، لكن سرعان ما ابتسم وقال:

- إن شاء الله يا أستاذ.

قلت:

- في أمان الله.

ومددت يدي أصافحه، فأخذها بين يديه، وشد عليها بقوة. ثم صافح سعيدًا. ما كدنا نلتفت لنخرج حتى هتف:

- أستاذ.

توقفت. اقترب مني. همس:

- أرجوك أن تحضر ولا تخذلني.

لم أدر كيف أرد. كنت أفكر كيف قبلت هديته بهذه السهولة.

قلت:

- لا تقلق. سأحضر في الموعد.

شد على يدي من جديد بقوة الذي يعقد حلفًا، أو يقطع عهدًا بالوفاء إلى الأبد.

بعد العشاء رحنا نتفرج على التليفزيون في ردهة البيت.

سألني سعيد:

- ألن تحج؟

أجبت:

- نعم.

قال:

- إذن ستمضي العيد وحدك.

وسكتنا قليلًا حتى قال:

- أنا سأحج للمرة الثانية. وجيه سيحج للمرة الرابعة. أليس كذلك يا دكتور؟

أجاب وجيه:

- صحيح لكني هذه المرة سوف أحج لأمي.

ابتسمتُ وتساءلتُ:

- هل يمكن ذلك؟

أجاب سعيد:

- يمكن. ألم تر حديث الحج أمس في التليفزيون؟ المهم أن يحج الإنسان لنفسه أولًا.

وضحك واستطرد:

- وجيه في الحقيقة سيحج لأمه من باب التوفير. بدلًا من أن يرسل إليها تذكرة. ويستقبلها ويتحمل همها، يحج لها.

فوجئت بوجيه يقول ببرود:

- هذا حقيقي، لكن الحج الآن أيضًا صار شيئًا شاقًّا. أنا أوفر على أمي المشقة.. هل تراني مخطئًا يا إسماعيل؟

- لا.. ما دام الإسلام يرخِّص ذلك فلا غبار على الفكرة.

قلت ذلك غير مقتنع بكلامه، لكن ما فائدة الجدل في المسألة برمتها، ووجيه من النوع الذي لا يتزحزح عن أفكاره، وقال يخاطب سعيد:

- هذا رجل لن يحج لكن يقول الحقيقة ولا يلجأ للغمز واللمز.

ضحك سعيد، وانشغل وجيه فجأة بكتابة رسالة على الضوء المنبعث من شاشة التليفزيون. وفكرت أنا في سعيد الذي حدثني اليوم لأول مرة ونحن

في السوق عن خطيبته «وداد» التي تعمل مدرِّسة في البلدة، وتعيش معها أمها «كمحرم»، وكيف إنه لا يستطيع أن يزورها أو يراها إلا في السوق، ومصادفة وبسرعة.

لم يكن من السهل أن أصدق ذلك، لكن لماذا يكذب؟! قلت لنفسي ونحن عائدان من السوق، وكان لا يزال يتحدث. قال إنه سيعود في نهاية هذا العام الدراسي عودة نهائية. «كل عملي هنا ضاع هناك». قال بلا مبالاة، لقد حجز لنفسه شقة أنيقة بمصر الجديدة في عمارة ضخمة انهارت بعد بنائها، إنه يحمد الله لأنه لم يسكنها قبل الانهيار. ويحمد الله أن خطيبته وداد تفهمت ظروفه. اشترت هي شقة بمدخراتها، وأقنعته أن يكون هذا عامهما الأخير. «قبض ريح يا صاحبي. كل شيء هنا قبض ريح». كان يقول ويضحك وهو يقود السيارة، لكني كنت أدرك عذابه. «أي أيام للخطوبة تضيع هنا بلا لقاء حميم». كان يقول أكثر من مرة. وفي اللحظة التي تنبهت فيها إلى أن خالدًا الذي قابلناه اليوم في السوق، قد يكون أخًا لواضحة بنت سليمان بن سبيل، إذ حدثني سعيد من قبل أنه يعرف أخاها، وأن له مكتبة بالشارع العام، في هذه اللحظة التي فكرت فيها أن الفتاة التي اختار سعيد لي أن أعطيها درسًا قد تكون واضحة نفسها، في اللحظة التي كدت فيها أندفع أساله، بدأ المذيع يتلو نشرة الأخبار الأخيرة بصوت عال نافذ. قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (1)...

«وافق اليوم مفتي مكة، على إقامة الحد بالسيف، على مالك بن عبدالله بن مالك، الذي قام في رمضان المعظم الماضي، بخطف فتاة كانت ترعى الغنم في تخوم مكة، وهرب بها إلى الطائف، وهناك أقام هو والشيطان خيمة بين الجبال، وأخذ يعاشر الفتاة بالقوة معاشرة الأزواج. لقد تم اكتشاف وكر الزنديق هذا الأسبوع، وهاجمته قوة من الشرطة، لكنه كان مسلحًا برشاش استطاع به أن يقتل أحد أفراد القوة المهاجمة التي مكّنها الله عز وجل من القبض عليه حيًّا.. ».

- هل سبق لك أن رأيت تنفيذ الإعدام بالسيف؟

سألني وجيه ببرود. أجبت:

- لا.

وتحسست عنقي..!

***

(1) البقرة: 179.

6

زحام شديد من الأتوبيسات الكبيرة والصغيرة، وسيارات البيجو والمرسيدس والشيفروليه والتويوتا والداتسون والهوندا والفيات وماركات أخرى لا أعرفها، تشغل الطريق القادم من الشمال، طريق المطار، المتجه إلى الجنوب.

تبوك أول البلاد الكبيرة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة، هنا يبيت الحجاج ليلة أو ليلتين في الخلاء جوار السيارات. الوصول إلى تبوك معناه الاطمئنان.

الرحلة بعد ذلك سهلة وفي أرض مقدسة. في تبوك يقوم المستشفى بدور الحجر الصحي، فيتم الكشف على الحجاج القادمين من الشمال، من الشام وتركيا.

في طريقي إلى العمل كل صباح أرى هذا الزحام، وأرى النساء والرجال وقليلًا من الأطفال، وقد جلسوا على الأرض جوار سياراتهم يتناولون إفطارهم في صمت، والسيارات والأتوبيسات واقفة تشغل جانبي الطريق.

قوافل الحجاج الأتراك هي التي تفقأ عينيّ في ذهابي وعودتي من العمل، فقراء شبه عراة، إنهم بعيدون دائمًا عن السيارات. لقد جاءوا مشيًا على الأقدام، وسيستمرون كذلك حتى يصلوا إلى مكة. ينامون في الخلاء يساعدهم أن البرد لم يشتد بعد، ومعهم أمتعة قليلة ربما لا تزيد على أغطية من الصوف الخشن.

لم تدهشني أعداد السيارات والأتوبيسات. أدهشني أولئك القادمون على الأقدام وكأننا بعد لم نفارق العصور القديمة التي قرأنا فيها عن قوافل الحجاج القادمة مشيًا من المغرب والأندلس، أو على ظهور الجمال، والخارجة من مصر تحرسها قوات من المماليك لتصد عنها غارات الأعراب. كل الحكام المماليك كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج من غارات البدو، حتى جاء محمد علي الكبير الذي احتل أرض الحجاز نفسها فَأَمَّنَ الطريق نهائيًّا. كل الحكام القدامى كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج إلا، يا إلهي، إسرائيل.

مشت على طريق الحج القديم وهي تطوق سيناء من الجنوب عام 1967، بالضبط كما مشت على طريق الساحل الشمالي حيث مشى سيدنا إبراهيم، ودخلت العريش، حيث عرَّش هو لأول مرة، بالضبط كما اندفعت من الوسط فوق هضبة التيه، حيث شق بنوها يومًا عصا الطاعة على موسى الكليم، ولم يضلوا هذه المرة. لقد حفظوا الطريق. مشت إسرائيل وداست على كل الطرق المقدسة في أمان لم يحدث لأحد، وقالت: الأرض أرضنا نعرفها والأنبياء أنبياؤنا ولا فرعون يستطيع أن يجبر أحدًا منا على الكذب ولا الخروج. أبونا إبراهيم كان طيبًا كذب لينجو من فرعون بامرأته، وأخونا موسى كان طيبًا لأنه أقنعنا بالفرار. اليوم عدنا وها هن بنات إبراهيم يسبحن أمامكم في المياه فمن منكم بقادر على منعهن؟ لقد جاء فرعون أخيرًا إلينا يطلب الغفران وسنعطيه ما أخذنا منكم بشرط أن تتنزه بنات إبراهيم في أسواقكم، ولن يكذب رجالنا بعد اليوم.

ستترك إسرائيل طريق الحج في سيناء، لكن لا أحد يمشي عليه الآن. الحج بالسفن والطائرات. لا أحد يأتي مشيًا إلا هؤلاء الأتراك المتعبون. لكن الحج هنا صامت صامت. لا صوت ليلى مراد ينشد «يا رايحين للنبي الغالي» ولا محمد الكحلاوي يملأ الفضاء بـ «لاجل النبي» ولا أعلام بيضاء مرفوعة فوق السيارات، ولا زغاريد تنطلق، ولا أظن أن الناس هنا تعرف شيئًا عن الحركة الوهابية والتقاليد التي أرستها. الحجاج القادمون بالسيارات وعلى الأقدام متعبون، مشغولون باستكمال الطريق والتزود بالطعام، ينزلون إلى السوق ويجوسون في البلدة، لكن لا تستطيع أن تميزهم. غرباء في بلد مليئة بالغرباء. لا أحد يُحْرم من هنا، فلا ترى أحدًا بملابس الإحرام. لا تستطيع أن تعرف الحجاج إلا خارج البلدة، حيث يدور حولها الطريق الشمالي، ويعبرها بسرعة إلى الجنوب مارًّا بالمستشفى، ثم داخلًا في الرمال، لكن حديث الحج هو حديث الناس هذه الأيام.

***

دخل أرشد إلى غرفتي، وقال إن الباكستانيين نظَّموا أنفسهم للذهاب إلى الحج، ويريدون أن أتدخل لدى عم عبدالله ليعطيهم عربة نقل كبيرة.

ابتسمت. ها هو ذا أرشد يكلمني. لقد انتهى تدريبي على القيادة، وتسلمت أمس سيارة صغيرة نصف نقل قديمة لأنتقل بها، ولم يَحِدْ أرشد عن جديته في التدريب. اليوم يتحدث في شيء آخر. سألته:

- ستسافرون بسيارة نقل؟

- أجل. سيركب الزملاء في صندوقها ونتبادل قيادتها أنا ووهاج.

- لكن هذا صعب. لماذا لا تستأجرون أوتوبيسًا؟

- يكلف كثيرًا مستر إسماعيل.

كنت أعرف أنه بتقسيم سعر إيجار الأوتوبيس لا تكون التكلفة كبيرة، لكن الباكستانيين لدينا عمال نظافة أو فنيون بسطاء، ولابد أنهم يحرصون على كل قرش.

- هل ستتحدث مع مستر عبدالله مستر إسماعيل؟

عاد أرشد يسألني والقلق باد على وجهه. طلبت منه أن يجلس فجلس. طلبت له قهوة فشربها. كنت أريده أن يتحدث كثيرًا وتحدث. قال إنه متخرج من معهد عال للفنون، وإنه فنان تشكيلي لديه لوحات صغيرة يرسمها في غرفته في الكامب، لكن لا يطلع أحدًا عليها. وقال لي ألا أندهش. لقد علمه أبوه قيادة السيارات وعلمه الميكانيكا منذ صغره. أبوه كان سائقًا. ولما كان في احتياج إلى السفر، اضطر إلى استخراج جواز سفر بمهنة ميكانيكي حتى يحصل بسهولة على عقد عمل. «لا مجال هنا للفنانين مستر إسماعيل». قال وهو يبتسم ثم سألني:

- ألا يحدث ذلك في مصر؟

قلت:

- يحدث.

لكن دهشتي لم تنته، لم أصدق القصة ولم أشأ الاستفسار عما أراه غامضًا فيها. وقال أرشد إنه متزوج، ولديه طفلة اسمها زينب، يرسمها دائمًا في غرفته، وقال إنه من «بيشاور».

وماذا تعني بيشاور يا أرشد؟ أليست بلدة مثل سائر البلدان؟ لا مستر إسماعيل. بيشاور أكثر البلدان فقرًا. كل العاملين هنا من عمال النظافة تقريبًا من بيشاور. إنهم لا يقومون بإجازاتهم السنوية. يعملون فيها لتحسب

لهم أجرًا مضاعفًا. لا يعودون إلى بيشاور إلا بعد أربع أو خمس سنوات. مع نهاية التعاقد. قلت:

- لكن هذا صعب جدًّا.

قال:

- أصعب منه أن تذهب إلى بيشاور ثم تعود إلى هنا.

وسكت قليلًا ثم قال فجأة:

- باكستان بلد منكوب.

لم أفهم ماذا يقصد. قال:

- ضياء الحق شرير جدًّا مستر إسماعيل! ألا ترى عينيه؟ إن بوتو أفضل منه. هل تعرف بوتو؟

- أعرف أنه مسجون الآن.

سيقتلونه مستر إسماعيل. بوتو هو الذي صنع ضياء الحق. ضياء الحق انقلب على بوتو، ضياء الحق مثل السادات مستر إسماعيل.

أربكني أرشد بحق، واستمر يتحدث بعفوية شديدة وسألني:

- أنت تكره السادات. أليس كذلك مستر إسماعيل؟

لم أرد. ضاع مني الكلام، ورأيته يتحدث كطفل بريء للغاية.

قال:

- ذلك واجب مستر إسماعيل، واجب أن نكرههم جميعًا. إنني أعرف كثيرًا عن مصر. عن مظاهرات يناير العام الماضي. مظاهرات الفقراء. في باكستان نحتاج مثلها لكن العسكريين أغبياء يطلقون الرصاص على الناس. إنهم جميعًا ضدنا مستر إسماعيل. كل هؤلاء الرؤساء ضدنا. إننا بحق تعساء جدًّا.

وسكتنا طويلًا. ها هو ذا أرشد الصامت ينفتح كشلال كيف فتح لي قلبه، هذا الذي كان يبدو شديد الخوف مني؟! لقد نهض واقفًا يسألني:

- هل ستتوسط لدى مستر عبدالله؟

- اطمئن أرشد، وسيوافق.

- أشكرك مستر إسماعيل.. ألن تحج معنا؟

- لن أحج هذا العام.

- إذن ستمضي العيد وحدك مستر إسماعيل.

وتركني وخرج.

***

- ألن تحج مستر إسماعيل؟

- نعم.

- إذن ستمضي العيد وحدك.

أدهشني فيليب سوساي بيليا وهو يقول لي ذلك أيضًا. حدثني اليوم. وجد نفسه وجهًا لوجه أمامي، وكان عليه أن ينتظر معي بعض الوقت. لقد انصرف عابد لأمر من أمور عم عبدالله الخاصة، وانتقلت أجلس في غرفته. لم تكن ساعة مضت على حديث أرشد معي، وكنت مازلت أفكر كيف فتح لي قلبه بهذه السهولة، أي سر وراء اندفاعه في الحديث على ذلك النحو! أتراه كان معذبًا به أم شاء أن يعذبني؟ كلمني على كل حال، وأشاع كلامه في نفسي نوعًا من البهجة الغامضة.. أرشد لا يخشاني، ولا أنا شخص يثير خوف أحد. سألني فيليب عن عابد قلت إنه في البلدة، نظر إلى ساعته متضايقًا، وقال:

- لقد طلب مني الحضور في الثانية عشرة.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الثانية عشرة. وجدت نفسي أتركه واقفًا بالغرفة، وأخرج أطل على الباحة علّني أرى اليمني وهو داخل إليها. وجدته جالسًا في مكانه يدير السواك في فمه. رآني فابتسم. ابتسمت وعدت إلى الحجرة. جلست خلف المكتب وجلس فيليب على أحد المقاعد. وشملنا الصمت للحظات. فسألته:

- هل يحتاج إليك عابد لأمر مهم؟

أجاب في ضيق:

- هو قال ذلك.

تأملت وجهه البارزة عظام الوجنتين. وجه قوي رغم ما بلغه فيليب من عمر. صار يضع نظارة طبية الآن. لم أره يضعها من قبل. قلت دون ترتيب:

- هل كنت تعرف أن مستر عبدالله سيخلصك من الشرطة؟

وأحسست بالأسف. مضى وقت على حادث السرقة. وما كان عليّ أن أذكِّره به. يبدو أن رغبتي في معرفة دوافعه كانت أقوى من قدرتي على الصمت. قال:

- لا.

وابتسم فابتسمتُ وتشجعتُ. سألته:

- ألا تعرف قانون هذه البلاد فيليب؟

- أعرف مستر إسماعيل.

- إذن كيف فعلت ذلك؟

- إنه راديو غريب مستر إسماعيل. راديو بسبع موجات.

- لكنه كان سيكلفك كثيرًا.. كان يمكن أن تشتريه.

- ثمنه ألف وخمسمائة ريال. راديو فخم جدًّا أحببت أن أستمع إلى إذاعة كولومبو. هل رأيت من قبل راديو بسبع موجات؟

- لا.

- خلاص.

قال ذلك باللغة العربية فجأة، لكني لا أعرف كيف ركبني الشيطان، فقلت:

- أنت تستعد لإشهار إسلامك مستر فيليب والسرقة حرام في الإسلام.

- أعرف. لكن ليس في القرآن نص على عدم سرقة راديو بسبع موجات!

انطلقت أضحك، وابتسم هو ابتسامة واسعة مشوبة بالخجل الذي لابد أنْ سببه له ضحكي حتى أنّ وجهه الأسمر احمرّ، قلت:

- عليك الآن أن تعجِّل بإشهار الإسلام حتى ينسى الناس ما حدث.

- سأفعل ذلك قريبًا مستر إسماعيل. لكن قل لي، ألن تحجّ هذا العام؟

فاجأني فيليب، وتوقفت سيارة عابد أمامنا في الباحة، لم ينزل منها، لكنه أشار إلى فيليب فتوجه نحوه، وركب السيارة معه، وانطلق عابد به من دون أن يكلمني. صار عليّ أن أظل في غرفته وقتًا آخر.

***

توقعت حين دخل نبيل الغرفة، ووقف ينظر إليّ ولا يتكلم للحظة، أنه سيسألني بدوره ما إذا كنت سأحج هذا العام أم لا. بدأت أشعر بالضيق من تكرار السؤال كيف أشرح المسألة، لم يمض شهران على عملي هنا، وفوجئت بعيد الأضحى يقفز أمامي. الواحد حين يأتي هنا لا يفكر إلا بالعمل. لا يدرك إلا متأخرًا أنه في أي مكان من بلاد الدنيا لا يختلف الزمان، فلعيد الأضحى وقت معلوم حتى لو كنت في الصين أو اليابان، لكني حقيقة فوجئت بعيد الأضحى، وفوجئت أيضًا بمسألة الحج. الحج مرتبط في ذهني بكبار السن من الرجال والنساء، أنا لم أر حجَّاجًا غير هؤلاء في مصر. والحج في ذهني تسبقه طقوس كثيرة أراها تتكرر كل عام في الحي الذي أسكن فيه بالإسكندرية. زينات وذبائح، وأطفال يغمسون أكفهم في الدم، ثم يطبعونها على الحائط (خمسة وخميسة) في عين الحسود، وشباب يرسمون جَمَلا يركبه شيخ ويسحبه صبي، وجامع بعيد ونخل في الطريق، ورجال تأتي تصافح الحاج قبل سفره، وسيارات تجري في الطرقات مزينة بالأعلام

والورد، وشيوخ يقرءون القرآن في سرادقات صغيرة. وولائم للفقراء.. لم أفكر أبدًا أن شابًّا مثلي يمكن أن يحج في هذه السن المبكرة. أدهشني أنه هنا يمكن أن تركب سيارة قبل موسم الحج بيوم واحد وتذهب لتحج وتعود.

هذه هي المسألة التي لن يفهمها أحد، ولم أحدث بها أحدًا حتى الآن. لكن نبيلًا لم يتحدث في الحج. جلس وحدثني أن أستمع إليه جيدًا. قلت:

- خيرًا.

قال.

- ليس بخير.

ابتسمت. لقد بتّ أحفظ طريقته في الكلام، قلت:

- ليكن. نعم.

قال:

- أنت تعرف أني خاطب.

- أرى في أصبعك دبلة.

- أنا في حيرة شديدة. هل أستمر في الخطوبة أم أفسخها؟

لم ينتظر ردًّا. ولم يكن لدي رد بالطبع. استمر يتحدث:

- أنا أتقاضى راتبًا ألفا ومائتي ريال. يعني ما يساوي مائتين وأربعين جنيهًا مصريًّا. أرسل لخطيبتي مائة ولأمي خمسين وأعيش بالباقي فلا أوفر شيئًا، لقد فَتَحَتْ خطيبتي لنفسها حسابًا ببنك مصر. لا. في سيتي بنك، بنك أجنبي. أخبرتني بذلك منذ أسبوع، وطَلَبَتْ أن أحول لها ما أرسله على حسابها، ولا أرسل إليها شيكات أو حوالات لأن ذلك يستغرق وقتًا في صرفه. زحام شديد، وكثيرًا ما لا تجد دولارات بالبنك فيعطونها نقودًا مصرية. يحولون الدولار بالسعر الرسمي فتخسر كثيرًا. هي تقول ذلك في الخطاب. يصرفون لها الدولار بثمانية وستين قرشًا، مع أنه في السوق السوداء بثمانين، فضلًا طبعًا عمّا في إرسال الشيكات من مخاطر. موظفو البريد يفتحون الخطابات. يقرءون الخطابات ويأخذون الشيكات لأنفسهم. موظفو البريد في مصر فقراء جدًّا كما تعرف، ولابد أنك تذكر أشكالهم.

ضحكت وتساءلت:

- حتى لو كان الشيك للمستفيد الأول فقط؟!

قال:

- لا شيء يستعصي على موظفي البريد في مصر.

ضحكت بشدة واستمر هو يتحدث:

- أمي أرسلت لي أمس خطابًا تنصح لي أن أكف عن إرسال نقود لخطيبتي لأنها تمشي مع سائق من الحي. من الكيت كات. لا ليس الكيت كات. من سوق الجمال في إمبابة.

قلت ضاحكًا:

- ليس مهمًّا أن أعرف المكان. أنا من الإسكندرية إذا كنت نسيت ولا أعرف القاهرة جيدًا.

سكت قليلًا وقال بهدوء شديد:

- لكن ما أكلمك عنه ليس بالقاهرة، إنه بالجيزة.

انطلقت أضحك من جديد وابتسم هو وقال:

- ما رأيك؟

- في أي شيء؟

- أفسخ الخطوبة أم لا؟

فكرت قليلًا. قررت أن آخذ الأمر جادًّا حتى لو كان هو يهزل.

قلت:

- امتنع عن إرسال نقود لخطيبتك وانتظر، ستعرف ما إذا كانت تحبك أم لا.

سكت قليلًا ثم قال:

- إذا كانت تحبني سأحزن جدًّا على قطعي للنقود، وإذا كانت تحب غيري ستتركني هي، وليس من المعقول أن ينتظر الرجل حتى تتركه امرأة.

وجدت الموقف محيرًا حقًّا. قلت:

- إذن سافر وتحَرّ الأمر بنفسك.

- أنت تعقِّد المسألة. أنا لا أستطيع السفر. سأفعل كالباكستانيين وأقضي إجازتي السنوية في العمل. أنا محتاج لكل مليم.

سكتنا وفكرت في هذا المحتاج لكل مليم كيف يرسل كل مرتبه تقريبًا. وقال كأنه يحدث نفسه:

- المشكلة أني أحبها بنت اللئيمة. إنها تقرأ المجلات والصحف.

وظللت أتأمله وقد شرد عني بذهنه للحظات ثم قال:

- هل تنصح لي أن أسأل عابدا أيضًا؟

قلت يائسًا من الأمر كله:

- لا أحد يستطيع أن يفيدك. أنا لا أفهم ماذا تقصد بالضبط. الرأي الصحيح أن توفر ما ترسله لنفسك حتى إذا عدت إلى مصر تحصل على شقة تتزوج فيها. هل ستتزوج بدون شقة؟

لكنه عاد يشرد بذهنه، لم يبدُ أنه استوعب كلامي، ثم قام وهو يقول:

- الأفضل أن أحج ثم أفكر بعد الحج.

وما كاد يتقدم خطوة نحو الباب حتى التفت إليَّ وقال:

- هل صحيح أن الإسلام يبيح للإنسان أن يحج عن غيره؟ لقد سمعت شيئًا كهذا في التليفزيون.

تذكرت حديث وجيه وأجبت:

- الإسلام يبيح ذلك بشرط أن يحج الشخص لنفسه أولًا.

بانت الدهشة على وجهه وفي عينيه وقال:

- طيب إذا كانت أمي مريضة وشبه مشلولة، وأنا لا أضمن أن تعيش عامًا آخر وأريد أن أحج لها هذا العام، هل يرفض الله الحجة لأني لم أحج لنفسي؟ لا أظن..

وخرج وقلبي ينتفض خوفًا من أن يسألني ما إذا كنت سأحج أم لا. لم يسأل.. ولا سألني أحد آخر. لم يتحدث أحد معي بقية اليوم.

***

7

- لماذا تسرع هكذا؟

- ولماذا أبطئ؟

تساءلت وأجاب الدكتور وجيه. دعاني لقضاء سهرة معه في المستشفى. قال: «غدًا الجمعة وتستطيع أن تسهر معي حتى الصباح».

لم أتردد. قلت: هذه فرصة أخرى للخروج من رتابة الإيقاع الثابت لحياتنا، خرجت مرة في صحبة سعيد إلى السوق، والليلة سأقضيها في صحبة وجيه في المستشفى.

وجيه يتحدث كثيرًا عن مشقة العمل هذه الأيام، الزحام الشديد في المستشفى بسبب موسم الحج، مفاجآت الحجاج وحوادث الطريق.. أول أمس حدثنا عن دهشة الحجاج الذين يجدون أنه من اللازم فحصهم للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية. الكوليرا هي «بعبع» الموسم. يكون على الحجاج أن يكشفوا مؤخراتهم لخَدَم المستشفى. الرجال للرجال والنساء للنساء. يقوم الخدم بكشط الشرج بملاعق طبية، يتم بسرعة تحليل ما علق بها.

أول أمس رفض ركاب أوتوبيس كامل أن يكشفوا مؤخراتهم، بصعوبة شديدة انصاع الرجال للأمر، لكن حين جاء دور النساء احتج الجميع. الرجال والنساء معًا. لم يعد ممكنًا الحوار معهم. ارتفعت صيحات احتجاجهم، وتاهت معاني الكلمات في اللهجة الشامية الغاضبة.. الركاب جميعًا سوريون، ويحجون لأول مرة عن طريق البر. لقد عادوا بعد أن أقسموا أن لا يأتوا للحج أبدًا بعد ذلك. إن إجراءات الحجر الصحي معروفة، لكن دائمًا يفاجأ بها الحجاج. وسألته:

- ألا يتم ذلك في بلدهم؟

- حتى لو تم في بلادهم لا نأخذ به. لابد من الفحص هنا.

- ألا توجد طريقة أخرى للكشف عن الكوليرا غير الكشط بالملاعق؟

- توجد طبعًا. تحليل البراز. لكن أين الوقت الكافي ليحضر لك كل هؤلاء الحجاج عينات من برازهم؟ ليس أمامنا إلا وضعهم في صفوف ثم ينحنون كاشفين مؤخراتهم، ويمر الخدم بالملاعق لكشطها.

- إنها مسألة مربكة حقًّا!

قلت وضحكت. وربما بسبب هذه الطرائف ذهبت معه اليوم.

***

في الطريق نَبّهني وجيه إلى أن المستشفى صغير. مجرد مبنى من دورين به أربعة أقسام صغيرة: الجراحة والباطنة والولادة والأطفال، ولا يزيد القسم على غرفتين بكل غرفة أربعة أسرّة. قال إنهم يبنون الآن مستشفى ضخمًا، لكن العمل لن ينتهي فيه قبل ثلاث سنوات، وقال إن هناك مستشفى عسكريًّا كبيرًا بالقاعدة العسكرية اسمه «ويتكر» مستشفى أمريكي لا يعمل فيه أحد من العرب، وفيه يصل راتب الممرضة الأجنبية أضعاف راتب الطبيب المصري في أي مستشفى آخر. وصلنا إلى المستشفى، ولاحظت حركة لا تنقطع في الردهة الواسعة التي تشغل مساحة كبيرة من الدور الأرضي. رجال ونساء داخلون خارجون في صمت وسرعة. لم يكن الجو حارًّا. بدأ الصيف يفسح الطريق بطيئًا للشتاء. دخلنا في نوفمبر. انتهينا من ذي القعدة ولم يبق على الحج غير أيام ثلاثة. صعدنا إلى الدور الثاني، وإلى حجرة ليست نظيفة كما ينبغي، أخذني وجيه، جلس هو خلف مكتب خشبي صغير وقديم، وجلست أنا إلى جانب المكتب، بالغرفة مقعد آخر ودولاب زجاجي به بعض معدات طبية بيضاء منطفئة اللمعان. لاحظت أن دهان الجدران متساقط في أكثر من موضع، ورأيت خلف البارافان البلاستيك طَرْفَ منضدة الكشف فوقه ملاءة حائل بياضها.

دخَلَتْ بعد جلوسنا ممرضة قدمها لي باسم عايدة. ابتسمت ابتسامة خافتة لم تُخف مظاهر الجدية على وجهها. بدت متحفزة لا أدري لماذا؟ في الحقيقة راعني اتساع عينيها السوداوين وألق بياضهما في غبشة ضوء الحجرة. قلت لنفسي: هذا أول وجه نسائي أراه هنا. وقالت هي لوجيه إن جميع الحالات على ما يرام. تساءل:

- والحجاج؟

- لم تصلنا وفود جديدة الليلة. يقولون إن النهار كان مليئًا بالعمل.

- هذا من حسن حظنا، مع أني كنت أريد للأستاذ إسماعيل أن يتفرج.

نظرت إليّ مبتسمة وقالت:

- وماذا سيرى أكثر مما هو في مصر. ألم تدخل مستشفى في مصر؟

سألتني، وأجبت على الفور:

- دخلته مرة لإجراء عملية فتق.

لا أعرف لماذا أجبت بهذه السرعة. لقد رأيتها تكتم ضحكتها.

وتساءل وجيه:

- ما لك يا سستر، هل قال الرجل شيئًا مضحكًا؟

- أبدًا. لكن يبدو صغيرًا على الفتق.

وبدت مرتبكة جدًّا، واحمرّ وجهها، وأطرقْت أنا خجلًا، وسمعتها تقول:

- آسفة.. آسفة جدًّا.

وانصرفت بسرعة. نظر وجيه إليّ، ومطَّ شفتيه، وقال:

- الواحدة في مصر لا قيمة لها، هنا أحيانًا يتجاوز راتبها راتب الطبيب المبتدئ.

قلت لنفسي: ها هو ذا يعود ويتحدث عن القيمة المادية للأشياء. ودخل من الباب رجل متوسط العمر، ووقف صامتًا وخلفه شرطي صغير الحجم. وقف وجيه بسرعة ودار حول المكتب ليصافح الرجل بحفاوة.

- أهلًا يا دكتور. أهلًا. تفضل..

وقدم له المقعد الخالي، لكن الشرطي قال في غضب:

- لا تجلس.. انتبه.

وقف وجيه صامتًا، وتأملت أنا الرجل الذي منعه الشرطي من الجلوس. له لحية طليقة لا يعتني بها، وفي عينيه انكسار، وملابسه متسخة غير مهندمة. عاد وجيه إلى المكتب بسرعة، وأخرج من أحد أدراجه مظروفًا مغلقًا قَدّمَه له. أخذه الرجل بيد مرتعشة ولم يتكلم. استدار ينصرف، ولم يتردد الشرطي في إمساكه من ذراعه والإسراع به. رأيتهما في الطرقة الطويلة الممتدة أمام الباب. الشرطي يسرع والرجل يسرع جواره يكاد يتعثر. بان لي الرجل من بعيد أقصر مما رأيته داخل الغرفة. وجلس وجيه محزونًا، وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظرًا إلى المكتب. ظهر بالباب رجل آخر، أسود، يرتدي جلبابًا وغترة وعقالًا ممزقًا، وقال:

- أرسلتني الست عايدة يا دكتور.

قال وجيه دون أن يرفع رأسه:

- سَوِّ لنا شايًا يا نعمان. معنا ضيف عزيز..

قلت لنفسي: هذا إذن الخادم أرسلته عايدة لتخفف من أثر ما حدث منها، ولم أنس الرجل الأول الذي دخل مع الشرطي، المصري الذي يرتدي بدلة قديمة وخاطبه وجيه بـ«الدكتور».

قلت:

- ما الحكاية بالضبط؟ من الذي دخل مع الشرطي؟

تنهد وجيه وقال:

- إنها قصة غريبة. هذا طبيب مصري له هنا خمس سنوات، منذ عام ارتكب خطأ فظيعًا. حضر إليه شاب سعودي ومعه فتاة قال إنها زوجته، وطلب إليه أن يقوم بإجراء عملية إجهاض لها. لا تعرف كيف أخطأ الدكتور الغريب.. اسمه هكذا «سيد علي الغريب» كان عليه أن يحتاط. الإجهاض ممنوع أصلًا إلا لدواعٍ طبية. إن أي طبيب يمكن أن يخالف ضميره ويختلق الأسباب الطبية للإجهاض لكن هذا لا يحدث. دكتور سيد الغريب فعلها. كتب تقريرًا بضرورة الإجهاض. لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعرف. لا أظن أن الشاب السعودي أغراه بالمال، دكتور سيد قديم هنا ولابد أنه كسب كثيرًا. كان يمكن للمسألة أن تمر، لكن الفتاة ماتت أثناء العملية، والأبشع أن الشاب اختفى، وظهر أنه ليس زوجها ولا يمت لها بصلة. منذ هذا اليوم تمّ تحديد إقامة الدكتور سيد الغريب. منع عنه راتبه حتى تفصل المحكمة في أمره.

المحكمة لم تفصل حتى الآن. صادروا ما معه من نقود ووضعوه في بيت جميل جدًّا. تصور! البيت الوحيد الذي له حديقة بها نخيل وأشجار ليمون. عام كامل وهو على هذا الوضع. كل شهر يسمحون له بالخروج مرة مع الشرطي ليأتي إلى المستشفى يأخذ ما نساعده به، إننا نجمع له كل شهر بعض النقود. نشترك نحن الأطباء المصريين والممرضات في ذلك. أهله في مصر لا يرسلون له أي شيء منذ وقت الحادثة، ولو لم نساعده سيموت من الجوع.

وسكت لحظات ثم قام فجأة وهو يقول:

- لم أكن أحب لك أن ترى ذلك. هذا ما حدث على أي حال. سأقوم بجولة سريعة وإذا جاء نعمان بالشاي فاشرب ولا تنتظرني.

***

لم يكن من السهل نسيان شخص مثل الدكتور سيد علي الغريب. لقد نظر إليّ نظرة طويلة في اللحظات التي انشغل فيها وجيه بإخراج المظروف من المكتب كأنه يودّ أن أراه.

أنا في النهاية مصري مثله لم يكن يحب أن أرى مأساته. لابد أنه يعرف أن مأساته شائعة بين الجميع، ولكن لابد أنه يأمل أن لا تتسع الدائرة. وتاقت نفسي إلى رؤيته مرة أخرى لا أعرف لماذا؟

وأحسست بضيق شديد، اكتشفت أن نعمان قد جاء ووضع كوبَيْ الشاي على المكتب، وأنهما صارتا باردتين لا يمكن شرب أي منهما، وعاد وجيه إلى الغرفة وخلفه رجلان من أهل البلدة. قال بمجرد دخوله:

- ما لك اكتأبت هكذا؟ تفكر في الدكتور الغريب؟ لقد تعودنا وتعوَّد.

لم أردّ. والتفت هو إلى الرجلين اللذين كان أحدهما متوسط العمر بينما كان الثاني مسنًّا، محني الظهر، وخاطب متوسط العمر:

- ما للشيبة؟

راعني اتساخ جلبابيهما وتمزقهما في أكثر من موضع. لم يكن على رأس متوسط العمر غترة ولا عقال، وكانت على رأس المسن غترة قديمة جدًّا

عَقَدَها فوق رأسه بلا عقال، وكان يرتدي سترة قديمة سوداء فوق الجلباب.

قال متوسط العمر:

- يشتكي من المعدة يا دكتور.

أشار وجيه إلى منضدة الكشف خلف البارفان، فاختفى الرجلان، وتبعهما وجيه الذي رحت أسمعه يقول: «هنا الأذى؟» وأسمع صوت الرجل المسن واهنًا غير واضح الكلمات. مجرد غمغمة غير مفهومة. وأسمع وجيه: «هنا يا رجّال؟» ويتردد الصوت الواهن كأنه مواء معذب. ثم ظهر وجيه، وجلس إلى المكتب، وظهر بعده متوسط العمر.

قال وجيه:

- سأكتب له على حبوب تقويه وتشفيه.

- اكتب له على إبر، الله يرضى عليك. الإبر تدخل في الدم وتغذيه.

نظر إليّ وجيه كأنه يُشهدني على هذا التدخل الغريب في عمله. وظَهَر المسن محنيًّا لا يكاد يقف فأسنده متوسط العمر على ذراعه.

وقال وجيه:

- الشيبة لا يتحمل الإبر.

- اكتبها الله يرضى عليك يا دكتور.

ردّ متوسط العمر، فسكت وجيه. وفتح درجًا من المكتب، وأخرج منه بعض عيدان خشبية ناولها له، وقال:

- لا إبر ولا حبوب. خذ هذه.. يغليها ويشرب ماءها في الصباح كل يوم.

اختطفها متوسط العمر وهو يقول: «هذه أفضل. الله يرضى عليك يا مصري» واستدار بالمسن، وانصرفا على مهل. قلت:

- يبدو أنه مازالت للطب العربي سطوته.

سكت وجيه قليلًا وقال:

- هذه حالات ميئوس منها.

تساءلت:

- هل مسموح باستخدام الأعشاب هنا؟

أجاب:

- هذه مجرد عيدان قديمة وجدتها في الطريق. هم يقتنعون بطريقتي وأنا أوفر مال الدولة.

***

عاد نعمان فطلب إليه وجيه أن يعد لنا كوبين جديدين من الشاي. وأنا رحت أنظر إلى ساعتي، فوجدتها تزحف إلى منتصف الليل، وراودتني رغبة في الانصراف. اكتشفت اليوم في وجيه جانبًا لم أكن أحب أن أعرفه. ثم إنني لم أر شيئًا طريفًا، رأيت سجينًا مصريًّا ورجلين من أهل البلدة أشد فقرًا من فقراء بلادنا. في هذه البلاد ألغاز لا أفهمها. ولم يكن من السهل الانصراف، فوجيه يتحدث ولا يكف عن الكلام.

قال إن ما يحيّره هنا ليس كثرة الحوادث، هذا شيء وارد في كل البلاد العربية، حيث يقودون السيارات برعونة فائقة، لكن تحيّره الحوادث التي لا تنقطع عند بلدة «قليبة» الواقعة على الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة.

في كل ليلة يعمل فيها نوبتجيا للصباح، يتوقع حادثة أو أكثر عند قليبة، ويظل طول الليل يرهف أذنيه ليسمع صوت سيارة الإسعاف وهي قادمة إلى المستشفى. الليلة يرجو أن لا تَرِد من قليبة أي حادثة، وجودي معه يقلل من حجم القلق الذي يشعر به دائمًا حين يمضي الليل وحده هنا.. سألته:

- ألا يوجد مستشفى في قليبة؟

أجاب:

- إنها قرية صغيرة. لاحظ اسمها الذي لابد أخذته من انقلاب السيارات. بها مستوصف صغير يعمل بالنهار ولا يتحمل حالات الحوادث - وابتسم - لا شك أنك تذكر الدكتور رأفت الذي زارنا منذ أسابيع ليودعنا قبل عودته.

- أذكره بالطبع.

- حين جاء هنا لأول مرة تم توزيعه على مستوصف قليبة. هناك لا يوجد مخبز ولا محل يبيع الخبز. استمر رأفت يعمل هناك سنة، وتعوّد كل أسبوع أن يأخذ ما يكفيه من خبز من هنا. لا تعرف كيف نَفَد الخبز دون أن يدري، كان الجو شتاءً باردًا زمهريرًا، وهو مسكين مصاب بسكر لا يستطيع أن يتحمل الجوع. كان معه خمسون ألف ريال. ظل طوال الليل ينظر إليها ويتلوى. كان مستعدًّا أن يدفع الخمسين ألف ريال لمن يعطيه رغيفًا واحدًا. ومن سوء حظه انقطعت سيارة الإسعاف عن الذهاب ثلاثة أيام بعد ذلك. كاد يأكل نفسه. لقد اكتشفت أنه يعضّ ذراعه بالفعل. وحين وصلت سيارة الإسعاف كان هو على مشارف الهلاك. ركبها وجاء إلى هنا، ووقف أمام صاحب المخبز اللبناني يطلب أن يبيع له خبزًا بألف ريال. لقد صعق الرجل وظنه مجنونًا. لا أحد يشتري أبدًا بهذا المبلغ، ولكن رأفت وقف يصرخ طالبًا أن يبيع له الرجل بألف ريال خبزًا. باع له الرجل كل الخبز الموجود عنده، ووضعه رأفت في الإسعاف، لكنه في اليوم نفسه لم يعد إلى قليبة. صدر قرار بنقله إلى هنا. لقد وَزَّعَ الخبز علينا وصرنا نضحك.

لكني لم أضحك. ما زلت أشعر بالضيق والرغبة في الانصراف. ودخلت عايدة إلى الحجرة، فأحسست براحة خفية، كان خلفها رجل من أهل البلدة، قالت لوجيه وهي تبتسم:

- عنده خرّاج.

كنا تجاوزنا منتصف الليل، وقال وجيه مستنكرًا:

- وهل هذا وقت مناسب؟

قالت باسمة:

- لقد جاء.. لنحجزه حتى الصباح؟

لكن وجيه خاطب الرجل الصامت:

- وين الأذى؟

مد له الرجل يده اليمنى. خرّاج عجيب ركب أعلى أصبعه السبابة قبل الظفر مباشرة. نظر وجيه إليّ والاستنكار لا يزال على وجهه وقال للرجل:

- ضع يدك فوق «الماصة».

وضعها الرجل على المكتب، ورأيت وجه عايدة يمتقع وعينيها تكادان تقفزان. تريد أن تتكلم ولا تستطيع. كان وجيه يقترب بوجهه من يد الرجل، ويده تعبث في أحد أدراج المكتب تخرج شيئًا، ووقف وجيه فجأة وأمسك بذراع الرجل من عند الرسغ بيده اليسرى، وبيده اليمنى التي كانت تعبث في الدرج طعن الرجل بمشرط في الخراج مباشرة فصرخ الرجل، وانفجر الدم والصديد فوق يده وصرخ وجيه: (قطن يا سستر). وجرت عايدة إلى الدولاب تحضر قطنًا، وأنا وقفت كمن لدغه عقرب، وتباعدتُ إلى الحائط. خُيّل إليّ أن الدم والصديد سيندفعان إلي وجهي، ورأيت الرجل يغيض الدم من وجهه، ويكاد يتهاوى، حتى أن عايدة ألقت بالقطن على المكتب، ووضعت بسرعة مقعدًا خلفه تهاوى بالفعل فوقه غائبًا عن الوعي، ووجيه الذي ترك المشرط راح بيده اليمنى يضغط على الخراج بالقطن ولا يترك رسغ الرجل الذي أحكم القبض عليه، وعايدة تنظر إلى وجيه باستنكار شديد، وطلب منها شاشًا ودهانًا للجرح، ثم راح يضمده. ترك يد الرجل فسقط من فوق الكرسي على الأرض.

- شيلوه...

قال وهو يخرج من خلف المكتب ويغادر الحجرة. كان نعمان قد جاء وانحنى يحمل الرجل ويمضي، ورأيت عايدة تمشي خلفه والدموع في عينيها.

عاد وجيه وأنا بعدُ واقف لم أجلس. لقد خرج يغسل يديه، وهو الآن يطهرهما بالسافلون ثم يجففهما بالقطن.

- لماذا لا تجلس؟

لم أكن قادرًا على الجلوس. تذكرت أفلام الغابات والمكتشفين البيض الذي يمشون، في أيديهم سيوف قصيرة، يقطعون بها الأشجار الكثيفة التي تعوق الطريق وعادت عايدة، ووقفت بالباب، وقالت لوجيه:

- كده؟

- هل جرى شيء؟

- كان يمكن أن يدخل في صدمة.

- هذا عملي يا سستر.

- أنت مفتر يا دكتور.

- سستر، الزمي حدودك.

كانت عيناها لا تزالان نديتين بالدمع، وبان على وجهها غضب شديد، وانصرفت. تقدمت أنا أجلس من جديد مدهوشًا من تخاذل وجيه أمام عايدة، وخيم علينا الصمت للحظات ثم قال:

- لا يمكن أن أفتح الخراج بالبنج. يخافون العمليات. سوف يفيق ويشكرني وسترى.

ولم أكن مستعدًّا أن أرى. أسعدني الحظ وسمعنا صوت سيارة الإسعاف قادمة من الخارج. ودَخَلَتْ عايدة بعد لحظات فزعة تقول:

- حادث فظيع. ستة جرحى انقلبت سيارتهم في قليبة.

وجرت من أمامنا وأسرع وجيه خلفها. قمت بهدوء ونزلت إلى الدور الأول.. وجدت حركة كبيرة من خدم المستشفى حول الإسعاف. حملوا الجرحى، وأسرع خلفهم وجيه وعايدة وعدد آخر من الأطباء الشباب ومن الممرضات لم أرهم من قبل. وقفت وحدي في ردهة المستشفى، أنظر إلى سائق الإسعاف الذي لم يغادر مكانه وتقدمت منه:

- أنا صديق الدكتور وجيه كنت معه هنا وأريد العودة إلى البيت..

ابتسم لي، فرأيت سنًّا ذهبية تلمع في مقدمة فمه. قال:

- اصعد.

صعدت إلى جواره، وأدار محرك الإسعاف. شاب صغير من أهل البلدة، نظيف الثياب، لم يتكلم إلا في منتصف الطريق. قال:

- الدوران الذي تقع عنده الحوادث في قليبة يستطيع أي سائق أن يقطعه بسهولة. لماذا إذن تحدث الحوادث؟ سِحر هذا والله العظيم..!

لم أرد ولم يعد إلى الكلام. أرشدته فقط إلى بيتي.

***

8

لماذا أنا هنا؟

سؤال صعب يا واضحة. أصعب منه أن أراك وجهًا لوجه.. وكأني كنت أعرف. من يوم رأيتك تحت الشمس ووسط الضوء الأبيض وتاقت نفسي أن أرى جسدك يختلج وأنا أعرف أني سأقابلك.. سحرٌ كالذي يقلب السيارات في قليبة كما قال السائق ذو السّنّة المذهبة.. لكن هل أنا ميسر لك؟ لا أظن أن أحدًا منا ميسر للآخر. لماذا إذن تضعك الأقدار في طريقي؟ ألأنها بلدة صغيرة؟ لو كانت القاهرة ما تغير شيء. أنت الثانية التي رأيت وجهها.. التي كلمتها. بالأمس فقط رأيت أول وجه نسائي. رأيت عايدة. اليوم رأيتك. ما الذي جعلني أذهب لأعطيك الدرس؟ كنت نسيت موعدي، ومضى على الأسبوع أسبوع آخر. ليتني ما أخذت طاقم أقلام الشيفر! رأيته فتذكرت أنني نسيت. لم أكن نسيت. سعيد ذكرني أكثر من مرة. إنك لا تعرفينه. أخوك يعرفه، وفي كل مرة قلت له إني أذكر الموعد، ويراني لا أذهب، وأقول سوف يفهم أني لا أريد ويكف عني، ولم يكف ولم آت. رأيت هدية أخيك فأحاطتني بشعور بالذنب وجئتك خائفًا.

أعرف أنه لا أحد رأى جسدك يختلج غيري. أنا والشمس. لابد أن الشمس رأته. هي التي كانت تسكب أشعتها على الكون ببراءة اللبن الحليب. سأرى جسدك الآن أمامي. هل يختلج أم يختلج جسدي أنا هذه المرة؟!

***

استقبلني خالد بفرح طفولي غامر. قادني إلى غرفة واسعة مفروشة بالبُسط الحمراء الوثيرة، وعلى جوانبها حشايا صغيرة خضراء، رأيت مكتبًا في ركن بعيد وحوله مقعدان. مكتبًا صغيرًا يبدو نشازًا في غرفة عربية التصميم، فقلت لابد أنه أعدَّ للدرس على عجل. لم يسألني خالد عن سبب تأخري عن الموعد الذي ضربته له.. خالد يبدو شخصًا شديد النبل حقًّا. شَغل الوقت بأن راح يحدثني عن نفسه. قال إنه متخرج من كلية التجارة في جدة، وأنه كان يتمنى لو التحق بالجامعة المصرية في القاهرة. وقال إن جده لأمه مصري جاء هنا في الثلاثينيات ليحج ولم يعد، وإنه لا يزال يعيش، وإن العائلة

كلها تحب مصر والمصريين. وقال إنه رفض استكمال دراسته في أمريكا. ذهب عامًا وقطع الدراسة وعاد. لم يتخلص بعد من شعوره بأنه العربي الذي ما كان عليه هكذا فجأة أن ينتقل من الخيمة إلى حوائط الأسمنت العالية. وضحك. كيف تعيش في بلاد لا تسمع فيها حكايات أجدادك؟ وغضب، وقال إن أفضل وقت هو الذي يمضيه في الخيمة المنصوبة في باحة البيت الخلفية التي يعيش فيها جَدّاه. جده لأمه وجده لأبيه. جده لأبيه حارب مع الملك عبدالعزيز في العشرينيات ولا يزال لا يتكلم إلا عن ابن سعود وأفعاله الأسطورية. هذا إذا تحدث. وضحك خالد كثيرًا وهو يقول إن جده لأبيه لم يكف يومًا عن تلاوة القصة الغريبة التي راجت عن ابن سعود، والتي قيل فيها إنه جُرح في بطنه جرحًا كبيرًا وشاع بين الجنود قرب وفاته فكادت قواته تندحر حتى فاجأ الجميع بدخوله على زوجة جديدة. وقال خالد إن جده كان يهلل فرحًا وهو يصور جنون الجنود بعد ذلك بقائدهم الفريد الذي لا يؤثر فيه سيف ولا رصاص بل يتزوج وبطنه مفتوح لكن الجد غاضب الآن لا يتكلم منذ زمن طويل.

وسكت خالد لحظات طويلة ثم قال: «أختي هي واضحة بنت سليمان ابن سبيل» قلت: «أعرف». ببساطة تحدثت. قال: «اكتفوا بأن لا تذهب إلى المدرسة وتؤدي الامتحانات من الخارج» وسكتنا طويلًا حتى قال: «أنت يا أستاذ إسماعيل مصري ولدينا من مصر دم يجري في عروقنا».

***

دخلت واضحة يسبقها عطر غامض. صافحتني بيد صغيرة ارتعشت في يدي. لماذا؟ وقدم خالد كلًّا منا للآخر. ما كنا نحتاج إلى تقديم. هكذا فكرت. أخال أني كما رأيتها في الضوء الأبيض الرائق رأتني رغم أني لم أر وجهها، ولا كان يمكن أن يُرى بوضوح من خلف نقاب ثقيل، وخرج خالد وتركنا معًا وأنا في غاية الدهشة. أنا وفتاة وحدنا في الغرفة الواسعة الرطبة في البيت الكبير الصامت وسط الصحراء المترامية في البلاد شاسعة الأرجاء.

ولم أعد مهيّأ للدرس. وأحسست أن واضحة أدركت ذلك. لم أعد منتظم الذهن. وددت الانتهاء بسرعة، ووددت الفرار. اكتفيت بسماعها تتحدث عن الصعوبات التي تقابلها في اللغة الإنجليزية، ووعدتها بتيسير كل شيء.

قلت فجأة:

- اكشفي وجهك.

كانت لحظة أحسست فيها بضرورة أن أرى عينيها تستقبلان كلامي. ما دمت لا أرى وجهها جيدًا فلا يمكن أن ترى وجهي، فكيف إذن يعرف أحدنا الآخر وكيف يتذكره؟ وكدت أعتذر لولا أنها تعجلت في تلبية الطلب.

فم صغير وأسنان ندية وعينان عسليتان ناعستان وأهداب طويلة وبشرة خمرية مفاجئة، وقوس الشعر الأسود فوق الجبين وتحت رباط الرأس الأخضر ينبئ بشعر غزير خلفه.

- ما الذي يضايقك في اللغة غير القواعد؟

- القصة طويلة.

- لكنها ممتعة.

- اقرأها معي.

- سنقرأها ونعيد ترتيب كل شيء ونضحك كثيرًا مما سيفعله الخادم «باسبارتوت» وهو يطوف العالم مع سيده المقامر.

وصرت فجأة أشم أنفاسها الزكية، وعطرها الغامض كَثفَ وانتشر، وطال الدرس أكثر من ساعتين، ولما نظرت إليها أرخت أهدابها، وكلما ناولتني الكتاب تلامست أناملنا فارتعشت أصابعها. لابد أنها لم تكن تنصت لي طول الدرس. لقد أبعدت الكتاب جانبًا وسألتني:

- مصر جميلة يا أستاذ؟

- جدًّا.

ونظرتُ إليها وطالت نظرتها إليّ.

- إذن لماذا أنت هنا؟

***

أربكتني يا واضحة ولم أجد كلامًا أقوله. أنا هنا لأن هناك من يسعدهم ذلك، هُراء. أنا هنا لأن المصريين جميعًا هنا. هُراء. لست أنا آخرهم ولا جدّك المصري أولهم. هُراء. أنا لم أكن أحس إلا بعطرك الغامض فلماذا جعلتني أنهي الدرس الذي طال وكنت لا أريد أن أنهيه؟ رغم ذلك صرت ملهوفًا للقائك فجئتك في اليوم التالي.

وجئتني بلا رباط رأس. شعرك الأسود الغزير منسدل على ظهرك كبحر عميق بليل مليء بالأسرار. «عطر جميل» قلت ولم أكن أجاملك فإذا بك تقدمين لي زجاجة عطر.

- لي أنا؟

- لخطيبتك في مصر.

ولم أستطع أن أقول إني غير خاطب ولا متزوج، وكيف لم تدركي ذلك وحدك ويداي أمامك طوال الوقت؟ إنك صغيرة تلعبين معي لعبة التلميذة والأستاذ. لكن سؤالك ليس صغيرًا، ولا شيء ينقذني الآن من شعرك الغزير المغري بالسباحة. لكن هل أستطيع؟

- هل ستأتي في العيد؟

- لا.

ثم قلت:

- لأني تعودت أن تكون الإجازات في الأعياد. ويا لخيبتي!

- هل ستحج؟

- لا.

- إذن ستمضي العيد وحدك.

لم أستطع التراجع. وحاصرني الضيق. نسيت أنني رأيت في يومين وجهين جميلين. وجه تندّت فيه العينان بالدمع، ووجه رفع النقاب.

***

9

لم توقظني أمي على صوت الراديو والتهليل والتكبير وأصوات الأولاد في الشارع ولا أغنيات الصباح المبتهجة بالعيد.

ليس عليّ اليوم استقبال أختي المتزوجة وزوجها وولديها، ولا أختي المطلقة وبنتيها، ولن تطلب أختي المشاكسة الطالبة في الجامعة أن يفسحوا لها مكانًا لتجلس جواري، ولن يبدو على أخي الطالب بالجامعة أيضًا شيء من القلق لكبر حجمه ومَدّ يده لي يأخذ ما أعطيه له من نقود.

أي شخص مكاني الآن قد يبكي من بيت كبير واسع عليه أن يتناول فيه إفطاره وحيدًا في يوم عيد، لكني رفعت صوت الراديو إلى آخره وابتسمت.

قمت مبكرًا حقًّا، ولكني شُغلت بإعداد الإفطار. لحم مسلوق وشوربة بالهيل وفتة ولا أحد يجلس حولي.

شجار مفاجئ لا نعرف كيف بدأ. لقد عاد أبي في الحال من الصلاة وأوشكت أمي أن تفرغ من إعداد الفطور الساخن ولا نعرف سبب الشجار.

ارتفعت الأصوات أيضًا في الشقق المجاورة، والتي فوقنا، والتي تحتنا، واختلطت أصوات الرجال بأصوات النساء بنحيب الأطفال بخوفنا، ولكن أبي يتراجع «حقك عليّ يا أم إسماعيل.. كل سنة وأنت طيبة». وسكت الجميع. حط على الدنيا صمت وارتفعت الضحكات في كل الشقق وفُتحت الأبواب للمرح. لماذا كان ذلك يحدث حقًّا، لا أعرف حتى الآن. لماذا انتهى؟ ربما لأن الأطفال في كل الشقق كبروا مثلي، وربما لأن الآباء ماتوا مثل أبي، والأمهات مرضن مثل أمي، أو متن.. يا أللهّ! هل يمكن أن تموت أمي وأنا هنا؟ ورحت آكل بشهية عظيمة غير مبال بما يقفز إلى ذهني من ذكريات، أو أفكار خبيثة.

***

خرجت إلى الشارع. لا حاجة بي للسيارة. سأمشي وأرى هل البلد خالية حقًّا؟! لا أستطيع أن أمضي العيد وحدي في البيت.

كل الأغنياء يسافرون في العيد إلى الشام وأوروبا.

كل الفقراء يسافرون إلى مصر.

النساء والأطفال لا يتركون التليفزيون والفيديو.

الغرباء يحجون.

الغرباء من غير المسلمين لا يغادرون بيوتهم.

يا إلهي! هل يكون هذا حقيقيًّا؟!

ومشيت..

أرض متربة بين بيوت منخفضة أقطعها لأصل إلى الشارع العام. لا أرى غير بعض عنزات صغيرة تتقافز فوق السيارات المركونة أمام أبواب مغلقة لبيوت مغلقة النوافذ أيضًا. وأمشي.

باب ينفتح فجأة، يخرج منه رجل وامرأة مغطاة بالسواد، وأطفال يركبون سيارة فارهة وأسمع ضجة كلامهم، لا أفهم منها شيئًا، وتتحرك السيارة على مهل وتختفي وأمشي..

أدخل الشارع العام. لا سوق اليوم. أبواب المحلات كلها موصدة تذكرني بأبواب محلات شارع المكس بالإسكندرية بالليل.

أرض الشارع مليئة بالأوراق المهملة والكراتين الفارغة تشغل الرصيفين، وعلب «البارد» الفارغة في كل مكان، والجو صحو، والفضاء بديع، وأقرأ اللافتات. هنا محل ساعات، وهنا عطور، وهنا بقالة، وهنا جواهرجي، وهنا شرائط كاسيت وهنا أدوات كهربائية، وهنا بنك الراجحي الذي رأيت فيه منصور غاضبًا وأمامه بنك الرياض وخلفه سوق الخضار المغلق اليوم أيضًا.

الشارع ليس طويلًا كما رأيته من قبل. وهأنذا أحصي عواميد النور، فأجدها حوالي مائة على ناحية واحدة. إذن هي مائتان على الناحيتين ولا داعي لإحصاء الجانب الآخر. أكاد أنتهي من الشارع، وتقابلني خرابات ومساحات غير مبنية، وبيوت مهدمة جدرانها، وبيوت يعاد بناؤها، وأرى قططًا ضخمة كأنها نمور أو شياه تتجمع في الخرابات حول أشياء لا أراها، لابد أنها بقايا طعام. الشمس تعلو في السماء والفضاء يتسع. ما أجمل الفضاء حين

تكتشف وجوده وأنت بين الزحام! ما أتعسه حين لا يكون معك إلا هو في بلد بعيد في يوم عيد. ما أتعسني وفضائي! هنا لا يقتلون القطط. لقد باركها النبي. هكذا يقولون. لكن هيهات للكلاب أن تنجو من أحد. يا إلهي! ما هذا الكلب الأبيض السارح في الشارع ضخمًا مثل حمار شارد؟ إنه حتى لا يتلفت حوله. في حجم الكلب الذي رأيته من قبل في الصحراء. هذا كلب آخر وينظر إليّ أداعبه بيدي من بعيد. أشير إلى القطط حتى يهاجمها لكنه يلتفت ويبتعد على مهل، وأمشي حتى أصل الجامع مع آخر الشارع فأجده مفتوحًا وخاليًا وأمامه محل المخللات مغلق.

***

هل أجوس في طرقات أم درمان؟ لا نافذة مفتوحة ولا أبواب. منازل واطئة من قرميد أبيض ضخم وسيارات قليلة مبعثرة على أرض متربة لشوارع ضيقة وأكوام قمامة لا قطط حولها ولا كلاب ورائحة مكتومة في الفضاء والشمس تمشي معي. أين ذهب أهل المغنى والطرب والحظ، ولا أفراح اليوم ولا زينات، هيك هيك هيك. ضحكة داعرة ممتدة كسكين بارقة تعكس أشعة الشمس وضحكة رجل عريضة قوية بعدها حقيقة أم خيال؟ لا أدري. لكني سمعت ورأيت رجلًا يمرق جاريًا عبر الشارع الذي أمشي فيه الهوينى ويختفي في زقاق، ويمرق بعده رجل آخر تكاد غترته تنزلق من فوق رأسه، إذ وضع يده فوقها واختفى بدوره ولا أحد يظهر بعد ذلك، ولا قط يمشي جواري ولا كلب خلفي. يا ألله! أتقدم أم أتراجع؟ لا خوف من الضلال فالمنطقة كلها تحتويها العين، والبلدة كلها يحتويها النظر إذا صعدتُ فوق مقعد فقط. فلأمش.

ميدان واسع في مدينة مهدمة، وكل البيوت حول الميدان تشتعل فيها حرائق وينطلق من نوافذها دخان وجندي يصحو من بين القتلى يتلفت حوله في فزع مصوبًا بندقيته إلى لا شيء يمكن أن يظهر بغتة. يمشي الجندي بين دخان الحرائق المشتعلة في السيارات والدبابات التي فوقها جثث محنية الهامات، ويدور حول نفسه كالحلزون متوقعًا في كل لحظة عدوًّا. يرى امرأة مضطربة الوجه أمام باب بيت تحترق نوافذه. الشمس تسقط على وجهها الأبيض الملفوف بشال أسود، فيسطع الوجه مبهرًا جذابًا ويتحد الجسد الممشوق في الثوب الأسود أيضًا وتنزل الكاميرا إلى حذائها الأسود وربلتي ساقيها اللامعتين، وهي تعدو مسرعة تتابع دقات حذائها عبر الميدان ذي البلاط الأسود المربع الكبير وتدخل في زقاق ضيق قذر.

شُرفات نوافذ البيوت في الزقاق أمامها غسيل معلّق في حبال مقطوعة، الجندي يتردد لحظة قبل أن يعدو متابعًا المرأة. يدخل الزقاق الضيق فيراها تختفي في أحد الأبواب فيهرول. أرى ربلتي ساقيها وحذاءها الأسود وهي تصعد السلم الحديدي بإيقاع سريع، حتى إذا ما بلغت السطح رأت الجندي في بئر السلم يتطلع إلى أعلى فيرى قدميها ويصعد مسرعًا. تقطع السطح في سرعة بين بط ودجاج يقفز فزعًا ويصرخ، وتدخل من باب غرفة ويكون هو على السطح واقفًا يرى الباب وهو ينغلق، فيتقدم ببطء ويدفع الباب ويقفان وجهًا لوجه. تشهق خائفة وتتراجع ويدها على فمها وهو ينظر إليها بعينين نهمتين ووجه تحوطه لحية مغبرة ويتقدم تاركًا البندقية من يده تسقط على الأرض، وتصطدم هي في تراجعها بالسرير النحاسي ذي الأعمدة العالية خلفها والناموسية البيضاء الدانتيلا حول الأعمدة من أعلى ويقترب منها. تتقابل العيون في معنى غامض ويمد يده إلى عنقها وتترقرق عيناها بالدمع. يزيح الشعر عن جانب العنق فتميل برأسها على يده. بهدوء يمد يده الأخرى يزيح طوق جلبابها عن كتفها فيبرز ممتلئًا ورديًّا ويتسع طوق صدرها وترتعش شفتاها في نداء موءود وتسبل أهدابها ويصرخ طائر فوق السطح وتمرق طائرة تلقي بقنبلة فوق المدينة فتندفع إلى أحضان الجندي المسكين المتعب، وفي جبهة القتال البعيدة تنطلق المدافع متتابعة وأرى الجندي بعد ذلك فوق السرير يدخن سيجارة عاريًا نصفه الأعلى وتغطي نصفه الأسفل ملاءة بيضاء وهي نائمة فوق صدره عار ظهرها فوق الملاءة، وعلى كتفها اليمنى خالٌ صغير وتعبث بأناملها في شعر صدره.

وما زلت أجوس بين المنازل الصامتة لأم درمان. نوافذ موصدة وأبواب مغلقة ولا أحد يجري أمامي. أي سر في هذه المنطقة يكاد يميت أهل المغنى والطرب في يوم عيد؟ لا وجه أسود أو أبيض يلوح لي فهل أطرق الأبواب؟ يا إلهي! إنني أسمع صوتًا يغني. صوتًا وكأنه أنين قادم من كهف بعيد. وأتقدم ويزداد ارتفاع الصوت وعمقه وتتضح نبرات الأسى في ترجيعه. إنه صوت أنثى أكاد أرى دمعها يصاحبه عزف عود باكٍ:

جعلت لعراف اليمامة حكمةً

وعراف نجد إن هما شفياني

فما تركا لي رُقى يعرفانها

ولا سقيةَ إلَّا وقد سقياني

فقال شفاك الله والله ما لنا

بما ضمنت منك الضلوع يدان

وساد صمت وأنا صرت أقف تحت النافذة وعاد الصوت ممزوجًا بنحيب يردد الغناء. وساد صمت ثم علا النحيب وحده فوجدت نفسي أمشي. ذهلت عن البيوت حولي حتى وجدت نفسي قد خرجت إلى الشارع الذي يفصل أم درمان والعزيزية معًا عن السليمانية بالمنطقة الغربية للبلدة حيث أسكن. أسرعت بالعودة إلى البيت وأنا أشعر أن شيئًا لا أدركه كان معي وسقط مني.

***

استلقيت على السرير وضحكت حتى اهتز جسمي، منذ جئت هنا نادرًا ما جلست في حجرتي على مقعد. اكتشفت ذلك الآن. صعب أن يكون بالحجرة سرير وتجلس على مقعد.

قمت وأشعلت التليفزيون. ماذا أفعل؟ صورة للحُجَّاج في «منَى».. زحام هائل من اللون الأبيض. بشر وخيام. ابتسمت من فكرة أني قد أرى أحدًا ممن أعرفهم وسط الزحام. لا بد أنه قد أُذِّنَ للظهر لأن الصورة للحجاج يصلُّون في الخلاء.

سيرك لمدة ساعتين ونصف الساعة. الفتاة التي تلعب الأكروبات فوق الحصان لها ساقان طويلتان. كل فتيات السيرك لهن سيقان طويلة. ساعة من الغناء الذي لم أنتبه إليه. فيلم أمريكي مثير لبيرت لانكستر وصوفيا لورين وآفا جاردنر عن قطار انتشر فيه الوباء. ضاع مني اسم الفيلم. بَدَأ ولا أدري. الممثلون أعرفهم جيدًا. فقط ظننت آفا جاردنر إليزابيت تايلور. كبرت آفا جاردنر ولا يزال في وجهها شيء من توحشه الجميل القديم.

أحس الآن بالهواء الراكد القديم في أزقة حيّنا «بالمتراس» بالإسكندرية وبرائحة سينمات الدرجة الثالثة حين كنا نجري بلا ملل خلف «الكونتيسة الحافية» أينما عُرِض وأرى «كمال الفار» وهو يصرخ بنا. الكونتيسة الحافية في سينما «كونكورديا». الكونتيسة الحافية في سينما «كليوباترا». الكونتيسة الحافية في سينما «ليلي». في كل أحياء الإسكندرية البعيدة كان يتابع آفا جاردنر ويسوقنا أمامه نضحك. لماذا كنا نفعل ذلك حقًّا؟ أخذ «السُّل» كمال من بيننا في وقت مبكر ولم يحدث أن شاهدت «الكونتيسة الحافية» بعد ذلك ولا رأيت شفتي آفا جاردنر المكتنزتين، ولا قوامها الذي يدعوك أن تحوطه إلى اليوم. لم يعد يدعوك لشيء. مضت عشرون سنة على تلك الأيام.

ورحت أتقلب على بطني ثم ظهري. انتهى الفيلم وأطفأتُ التليفزيون وكان المساء. أتغدى الآن في موعد العشاء. ليس من السهل أن تأكل لحمًا مرتين في يوم واحد لكنه عيد. ما بين الحجرة والمطبخ، في المسافة القصيرة للردهة المكشوفة أحسست بالبرد.

هذه بشائر شتاء قاس. وعدت بصينية كبيرة عليها سلطانية شوربة وطبق من اللحم وآخر من الفتة. كل شيء ساخن وأرفع الصينية ليصل البخر إلى وجهي حتى أدخل الغرفة. إنني جائع بحق.

وسط الأكل أدركت أن السكون حولي أكثر مما ينبغي. سكون جاثم كأنه شخص أخرس وأعمى يجلس معك. أشعلت التليفزيون وقمت أغلق باب الحجرة الذي كان يضيء لي الظلام الكبير في الخارج. ولأن في حجرتي مصباحين كهربائيين أشعلت الثاني.

أريد ضوءًا باهرًا. انتهيت من الأكل، ورفعت صوت التليفزيون أكثر، ودخلت تحت الغطاء ممددًا فوق السرير، ورحت أتابع حلقة جديدة من «الرجل الأخضر» رجل يعرف سر الرجل الأخضر فيحوّل نفسه إلى رجل أخضر آخر، رجل أخضر شديد الاخضرار. ويستخدم قوته في الشر فيكون على الرجل الأخضر الأول، الأصلي، العالم المسكين الذي أصابته خطأكمية من الإشعاع وهو يُجري تجاربه، يكون عليه أن يهزم الرجل الشرير شديد الاخضرار. ويالها من معركة رهيبة بين تيتان ينتصر فيها الرجل الأخضر الأصلي الخيّر على القاتم الشرير. لكن المصباحين بدآ يهتزان وأحسست بطعم تراب ناعم في فمي. ثار العج في الخارج إذن وتسلل الغبار من تحت باب الحجرة ومن شيش النافذة. ماذا أفعل؟ ليس عليّ إلا الانتظار. لا أستطيع أن أفتح بابًا ولا شباكًا. لكن كيف يهتز المصباحان حقًّا؟.. ورأيت زجاجة الكولونيا الموضوعة

فوق التليفزيون بارزة أمام عيني. هنا يشربون الكولونيا. ويقفون بالليل سكارى تحت أعمدة النور. لم أكن مستعدًّا للخروج مرة أخرى. ثَقُل الطعام على جسمي، وشدني النوم من ساقيّ.

***

انتهى اليوم الأول بنهاره وليله.. كان لابد أن ينتهي. أعرف ذلك. وخرجت في ضحى اليوم التالي أمشي. أريد أن أرى البلدة وهي تعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا.

وجدت محلًّا للبقالة قريبًا من البيت فَتَح أبوابه ولا أحد يشتري ولا أحد يقف فيه ليبيع. صاحبه يسكن في بيت خلف المحل. لا بد أنه سيخرج من بيته بعد قليل. أرجأت شرائي للسجائر حتى عودتي. ومشيت حتى وصلت إلى المخبز اللبناني بأول العزيزية، ونظرت إلى وجه صاحبه الأحمر. أرجأت شرائي للخبز حتى عودتي ومشيت. حَدْس باليقين بأني لن أرى في البلدة أكثر مما رأيت لكني مشيت. قلت ألعب مع نفسي. أمس جست في شوارع العزيزية وأم درمان. اليوم أنحرف يسار الشارع العام في اتجاه الإمارة. لا فارق هنا بين حي وحي في شيء إلا الاسم. البيوت متشابهة. قصيرة بيضاء وصفراء لها بوابات حديدية، والعمارات منها لا ترتفع عن ثلاثة أدوار، لكن ماذا يمنع أن أمشي في مكان لم أمش فيه. يا إلهي!

هذا الطريق يصل إلى بيت واضحة القريب من الإمارة. لا يمكن أن أقصد ذلك. لأمش كيفما اتفق. لأختلق لنفسي شيئًا أفكر فيه وأشرد عن الطريق. فإذا أخذتني قدماي لواضحة أطرق الباب وأسأل عن خالد أقابله لأقول له: «مبروك العيد» كما يقولون هنا، ولا بد أن واضحة ستأتي لتقول لي ذلك أيضًا. إذا لم تأخذني قدماي إلى واضحة أعود. فكرت في شيء أشغل فيه ذهني فلم أجد.. ربما لأني فكرت في ذلك. لكن الحقيقة أذهلتني. فأنا أشعر برأسي خاويًا يصفر فيه الهواء كأنما نزعوا من تحت عظام الجمجمة كل شيء. ورحت أردد بصوت خفيض: جعلت لعراف اليمامة حكمة... وسمعت صوت المرأة يأتي واهنًا من بعيد يخالطه النشيج.

- لماذا تقف؟ فيم تنظر؟

سألني الشرطي الواقف أمام الباب. ارتبكت. إنني أقف بحق أتطلع إلى البيت. بيت صغير له حديقة نخيل وشجر ليمون، وعلى بابه يقف جندي صغير

السن يحمل بندقية، وفي شرفة صغيرة بالدور الأرضي يجلس الدكتور سيد الغريب بلحيته الطويلة المهوّشة ينظر إليّ بتركيز شديد كلانا ينظر إلى الآخر منذ لحظات إذن.

- آسف. لا أقصد شيئًا.

قلت للجندي ومشيت. وجدت نفسي أسرع الخطى عائدًا إلى البيت. لم أشترِ خبزًا ولا سجائر في عودتي. لديّ ما يكفي على أي حال.

***

في الغرفة وجدت التليفزيون مشتعلًا. أنا الذي أشعلته، ولما لم أجد الإرسال قد بدأت تركته «يوش» وخرجت. ها هو ذا يبث برنامجًا عن مباريات «تلي ماتش». غريب صوت المذيع الذي يتابع المباريات الألمانية بلغة عربية فصحى. هذا شيء لم أتعوده من قبل. كان عليّ أن آكل مما أكلت منه أمس. لم أتناول إفطاري حتى الآن. لماذا خرجت اليوم حقًّا؟ فقط لكي أرى البيت الموقوف فيه سيد الغريب كي أصطدم به في طريقي وأرى نظرته إليَّ وكأنها لغيري كالذي يتكلم ويتذكر في آن. لماذا حقًّا يفعلون به ذلك؟ لماذا لا يحاكمونه وينهون المسألة؟ لا يمكن أن تتأخر إجراءات المحكمة كل هذا الوقت. هنا في المحكمة قاض شيخ لا يحتاج إلا إلى شهود. لا محام ولا نيابة ولا مرافعة ولا عريضة اتهام. لا بد أن مسألة الغريب طواها النسيان. لو أن أحدًا ما، أي أحد، تولى جذب انتباه الإمارة لانتهت مسألة الغريب على أي نحو، لكن لا يفعل ذلك أحد حتى الآن. هل أفعله أنا؟!

وانشغلت بإعداد الطعام. أكلته ونمت وصحوت أسمع صوت طرقات بالباب.. سأفتح الباب فأجد امرأة تطلب شربة ماء وتتهافت ساقطة فأسندها فوق ذراعي وأحملها إلى غرفتي فلا تفيق من غشيتها إلا بالليل وبالليل لن تخرج وفي الصباح تكون قد أَلِفَت البقاء معي!

وهب هواء أرعش الباب الحديدي بالخارج وأخذت أدعك عينيّ وأنتبه إلى الطرقات على الباب فقمت وغادرت الحجرة. لم أندفع. ابتسمت ومشيت على مهل. لا يمكن أن تطرق الباب امرأة. وأمام الباب توقفت قليلًا. ماذا لو كان الطارق امرأة بحق؟ لن أسمح لها بالدخول. فتحت الباب فرأيته. رجل عجوز ممزق الثياب وعلى رأسه غترة قديمة وعقال حائل أسود ويمد لي يده. يا إلهي! شحاذ! هنا! في المملكة العربية السعودية! ويدق الأبواب أيضًا

بإصرار! «يسهل لك» قلت. لم يتحرك. إنه حافي القدمين أيضًا. لم يتكلم. غمغم بما لا أفهمه. لحيته الطويلة هي التي تحركت صاعدة هابطة. وظل مادًّا يده. عدت إلى الحجرة مسرعًا وأحضرت عشرة ريالات ناولته إياها فأخذها ومشى. في الردهة توقفت. ظلام واسع حولي. كان القمر يقترب فوقي من الاكتمال ويلقي على الدنيا بقليل من البهاء. لم أتناول غدائي ولست بجائع. وجبة واحدة تكفي اليوم. ورحت أنصت للدعاء الشجي بعد الأذان.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «من مات في الطريق جائيًا أو ذاهبًا، لقيه الله تعالى يوم القيامة ولم يحاسبه وأدخله الجنة». وقال: «من حج هذا البيت أو اعتمر فلم يرفث ولم يفسق كان كما ولدته أمه». وقال: «من حج وعليه دين قضى الله دينه». وقال سعيد بن المسيب: «كنت جالسًا عند القبر والمنبر فسمعت قائلًا ولم أر شخصًا: اللهمَّ إني أسألك عَملًا بارًّا، ورزقًا دارًّا، وعيْشًا قارًّا، اللهمّ لا تجعَل بيننا وبينَكَ أحدًا سواك، اللهمَّ إنْ كانَ رزقي في السّماء فأنزله، وإنْ كانَ في الأرض فيَسِّره، وإنْ كانَ قَليلًا فثمِّره، وإنْ كانَ يسيرًا فَكثِّره، أعُوذُ بالله من القنوع والخضوع والخنوع. اللهمَّ اجعَلني أفقرَ خلقك إليك، وأغناهُم بكَ، اللهمَّ اجعَل لي رزقًا واسعًا، واجعلني به قانعًا».

***

اختلف دعاء الليلة عن كل دعاء. ليس لوحدتي ولا لأني لم أحج. ذكّرني بأبي. كان كثير الدعاء بعد الصلاة. سبع سنوات مضت على موته الآن. ولولا قطعة أرض صغيرة كان يحتفظ بها، ما أكملت العامين الأخيرين لي في الجامعة. ترك ما يكفي إلى اليوم الذي أتابع فيه رسالته، وهو.. كأنه قد رسم لي كل شيء.. كيف لم أحتفظ بصورة واحدة لأبي، وكيف أني نسيت وجهه. قمت فجأة وتناولت من الدولاب كراسة أستخدمها في كتابة الرسائل وكتبت:

السيد/ ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية بالورديان بالإسكندرية.

بعد التحية:

أنا إسماعيل خضر موسى مدرس اللغة الإنجليزية في مدرستكم الغرّاء، سافرت إلى السعودية بجواز سفر تم استخراجه على أساس بطاقة شخصية مزَوّرة لم أثبت فيها وظيفتي مدرِّسًا حتى لا تمنعني الوزارة من

السفر، وعليكم أن تحتسبوا أيام انقطاعي إجازة بدون مرتب حتى أعود بعد عام..

ومزقت الورقة، وكتبت:

السيد/ ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية.

رجاء حفظ مكاني في العمل. سأعود بأسرع ما يمكن.

ومزقت الورقة وكتبت:

السيد/ ناظر المدرسة.

لن أعود ولن أبقى هنا. سأنفجر..

ومزقت الورقة أيضًا. وقفزت من فوق السرير وسط الغرفة. واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. واحد.. الذراعان للكتفين.. اثنان.. الذراعان جانبًا رفع. ثلاثة.. أسفل خفض، واحد. اثنان. ثلاثة. هذا الذباب اللعين بات معي في الغرفة رغم البرد وانكمش فوق سلك المصباحين. هل أطارده؟ سينتشر ولا يخرج.. هذه الروزنامة المعلقة بالحائط لا بد من تمزيقها. نوفمبر. بعد شهرين يبدأ عام جديد. وبعد اثني عشر شهرًا ينتهي. لن أضع روزنامة في الغرفة في العام القادم.. هذه وضعها فاروق. لقد جَهَّز لي الغرفة تجهيزًا كاملًا. أين فاروق الآن؟ لم يعد ولم يرسل رسالة فلأغلق التليفزيون وأفتح الراديو. إذاعة صوت مصر العروبة تحييكم من بغداد. بعد أيام تحل الذكرى المشئومة للزيارة الخيانية للرئيس المصري أنور السادات إلى القدس. اليوم بدأت دورة الخليج لكرة القدم بالوقوف دقيقة حدادًا لقرب هذه الواقعة الخيانية. ما أهنأ الرئيس المصري بالأفكار العربية. واحد اثنان ثلاثة وأقفز في الهواء. وفتحت باب الغرفة فانسكب مستطيل الضوء المنبعث منها على الردهة وامتد طويلًا على الأرض ورأيت البدر في السماء يوشك على الاكتمال. لقد رأيته منذ قليل حين دق الشحاذ الباب. لم يتحرك من مكانه كثيرًا. الوقت لا يمر. من الآن لن يمر بسرعة. لن أصل إلى اليوم الرابع للعيد إلا هالكًا.

أهلا بك أيها البدر. أيها الملك. هأنذا أقف في البرد أحييك. وحدي في هذا البيت الفارغ في هذا الحي الساكت في هذه البلدة النائمة في وسط الصحراء. هَلَّا نزلت وجلست معي قليلًا أيها الملك العظيم؟ لا امرأة تكلمني وأكلمها وأقول إن وجهها كالبدر، أو إني رأيتك على وجهها. هل تعرف من قال بأنك ملك؟ ابن المعتز، الشاعر الخليفة. كان رديء الاستعارة والتشبيه.

ما زلت أذكر. ربما لذلك قتله خصومه بعد أن خصوه. يا إلهي! إنه العروة بن حزام صاحب الأبيات التي سمعتها صباح أمس من المرأة الباكية. ذلك الذي شهق شهقة مات فيها. والذي لم يدركه ابن الخطاب فلم يجمع بينه وبين عفراء.. أيها البدر الملك أين ستنام في الصباح ومتى؟ أريد أيضًا أن أنام.

ودخلت الحجرة وأغلقت الباب ألتمس الدفء. واحد. اثنين. ثلاثة. ما هذا الصوت الصادر من المطبخ؟ خرفشة متتابعة وانقطاع قليل. إنه فأر. فأر يمرح. فأرك أدرك أن «سعيد» الذي تخصص في صيده في مكة الآن. بالضبط كما أدرك الكلب الأبيض الضخم خلو البلدة فنزلها ورأيته أمس. يا للفأر الذكي! وبالسعيد ومصيدته الجبارة! لا يستخدم مصيدة مألوفة. ابتدع طريقة وحشية مقززة. الفئران دائمًا تذهب إلى المطبخ. وضع لوحًا من الخشب تحت حوض المطبخ بحيث يصنع من الجدار زاوية حادة عند الركن. يطارد سعيد الفأر حتى يدخله في الزاوية الحادة ويضغط بقدمه على اللوح الخشبي فينفجر الفأر بين اللوح والجدار، ويحمله سعيد في ورقة يلقي به إلى الشارع من أعلى الباب. كل يوم يقتل فأرًا. منذ أسبوعين توقف.. اختفت الفئران وقال إنها أحست بقدوم الشتاء فلم تعد تخرج من جحورها. هذا الفأر كان يتلكأ في مكان ما فلم يذهب إلى جحره. سأتركه حتى يرحل وحده ولأغلق الراديو وأشعل التليفزيون الآن. طرقات خفيفة فوق الباب الحديدي للبيت.. إنني أسمعها جيدًا. لا يمكن أن يكون شحاذًا آخر. لقد أُذِّنَ لصلاة العشاء وها هو ذا المذيع يتلو حديثًا نبويًّا. من يأتي في هذا الوقت؟ من يعرفني هنا لم يحج؟

- منصور!

هتفت بعد أن فتحت الباب. كان يبتسم وأنا لا أستطيع أن أبعد عينيّ عن خصيتي القرد الزرقاوين فوق كتفه.

***

10

احترقت وجوه الباكستانيين، وصاروا أكثر حركة ومرحًا بعد عودتهم من الحج. سألت أرشد الذي دخل مكتبي ووقف لا يتكلم:

- هل كان الجو حارًّا إلى هذا الحد؟

- كان بردًا مستر إسماعيل. نمنا في العراء وسافرنا في عربة مكشوفة.

وعاد إلى ذهوله. كانت الساعة حوالي السابعة والنصف. قال في ضيق:

- ما حكاية مستر عابد معنا مستر إسماعيل؟

- هل حدث شيء جديد؟

- أمس مساء بعد عودتنا تحدثنا في ميزانية الكامب هذا الأسبوع، لقد عاد من الحج أكثر بخلًا.

- معذرة أرشد. أنت تعرف أني لا أستطيع التدخل بينكما..

- أعرف مستر إسماعيل لكن.. لا بد أن يساعدنا أحد. هل أتحدث مع مستر عبدالله؟

- لا.

نظر إليّ طويلًا، ثم انصرف دون تعليق. لقد أدركت فجأة أن عابدًا لا يفعل إلا ما يُرضي عم عبدالله. لكني بعد انصراف أرشد فكرت: هل جاء حقًّا ليقول ذلك؟ لا بد أنه كان يود الحديث معي في شيء آخر. عاد أرشد إذن إلى تردده معي في الكلام.

***

حين دخل نبيل يحمل القهوة كان يبتسم ابتسامة كبيرة. وضع الفنجان أمامي وقال:

- لم أرك في العيد.

- كيف تراني وأنت في الحج؟

- أنا لم أحج!

اتسعت عيناي وابتسمت، لا بد أنه يمزح. قال:

- عدت من منتصف الطريق.. من ثلثي الطريق حقيقة. من الأشياء التي ضايقتني في العيد أني لا أعرف بيتك. لو كنت أعرفه كنت زرتك وأمضيت الوقت معك. مر الوقت كئيبًا عليّ وحدي هنا. نزلت إلى البلد أكثر من مرة، ورحت أمشي في شوارعها علّني أصطدم بك في طريقي. خانني الحظ.. لم أجد إلا كلبًا شاردًا.

- هل صحيح أنك لم تحج؟

ضحك وأقسم أنه لم يحج فعلًا ثم حاول أن يكتم ضحكاته وقال:

- شُف يا سيدي. وصلنا إلى «بيار عَلي» أنا وعابد. بيار علي قرب مكة. ومنها يبدأ الإحرام. إنها ليست مدينة ولا قرية. نقطة على الطريق بها ماء وجامع صغير. هناك التقينا بجماعة من المصريين كانوا يستقلون أوتوبيسًا كبيرًا.. كان علينا جميعًا أن نبيت الليلة هناك.. وكان بينهم شاب مجنون لا تعرف. عاقل لا تعرف، مصيبة والسلام. كان هو الإمام الذي يصلي بهم ويخطب فيهم ويحدثهم عن المناسك. طبعًا انضممت أنا وعابد إليهم نستمع إلى صاحبنا الذي راح يحدثنا عن الواجبات بعد الإحرام. لا تقطع شجرة ولا زرعًا ولا تحلق ذقنك ولا تقص أظافرك، طبعًا لا فسق ولا رفث ولا قتل لأي حيوان ولو قملة. حتى لو خرج عليك أسد لا تقتله إلا إذا هاجمك، هكذا قال. طبعًا معه الحق لأنه لو خرج عليّ أسد فلن أقتله. سيقتلني (وضحكنا بشدة. وعاد نبيل يتحدث) بالليل رأيت ذئبًا.. ذئبًا حقيقيًّا يقف قريبًا منا. كانت النساء نائمات في الأتوبيس والرجال نائمين على الأرض. أنا وحدي كنت سهران. ليتني كنت نائمًا. خفت وانتظرت أن ينصرف الذئب فلم ينصرف.

- طبعًا هاجمت الذئب؟

قاطعته ساخرًا وضاحكًا. سَكَتَ قليلًا وقال:

- أنت لن تصدق لكن عابدًا يمكن أن يؤكد كلامي.. تبوك كلها تعرف القصة. كيف لم تصل إليك؟

سكتُّ. الحقيقة لم يتحدث أحد أمامي بشيء كهذا، تحدث سعيد ووجيه عن أشياء كثيرة طريفة وشاقة حدثت في الرحلة إلا حكاية الذئب هذه. واستطرد نبيل:

- أمسكت بحجر وقذفت به الذئب. أنا في ذراعي «عِرْقُ الصبا». كنت في مصر أقذف الحجر من «الكيت كات» يعبر النيل ويصل الزمالك. ما علينا.. أصاب الحجر رأس الذئب فعوى وجرى. لو لم يعو لما تنبه أحد. استيقظ الرجال واستيقظتْ بعض النساء واستيقظ صاحبنا الإمام وسألني هل سمعت صوت الذئب فحكيت له القصة. غبي أنا لأني فعلت ذلك. تقدم صاحبنا إلى قطعة الحجر التي أشرت له على مكانها فوجد فيها آثار دم فقال لي إن إحرامي فسد وعليّ أن أحرم من جديد. كيف؟ تفك الإحرام وتنوي وتحرم من جديد. هل هناك أعجب من ذلك؟ أنا مُحرم وعليّ أن أفك الإحرام من جديد! قال لي إنها مسألة سهلة. كل الناس قالوا ذلك أيضًا. في الصباح الباكر أخذوا طريقهم إلى مكة، وأنا وجدت تريللا قادمة من جدة تحمل سيارات إلى تبوك فركبتها. هل تصدق أني وأنا أضع قدمي فيها أحسست بخطئي وكدت أعود وأنفِّذُ ما قيل لي، لكني قلت إن هذه التريللا جاءت في الوقت الذي أراده الله لي. ربما أراد الله أن ينجيني من شيء خطير كان سيحدث لي في الحج. من يدري؟!

أطلت النظر إلى عينيه. لم يكُف طوال الكلام عن الابتسام. قال:

- أنا أعرف أنك لن تصدقني أبدًا. تمامًا كما لم يصدقني صاحبنا حين قلت له إن الذئب كان سيهاجمني. قال كان عليّ أن أنتظر حتى يفعل ذلك، قبل ذلك ربما كان يمشي هائمًا لا يشعر بوجودي، كأنه كان من الممكن أن أقاوم إذا انتظرت وهاجمني!

قلت:

- إذن أنت لم تحج لأمك؟

وقف وقال:

- هي مَرَة لا تستحق.

وانصرف وتركني أضحك بقوة لم ينهها غير دخول سيارة عم عبدالله مسرعة في الباحة تثير زوبعة من التراب.

***

دخل عابد إلى غرفتي مضطربًا وقال:

- خذ ملف آرون بونكرد واذهب به إلى عم عبدالله.

وجلس خلف المكتب المجاور للخزنة. قمت أنا وتناولت ملف آرون من الدولاب.

سألته:

- ما الحكاية؟

- عم عبدالله سيخبرك..

دخلت غرفة عم عبدالله فوجدته قد استلقى على الفوتيل الطويل وقد خلع العقال والغترة وبدأ النعاس يغالبه. لا بد أنه لم ينم الليلة الماضية، ورأيت صلعته لأول مرة. لم يكن في رأسه إلا قليل من الشعر فوق أذنيه. نظر إليّ دون أن يغير من وضعه وقال:

- سوِّ ترمنيش لآرون. غدًا باكر يكون في تايلاند.

ارتبكتُ. لماذا هذا الفصل المفاجئ لآرون؟

- لماذا لا تتحرك؟ إنْهِ الإجراءات ثم أحضر الملف عندي.

ضاع الكلام مني، واستطرد هو:

- أعرف أن آرون مدين للشركة بثلاثة أشهر من راتبه، وأعرف أنك وافقت له على القرض، رُحْ من أمامي.

كانت هذه أول مرة يتحدث فيها بغضب إليّ. أنا الحقيقة لم أوافق لآرون على شيء. لقد توسطت فقط عند عابد.. فعلها عابد إذن وكذب. هذا أول

اللعب القبيح. لكن هل أستطيع أن أقول لعم عبدالله شيئًا؟! إنه مدير جاد غير مستعد لتضييع وقته في معرفة الحقائق، وإن أول ما يسمعه هو الحقيقة دائمًا..

***

دخلت غرفتي. نظر إليّ عابد مبتسمًا بوجه جامد. بدا مستعدًّا للرد على أي كلام أقوله فلم أتكلم. خرج إلى غرفته وجلست أنهي إجراءات فصل آرون. كانت هناك استمارة يجب أن أملأها حتى إذا جاء وقَّعَها، وكان عليّ الاتصال بالجوازات لإرسال «المُعقِّب» الذي سيأخذ الجواز ويضع عليه تأشيرة الخروج بلا عودة، والذي سيحجز تذكرة السفر.

جلست أفعل ذلك. فجأة رأيت منصور يدخل بسيارته الكابريس الفارهة وجواره آرون.

***

- سويت له ترمينيشن؟

سألني منصور وهو يدخل إلى الغرفة وخلفه آرون. كدت أضحك من قوله «ترمينيشن». عم عبدالله يعرف الإنجليزية جيدًا من عمله السابق في الدمام، كيف إذن يعرفها منصور؟ ربما لأنها مصطلحات تتردد كثيرًا أمامه. قلت وأنا مندهش من عدم وجود القرد معه.

- أسويه الآن.

كان هو قد جلس إلى المكتب المجاور للخزانة. وجلس آرون على أحد المقاعد الجلدية، فصرخ فيه منصور:

- لا تجلس.

قالها بالعربية وفهمها آرون ربما من إشارة يد منصور، فتجهم وجهه، ثم وقف يبتسم لي في ارتباك شديد، وسألني منصور:

- لماذا تأخرت؟

حملقت فيه للحظات ولم أرد.

- هيا. بسرعة..

هتف وقام تاركًا المكتب وخرج، فلم يعطني فرصة لأنفجر فيه. أشرت لآرون أن يجلس وسألته:

- ماذا حدث؟

- ضبطوا عندي خمرًا.

هذه ثاني مرة يتحدث فيها عن الخمر.

- هل كنت تصنع الخمر بحق؟

- أجل مستر إسماعيل.. مستر عبدالله يعرف. إنني أعطيه منها.

ارتبكتُ للحظة، واستمر هو يتحدث:

- كان كل شيء يمضي بهدوء. في إجازة العيد كنت تقريبًا وحدي في الكامب، قمت بتحضير كمية كبيرة. كان مستر عبدالله في عَمّان. لقد حضر أمس فقط، أول أمس عاد الباكستانيون. إنهم جميعًا يعرفون، لكن واحدًا منهم طلب ألّا أفعل ذلك مرة أخرى. قال إنه بعد الحج لن يسمح بوجود خمر في الكامب. لم أهتم. أبلغ الشرطة. إنه غبي.

- للأسف يا آرون لن تعود للمملكة مرة أخرى.

- أعرف مستر إسماعيل. سأذهب إلى إيران. لقد عملت هناك منذ سنوات.

- لكن في إيران مظاهرات ضخمة الآن. انفجارات، والشاه يضرب الناس بالطائرات.

ابتسم وقال:

- أعرف مستر إسماعيل.

لا جدوى من الكلام. سوف يُرحَّل آرون وأنساه كما سينساني. قدمت له نموذج إنهاء الخدمة ليوقع عليه وقلت:

- سأرسل لك الجواز والتذكرة في الكامب. سأحجز لك بعد يومين لتدبر نفسك.

- أشكرك مستر إسماعيل. هل هناك مشكلة بخصوص القرض؟

- لا.

- أشكرك مستر إسماعيل. إنني لن أنساك أبدًا. أنت مصري طيب.

ابتسمت وقلت:

- المهم أن تشتري بيتًا في بانكوك.

وقف وقال:

- سأشتريه مستر إسماعيل.. سأشتريه. لابد.

ووقفت أصافحه فشد على يدي وخرج مسرعًا يهرول. بدا لي من قِصره كحجر يتدحرج!

***

- سأعود معك اليوم.

فاجأني منصور الذي عاد إلى مكتبي بعد انصراف آرون.

- رأيتك تدخل بسيارتك الكابريس فماذا حدث؟

- تَعَطَّلَتْ.

تأملته بحدة بعد أن جلس إلى المكتب المجاور للخزانة وقلت:

- اسمع يا منصور. لقد طلبت مني شيئًا ووعدت أن أجيبك في الوقت المناسب، فلا تطاردني.

سكت قليلًا. وقال:

- أخشى أن تخذلني.. إنه أمر بسيط جدًّا لا يحتاج إلى كل هذا الانتظار.

***

حين حضر منصور إلى بيتي ثاني أيام العيد فاجأني بأنه يريد أن يعرف متى سيتزوج سعيد من خطيبته وداد. أدهشني أنه يعرف سعيدًا وخطيبته. وكنت أنظر إليه وهو يجلس مؤدبًا خجولًا في الغرفة وأرى الكحل في عينيه. عرفت بعد ذلك أن الرجال هنا غالبًا يتكحلون في الأعياد سُنَّة عن الرسول. كان شكله غريبًا جدًّا وكانت هذه أول مرة أرى رجلًا يتكحل، وقال وأنا لا أستطيع إبعاد عينيّ عن عينيه:

- حتى لا ترتبك أخي إسماعيل أقول لك إني أعرف وداد منذ ثلاثة أعوام، إنها مُدَرِّسَة في المدرسة المتوسطة وأختي تلميذة عندها. كانت تأتي إلى المحل ومعها أمها لتشتري القماش. إننا نملك محلًّا كبيرًا في الشارع العام، لقد فكرت أن أتزوجها، ذهبت أنا وأبي وأمي كما تفعلون في مصر إلى بيتها وخطبناها لكن أمها رفضت. قالت إنها مخطوبة. ولم تكن مخطوبة أخي إسماعيل. رفضت أمها بشدة ورفضت مائة ألف الريال مهرًا. رفضتني أخي إسماعيل وأنا أعرف أن السعوديين ينزلون مصر في كل وقت يتزوجون. لقد خُطِبَتْ لسعيد بعد ذلك وصدمتني صدمة كبيرة..

كان وهو يتكلم، يبدو محزونًا بحق، ولم أعرف كيف أهون عليه، أعددت له شايًا ثلاث مرات وفي كل مرة يشربه وبدا أنه لن يترك البيت. كل ذلك والقرد فوق كتفه ينظر إليَّ. قلت:

- ربما كانت علاقتها بسعيد قديمة.

- لا.

- كيف تعرف؟

- أنا أعرف.

- إذَنْ..

ولم يدعني أكمل. قال:

- لقد فَضَّلَتْ عليّ المصري. السعوديون أخي إسماعيل يتزوجون من مصر كل يوم بسهولة.

ضايقني هذه المرة. كيف أشرح له؟ لا زيجة مما يحدث حقيقية. المسألة لا تزيد على غرام سعودي باللحم المصري، أو فقر عند المصريين الذين لا يغالون في المهور كما هو الحال في المملكة.

- وما دخلي أنا في هذه المشكلة؟

- أنت تعيش مع سعيد. أريد أن أعرف منك موعد زواجهما.

تذكرت نظرته الغاضبة إليَّ يوم رآنا في البنك، ومعاملته الخشنة غالبًا معي. ماذا يفيده أن يعرف موعد زواجهما حقًّا؟.. راودني شيء من الخوف. شخص مثل منصور يبدو شديد التعقيد. قلت:

- أنا رغم عيشي مع سعيد لا أتحدث معه في أي شأن خاص.

- تكلم واعرف.

قال بحسم ووقف لينصرف. لم أنم تلك الليلة إلا عند الصباح. ساعدني ذلك حقًّا أن أنام نهار اليوم الثالث للعيد، أن أقفز يومًا من أيام الصمت، إلا أني حين جاء سعيد في اليوم الرابع، لم أستطع أن أمنع نفسي من التطلع إلى وجهه بين حين وآخر. وخشيت أن يفطن سعيد إلى تطلعي إليه، ويسألني عن هذه الحالة المفاجئة، إلا أن سعيدًا لم يفطن لشيء، وأنا استطعت بعد يومين أن أكف عن ذلك.. الآن يأتي منصور طالبًا إجابة سريعة عن سؤاله. إذن لا بد أن أكذب. قلت:

- لو قلت لك متى يكون زواجهما هل تقول لي ماذا يفيدك؟

- لن يفيدني شيئًا. أنا فقط أريد أن أعرف. مجرد معرفة لا أكثر ولا أقل.

- بعد عامين يا منصور..

ورأيته ينظر إليّ بسعادة مفاجئة.

- أصادق أنت أخي إسماعيل؟

- صادق جدًّا..

- حياك الله يا طويل العمر.

وقام يصافحني ضاحكًا فرحان كطفل وجد لعبته الضائعة وقال:

- الكابريس ليست معطلة. لن أعود معك.

***

كيف انكسرت سيارتك؟

سألت منذر الذي جاء ليلحق بي قبل أن أغادر الباحة بسيارتي.

- سيارة ملعونة موديل 1971. سَقَطتُ بها في حفرة. سحبها الونش ورميتها عند أرشد.

قال ذلك وهو يصعد السيارة وبعد أن جلس استطرد:

- طول النهار تعالى يا منذر. رح يا منذر. كهرباء يا منذر. ميكانيكا يا منذر. مياه مقطوعة عن الجيش يا منذر. أسمنت ناقص يا منذر. طيب يعطونني سيارة قوية. باكر سأحصِّل واحدة جديدة، العمل بلا منذر يتوقف ومنذر لا يعمل بلا سيارة.

رحت أضحك وأراقب الطريق وأستمتع بالهواء البارد قليلًا، الداخل إليَّ من نافذة السيارة المفتوحة. فجأة تذكرت أني لم أر اليمني العجوز اليوم. هل حقًّا لم أره أم لم أنظر ناحيته؟ لا بد أني لم أنظر ناحيته. أربكني منصور إرباكًا شديدًا.

- ما رأيك في منصور يا منذر؟

سألته ولم أرتب للسؤال.

- منصور! قلت لك من قبل إنه مخبَّل. مجنون.

- أعرف. لكن ماذا تقصد بالضبط؟

ضحك ضحكة طويلة وقال:

- تريد القصة كلها؟

- كلها.

- اسمع.. منصور من عائلة كبيرة لديها تجارة واسعة في الشارع العام. ترك تجارة أبيه وجاء يعمل سائقًا عند عبدالله، أليس هذا جنونًا؟

- لكن عبدالله لا يستخدمه كثيرًا.

- عبدالله يعرف عائلته.

- أهذا كل شيء؟

- منصور مجنون بمدرِّسة مصرية يريد أن يتزوجها. مجنون بالمصريات. ليست هذه أول مصرية ترفضه.

- هذا غريب حقًّا.

عاد يضحك ضحكة طويلة وقال:

- أنت تعرف كل شيء يا أخ إسماعيل. تريد فقط أن تستوثق.

قلت محوّلًا الموضوع:

- إلى أين وصلت مع جارتك الحسناء؟

- الله يستر عليك لا تذكِّرني، صارت صديقة لزوجتي. زوجتي صغيرة بلهاء.

ضحكت واستمر هو يتحدث:

- أراها يا أستاذ فكأني رأيت الحرب.

-لا بد أنها جميلة بحق.

- أقول لك حرب يا أستاذ. كمين منصوب لمنذر.

وفجأة كشف لي صدره:

- انظر ضاع ثديي الأيمن من حريق قذيفة مَرَّت من أمامي، وانظر هذا الهور في ربلة ساقي.. وهذه ذراعي بها عشر غرز.

واستمر يكشف لي أماكن كثيرة مصابة من جسده، وأنا لا أستطيع أن أتابع إلا قليلًا فعيناي على الطريق.

- أنا من عائلة فداوية يا أخ إسماعيل.

لم أدرِ بما أعلق. صمتنا قليلًا ثم قال:

- اعذرني إن كنت أزعجتك. أنا لا أعرف بالضبط ما أفعَل. المرة السابقة لم أكن طيبًا معك، لكني والله أحب المصريين جدًّا، أنا فقط أكره السادات. هل تلومني؟

كان صوته يتهدج بما يشبه البكاء وهو يتكلم. وجدت نفسي أقول:

- وأنا مثلك أكرهه يا منذر.

- الله يستر عليك يا أستاذ.

وأشعل سيجارة لي ولنفسه، ثم قال بصوت خفيض:

- لا تخبر أحدًا بما رأيت من جسمي. يعرفون أني كنت فدائيًّا فيرحلونني يا أستاذ.

- معقول؟!

- جدًّا.

- يعيدونك إلى الأردن؟!

- هل تظن إلى فلسطين؟!!

***

11

لا تلوميني يا واضحة، لقد تملكني شعور الناجي من النار...

***

في طريقي إلى بيت واضحة فكرت بأن أمضي معها اليوم أطول وقت ممكن لكني رأيته.. البيت الجميل ذا الحديقة ذات النخيل وشجر الليمون، على بابه جندي شرس، وفي شرفته جلس سيد الغريب ملتفًّا ببطانية. رأى سيارتي ورآني فوقف ولم أقف. ضاقت نفسي رغم اتساع الدنيا حولي. لا أحد يستطيع إبلاغ الأمير بأن «الشيخ» نَسي محاكمة الطبيب المصري. لم يسجنه ولم يطلق سراحه. تركه ليجف مع الوقت المترهل. قلت لوجيه: «لا يمكن أن تنسى المحكمة قضية كهذه، الأمر مقصود.. ». قال: «كل الناس تعرف أنه نسيان. هذا ممكن جدًّا» فكرت أن أذهب للإمارة وأطلب مقابلة الأمير، وفطنت فجأة إلى أنه قد مضى عام والغريب «موقوف» ولم يفكر في ذلك أحد، وأصابني ضجر شديد فلم أذهب.

رأيت البيت اليوم وقررت أن أهرب من الدرس، وربما أهرب أيضًا من الدرس الجديد لابن صاحب البيت الذي نسكنه، صالح سنيور الثقيفي الذي حين قابلني به وجيه لم أصدق أنه تلميذ. قال وجيه إن التدريس لصالح قد يفتح لي الباب للتدريس لغيره، فيعينني ذلك على كسب أكثر ما يمكن في زمن قليل، ووافقت.. واليوم موعدنا لنبدأ، ولكن بعد أن أنتهي من الدرس لواضحة التي أمسك بنفسي أكثر من مرة متلبسًا بانتظار موعد الذهاب إليها.

عليَّ اليوم أن أشرح لها درسًا عن هيلين كيلر.. عن الإرادة الإنسانية. واليوم أشعر بالخوف أكثر من كل وقت. أفكر كيف كان يخامرني شعور منذ رأيتها فوق عربة الشرطة بأني سألقاها، وكيف أني سأكون خاتمة القصة أخاف عليها مني وأخاف منها عليّ. أنا رجل أغلقت شطآن البحيرة من زمان، فكيف أسافر كل هذه الأميال لألقي فيها بالحصى؟ واحد فينا مقتول، لا أريد أن أموت ولا أن يكون لي في كل بلد خطيئة.. هل أقول لواضحة ذلك؟ هل

تفهمه؟ هل يفيد؟ لتستمر قصتنا إذن إلى غايتها المرسومة، لكني رأيت البيت الجميل والدكتور الغريب فحاصرني الضجر وفكرت أن أعود.

***

استقبلتني واضحة، فتحت لي الباب الخارجي وأفسحت الطريق، فدخلت منكس الرأس إلى الغرفة الواسعة، وقلبي يتدحرج أمام قدميّ، خيل لي أني أزورها بالليل ولا أحد في الدنيا غيرنا، لكنني ظللتُ خافضًا رأسي لا أرى وجهها السافر، ولا شعرها الذي يدعوني لأخبئ رأسي فيه.

صغيرة واضحة كالعصفور، وتحتل من الفضاء كثيرًا، ولكن لا بد أن أرفع وجهي إليها.

- أين الواجب؟

قلت حاسمًا فقدمتْ لي الكراسة بيد مرتعشة. لا بد أن وجهي تجهم، ولم أشأ النظر إلى وجهها الذي لا بد ظلّلته خيبة الرجاء. لم تعرف أني غضضت البصر حتى لا أتخاذل أمام دعوة شفتيها المرتعشتين.

- أستاذ. هل من الضروري أن يُكْتَب الاسم قبل العنوان؟

- لا أظن أن ساعي البريد يعيد رسالة كتب فيها العنوان قبل الاسم، لكن هكذا تقتضي تقاليد كتابة الرسائل بلغة أجنبية.

- لا أعرف لماذا أفكر لو تصل الرسائل دون كتابة الأسماء؟

- يمكن طبعا لو كتبت رقم صندوق البريد.

لم أفهم إلا متأخرًا ماذا تقصد. رأيتها تتجهم. خيبة رجاء أخرى، أدركتُ مقدار غبائي، ومقدار عنادها.. ونظرت إلى الباب المفتوح فرأيته، الشيخ الهرم فوق العربة المتحركة.

- جَدّي.

هتفت وقامت بسرعة إليه. مَنْ الذي دفع به إلى الباب وتركه هكذا دون كلام؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أنظر وأراه؟

ودَخَلَتْ به تدفعه أمامها، وأنا أتأمل كم هو ضئيل لا يزيد حجمه على حجم طفل، لولا أن بشرته سوداء مليئة بالغضون، ورأيت يديه مرتخيتين فوق البطانية التي تغطي ساقيه، وجلد عظامهما يشف عن عظام بيضاء، وعروق زرقاء قاتمة منتفخة.

- هذا جَدّي المصري. خالد حدثك عنه، أراد أن يراك.

قالت ذلك وهي تتركه بعيدًا جوار الحائط، وأنا أجاهد أن أعرف لون عينيه اللتين يطلّ بهما عليّ وأطل بعيني عليهما. بيضاوان أم خضراوان اضمحل لونهما؟ لا أستطيع التحديد. صغيرتان مدفونتان. هذا ما يبدو مؤكدًا.

- هذا هو الأستاذ المصري.

هتفت واضحة لجدها، ورأيته يبتسم. أول مرة أرى شيخًا هرمًا يبتسم، مبهج كطفل وليد. وهَمَستْ لي:

- تكلم فجدي أعمى.

لم أتكلم. قمت واتجهت إليه. أمسكت بيده أرفعها أصافحها وتركتها فسقطت على حجرِه.

كيف إذن أعود إلى الدرس؟ بدأته بالغباء الذي سبقه في الطريق ضجر من أجل ذلك الذي يسجنه الجبن والنسيان، وأنهاه حضور هذا الجد. من الذي دفع به إلى الباب حقًّا، لماذا لا أرى في هذا البيت أحدًا غير خالد وواضحة؟

- هل ضايقتك اليوم؟

- لا.

- إذن لماذا تريد الانصراف؟

- سأعوّض لك الدرس الحصة القادمة.

رأيتها تكاد تبكي، وظللت مندفعًا في قسوتي. لا تعلم أني وددت أن أدور حول المكتب وآخذها في صدري.

- هل خطيبتك ليست بخير؟

للمرة الثانية تذكر خطيبتي. ما حاجتنا إلى كل هذه الغباوة اليوم؟

- كما ترين. أنا لا خاطب ولا متزوج.

قلَّبت يديّ أمامها وانصرفت مسرعًا. كنت أعرف أنها تبكي في صمت خلفي، لكن ماذا أفعل؟ تملكني شعور الناجي من النار. لا بد أيضًا أن أجد طريقًا آخر لا يمر بالبيت الذي يحوطه النخيل والليمون والنسيان.

***

- يا هلا يا أستاذ.

هتف صالح وهو يستقبلني بحفاوة. بيت صالح لا يختلف عن بيت واضحة. بناء من دورين حوله ردهة تدور معه بلا أشجار.

قادني إلى قاعة طويلة مفروشة بالموكيت الأخضر، وتتوزع على جوانبها الحشايا بإهمال، لا مكتب هنا ولا مقاعد. جهاز تليفزيون كبير يتصدر القاعة، وتحته على الحامل الزجاجي جهاز فيديو، وجوارهما منضدة صغيرة فوقها مجموعة من شرائط الفيديو، بالمقابل، في الناحية الأخرى من القاعة، يجلس أربعة شبان لم يتجاوزوا العشرين مثل صالح، وقفوا بمجرد دخولي، وصافحوني مبتسمين، وجلسوا من جديد ينظرون بعضهم إلى بعض، ويضحكون بلا صوت.

- أصحابي. لا داعي لمعرفتهم.

قال صالح مبتسمًا وأنا بعد لم أجلس. ابتسمت لهم فضحكوا وصفقوا في وقت واحد كأطفال.

- لا تندهش يا أستاذ. يأتون هنا يأكلون ويشربون ويشاهدون الأفلام.

أدركت أن الجو لا يوحي بإمكانية التدريس فجلست صامتًا.

فوجئت به يسألني:

- تبغي ترى فيلمًا يا أستاذ؟

- أجل..

صفقوا من جديد. وأنا لا أعرف كيف وافقت هكذا، لكني وددت لو شربت خمرًا أيضًا.

قام واحد منهم وأحضر عددًا من الأفلام، وخرج صالح ليعد لنا الشاي بنفسه.. هكذا قال:

- فَسِّر لنا عناوين الأفلام يا أستاذ.

قال الذي يحملها وهو يقدمها لي. وقال آخر:

- الأستاذ يترجم لنا.

ضحكوا وصفقوا طربًا. وضعت الأفلام أمامي فوق الأرض. والتفوا هم حولي، وتناولتها واحدًا فواحدًا.

- هذا «راعي بقر منتصف الليل».

- هذا نعرفه.

- هذا «كلاب من قش».

- هذا ممتاز لكن رأيناه كثيرًا.

- هذا «موت في فينسيا».

- ها. هذا فيه الصبي الصغير!

- وهذا «الخادم».

ضحكوا.

- هذا فيه الرجل الذي يتبول..

سَكَتُّ للحظات. رأوا معظم الأفلام فلماذا يريدون أن أترجمها لهم؟ رأيت أيضًا هذه الأفلام في سينمات الإسكندرية، ورأيت «الخادم» منذ حوالي عشر سنوات ولا أذكر ما إذا كان فيه شخص يتبول أم لا. كنت أحب ديرك

بوجارد. أرى في وجهه دائمًا مسحة حزن عميق، وكنت قد قرأت عن هارولد بينتر بوصفه أحد كتّاب المسرح الطليعيين في إنجلترا، ورأيت اسمه في الأفيش كاتبًا للفيلم. يا إلهي! كان هذا أيام كنت أقرأ. مضى وقت طويل على ذلك حقًّا.

قام واحد آخر وأحضر بقية الأفلام ووضعها أمامي فوق الأرض.

- هذا «موبي ديك»..

- هذا عن الحوت.. لا نبغاه..

وأدوا فرحتي بالفيلم الذي لم أشاهده وكنت أحب لو رأيته. لم أقرأ رواية «موبي ديك» أبدًا وإن كنت قرأت عن تعاسة هرمان ميلفيل.. أحببت دائمًا أن أقرأها ولم أقابلها في مكتبة. ليكن. ما معنى أن أثير في نفسي «كوامن الشجن»؟ ما القراءة التي سقطت بين قدمي وخلّفْتُها ورائي في زحمة الأعباء التي قدرها لي أبي أحسن تقدير؟ وما الكتابة لو كنت كتبت؟ لا معنى لأي شيء نسيته. لا يضيع منك حقًّا إلا ما ليس لك رغبة فيه.

- هذا «قصة حب»

- هذا فاشل!!

- طيب. هذا «العودة إلى الوطن».

أمسكه أحدهم من يدي، وفتح عينيه بأقصى اتساع، وقال:

- نبغي هذا. هذا فيه رجل مشلول يلحس.

ضحكوا وزجره أحدهم:

- إيش نبغي هذا!! انتظر حتى يفسر لنا الأستاذ بقية الأفلام.

فوجئت بالأول ينكمش ويسكت. يعقد ذراعيه أمام صدره ويربع قدميه كتلميذ صغير في كُتّاب. لاحظت أن جلبابه متسخ، وقدميه كبيرتان بهما بثور صغيرة دقيقة لها رءوس بيضاء. ورأيته يحملق فيّ بعينين واسعتين يزيد من اتساعهما شحوبه وضآلة وجهه. أحسست بسخافة الأمر كله. لو دخل صالح وأنقذني. ودخل صالح يحمل فيلمين ويقول:

- هذا «الرسالة» يا أستاذ تبغي تراه؟ إنه ممنوع في البلاد العربية.

وفي اللحظة التي كدت فيها أوافق رغم الجهامة التي بدت على وجوههم استطرد صالح:

- لا تؤاخذني يا أستاذ. نرى «الرسالة» فيما بعد. غالب يريد أن يرى هذا الفيلم. لا أستطيع أن أرد طلبًا لغالب.

كان يشير إلى الشاب ذي البثور في قدميه، فصفقوا كلهم وضحكوا، وقفز غالب وأمسك بالفيلم من صالح، ووضعه في جهاز الفيديو، وضبط التليفزيون ثم جلس، وبالريموت كونترول أدار الفيديو.

خرج صالح من جديد، ولم يعطني فرصة الانصراف، وأنا لم أطلب ذلك. لم يعد بالشاي إلا في منتصف الفيلم. وضع الصينية الكبيرة الفضية وعليها إبريق الشاي والكاسات أمامنا على الأرض. لم نشرب ولا فكر واحد فينا أن يملأ الكاسات الصغيرة.

لقد بدأ الفيلم بموسيقى ناعمة، ثم ظهرت بقع من الألوان خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء، وصارت تتشكل في خطوط طائرة، وتتقاطع وتتقابل في إيقاعات شاعرية، موحية بأجساد معذبة تتقابل بعد طول عناء. ثم خَفّت الموسيقى شيئًا فشيئًا، وتلاشت الألوان، وظهرت ساقا رجل مضمومتان تدخلان الكادر على مهل من جهة اليسار وفَهِمْتُ الأمر كله. لا بأس. نسيت إحساسي بسوء المعاملة وغباوة الاستقبال. وظهر عمود الرجل منتصبًا ضخمًا ثابتًا لا يهتز، ومن بعيد أقبلت المرأة عارية تتضح ملامحها كلما ازدادت قربًا، ووقفت أمام عمود الرجل، ونظرت إلينا وضحكت ضحكة فاجرة، وانحنت تضع فمها حول العمود.

هل أكذب فأقول إني لم أكن بحاجة إلى رؤية ذلك اليوم على الأقل؟ أنا لم أشعر بأي خطأ أخلاقي. في النهاية أنا تارك هذه البلاد، ولا يهمني ما يقوله صالح عن المدرس الذي لم يطلب تهيئة الجو للتدريس، وراح يتفرج على أفلام ممنوعة. الذي حيرني طول الفيلم، أن غالب كان دائمًا فاتحًا فمه في دهشة، ويبدو أنه لا ينوي وقف حركة الفيلم بالريموت الذي رفض أن يتنازل عنه لأحد. كان يوقف الفيلم كلما ظهر عضو امرأة. لا أكذب أيضًا إذا قلت إنه سبّب لي كثيرًا من التقزز، لكني انتظرت إلى النهاية. لثلاث ساعات كاملة لم يتفوه أحدنا بكلمة. لم أترجم لهم شيئًا ولا هم طلبوا.

***

لا أعرف في أي لحظة من الفيلم انسلخت ورأيت وادي النيل من الشلال إلى البحر الأبيض. ديوك تؤذن وشمس تسطع على الشريط الأخضر الضيق في الجنوب فتتفتح أزهار الفول البيضاء بطول النيل، وشمس تسطع على الجبال فيصحو رجال ناموا جوار البنادق ويقفون كأنهم رايات، وشمس تسقط على المعابد القديمة فيضحك وجه رمسيس في أقصى الجنوب وتنطلق الكباش من طريق معبد الأقصر تثغو وتجري تتناطح بعد قيد طويل، وشمس تسطع فوق الدلتا فتخور الأبقار ويصحو الأطفال يسحبونها حفاة إلى المزارع الخضراء، ورجال قاموا يغتسلون في رضا ويصلون ثم يمشون والفئوس على أكتافهم أو يركبون الحمير، وشمس تسطع فوق القاهرة فيخرج الرجال والطلاب على رءوسهم طرابيش حمراء يصيحون في الشوارع ويعطلون المصالح ويطلق البوليس عليهم الرصاص، وفي شرفة عالية يقف المندوب السامي البريطاني يتفرج والبايب لا يفارق شفتيه، ثم شمس تسقط فوق الإسكندرية حانية ويصعد هواء البحر إلى البر محملًا برائحة اليود ورذاذ خفي يبحث عن ضلوع تنتشي فلا يجد إلا صدور الأجانب الذين احتلوا شماليها وتركوا جنوبيها الضيق المكتوم لأهلها وللغرباء جاءوا من الريف خلف سراب المدن.

ثم رأيت وادي النيل ينكمش فيقترب جنوبيه من شماله ويمينه من يساره ويصبح كله غرفة أو ردهة بيت صغير مليئة بأثاث قديم وناس متعبين من رجال ونساء وأطفال قليلين يصحو من بينهم واحد عند الفجر في العقد الرابع يرتدي جلبابًا قديمًا يأخذ مخلاة بها عيش قليل وملح ويضع قدميه في حذاء مهترئ، ويتسلل خارجًا في هدوء، وضباب فوق الدنيا، وكل شيء مبلل بالندى، ويمشي لا يرى أحدًا ولا أحد يراه ووحده يشق الضباب الكثيف عارفًا طريقه فيركب القطار وينزل يعبر القناة ويقف ذاهلًا أمام اتساع الصحراء ويتساءل: هل ستمشي فوق كل الرمال؟ ويجيب سأمشي، ويمشي فوق أرض سيناء ينام الليل ويتابع المسير بالنهار، وكلما أحدق به الموت عطشًا تفجرت له الأرض بالمياه، وكلما أحدق به الموت جوعًا أنزل الله عليه مائدة من السماء، حتى دخل أرض فلسطين فرأى أهلها معلقين في المشانق يضربهم الإنجليز من الأمام واليهود من الخلف.. وما زال عليه أن يلبي النداء الغامض لأرض الحجاز فيعبر النهر إلى وادي الأردن نازلًا حتى يدخل بيداء تبوك متوكلًا على الله بلا زاد من ماء أو طعام فيرى «ضبا» الخالية و«تيماء» الخربة و«تبوك» الملعونة.. ويواصل فيرى قليبة الملغزة ويواصل حتى يصل إلى المدينة فيجلس على باب مسجد الرسول يبيع الحبوب للداخلين فتصير

له بعد ذلك تجارة ويصير له طواف بالبلاد حتى رأى تبوك مرة أخرى فدخلها وفيها باع لامرأة مشى وراءها حتى خيمة أهلها فأطعموه فقال: ما أطيب طعامكم وأهنأ عيشكم! كيف أسلوكم وأنا غريب يمضي في البلاد؟ أجيروني! فأجاروه وصارت المرأة زوجته أنجبت بنتًا أنجبت واضحة بنت سليمان بن سبيل فصار جدها وصارت حفيدته.

يا إلهي! ما أقرب المدن رغم اتساع البلاد! وما أقر ب البلاد رغم اتساع الأرض!

***

12

دخل منصور إلى مكتبي في الصباح والقرد فوق كتفه وقال:

- استعد للذهاب إلى المدينة.

ابتسمت. كلما كلمني منصور أحاول أن أتكلف الابتسام. قلت:

- خيرًا؟

- قال:

- ستذهب إلى مؤسسة الضمان الاجتماعي. ستحضر نماذج للتأمين على العمال. نظام جديد أظن أن لديكم مثله في مصر.

اندهشت من تدخله الدقيق في عملي، ونسيت أن عم عبدالله كثيرًا ما يعطيه هذه الفرصة. قلت مبتسمًا:

- هل أنت مديرنا الجديد يا منصور؟

جلس إلى المكتب القريب من الخزانة وقال:

- أريد أن أعطيك هذا القرد..

انطلقت ضاحكًا. لم أعد أخشى جانبه. بدا وقد هدأت نفسه منذ أخبرته بالموعد الكاذب لزواج سعيد من وداد.

- لكنني لا أحب القرود.

- ليس لك. لتحمله إلى ابن عمي بالمدينة. يريد واحدًا من عمان وأنا لن أسافر إلى عمان الآن.

نظرت إلى القرد فوجدته ينظر إليّ. كيف يمكن أن أحمل القرد معي حقًّا؟ هل يُسمح للقرود بركوب الطائرات؟

- هل صدقتني يا أخي إسماعيل؟ أنا فقط أمزح معك!

تنفست بارتياح قلت:

- لكنني والله كنت مستعدًّا.

- تسلم يا أخي إسماعيل.

قال ذلك، وأطرق ينظر في صمت إلى المكتب، وأنا لا أدري ما الذي حدث لي. أحسست برغبة شديدة في البكاء تأثرًا من سذاجة ووداعة هذا الإنسان الطيب الذي لا أعرف ماذا يريد بالضبط.

***

ساعة ونصف الساعة ووصلنا. الطائرة الصغيرة لعبت بها المطبات الهوائية كثيرًا. في مطار صغير يشبه مطار تبوك نزلنا. لا مشكلات في الاستقبال فنحن قادمون من الداخل. ورأيت عددًا كبيرًا من الرجال يجلسون على الأرض في أحد أركان صالة الوصول زجاجية الجدران، وحولهم يقف عدد من رجال الشرطة. خليط من المصريين والآسيويين، كان الجالسون متزاحمين لا تستطيع أن تحصيهم، مغبري الثياب والوجوه فيهم حفاة. وخرجت.

فضاء واسع وسماء عالية وباحة عريضة مسفلتة تقف فيها السيارات الأجرة والخاصة. نصف ساعة من المطار إلى المدينة. هكذا علمت.. توقعت أن يتقدم مني سائق لكن لا أحد تقدم. الخارجون مثلي من المطار يتجهون إلى السيارات في صمت، وهذا الرجل الجالس على المقعد المجاور لمقعد السائق يشير ناحيتي. أنظر حولي لا أجد أحدًا. يقصدني أنا إذن. ماذا يريد؟ هتف:

- اركب بسرعة قبل أن يأتي السائق.

لم أفهم لكني دخلت العربة في المقعد الخلفي، وظهر السائق وفتح بابه ودخل وهو يقول له:

- جاء أخوك؟

- أجل.

تلفت الرجل لي وابتسم، ولم يلتفت السائق الذي قال: «يا هلا».

وأدار محرك السيارة وأنا في غاية الحيرة.

- أخوك يعمل في المملكة؟

- أخي وابن عمي أيضًا، تركنا «عوايلنا» هناك في مصر.

ضحك السائق الصغير:

- والله زين ما سويتم..

واستمر يضحك والسيارة تحركت. «لعنة الله على النسوان!» قال السائق والتفت إليّ: «لا تؤاخذني يا أخي». ورأيت وجهه عجوزًا. ليس إذن شابًّا صغيرًا كما تصورت. وفكرت أن أفضل شيء لي هو الصمت. الرجل الذي دعاني مصري ولا أحسب أنه يؤذيني.

الطريق طويل ضيق يقطع جبالًا سمراء وحمراء عالية متدرجة الارتفاعات.. جبالًا صخرية لامعة، على سفوحها أخاديد جافة من آثار أمطار بعيدة الزمان، وعلى الأرض المنبسطة بينها «حرَّات» قديمة تنفث دخانًا شفيفًا كأنها فُوَّهات براكين صغيرة خامدة منذ زمن طويل، ولا رمال حولي ولا كثبان. لا أعرف لماذا تذكرت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد الذي رأيته في طريق تبوك وابتسمت.. هنا لا بد أنهم يقتلون الكلاب في المدن والصحارى معًا، والتفت إليّ الرجل وقال:

- هذه جبال بركانية تشبه جبال الصحراء الشرقية عندنا.

لم أرد. في حاجة أنا لمعرفة اسمه حتى أخاطبه، لكني رأيت وجهه جيدًا. بدا لي شخصًا عاديًّا لا يمكن التنبؤ بشيء وراءه، وبدا لي مسكينًا أيضًا، فقميصه متسخ الياقة، والزرار الأعلى فيه مقطوع والبلوفر الذي يرتديه قديم، لكن وجهه أبيض مشرب بحمرة خفيفة وشعره أبيض كله وعينيه صغيرتان ذابلتان من التعب. واستمر يتحدث مخاطبًا السائق:

- جبال مكة وجدة كانت متصلة بالجبال عندنا في مصر في الصحراء الشرقية وهي جزء منها.

- سامحني يا أستاذ والله أنا ما شفت مصر. شفت تركيا..

قال السائق ذلك بخجل حقيقي فالتفت الرجل إليّ مبتسمًا وقال:

- المنطقة الغربية كلها من المملكة كانت متصلة بالصحراء الشرقية المصرية. لقد فصل بين المملكة ومصر الأخدود الإفريقي العظيم قبل العصور السحيقة كما تعلم.

يخاطبني باعتباري شخصًا متعلمًا. يريد أن يشعرني بأنه شخص مثقف ولا يجب أن أخشى جانبه، بدأت أطمئن إليه.

أخذت المدينة تظهر. بيوتها الواطئة بينها عمارات كثيرة عالية ورأيت مآذن المسجد النبوي والقبة الخضراء تلمع في الفضاء. وقال الرجل:

- المدينة جميلة. هواؤها عليل وأهلها طيبون. إنهم الأنصار.

ابتسم السائق وقال:

- الله يرضى عليك يا أستاذ.

ولم يختلف ما رأيته في الشوارع عما رأيته في تبوك. الشوارع هنا أنظف قليلًا وأوسع والآسيويون أكثر. المدينة أكبر.

توقف السائق أمام الحرم النبوي. زحام من الداخلين والخارجين في سرعة وصمت، وزحام حول الباعة العجائز الجالسين على الأرض أمام الحرم يبيعون القمح للداخلين يلقون به للحمام. هذا حمام سابح فوق الحرم وتحت السماء لا يصطاده أحد ولا يأكله أحد. ونزلنا وسبقني الرجل ودفع للسائق عشرين ريالًا، وقال بعد أن مضت السيارة:

- تستطيع أن تدفع لي عشرة ريالات. أعطيت السائق الأجرة المقررة.

- أستطيع أن أعطيك العشرين ريالًا.

- أريد فقط الريالات العشرة. الإنسان هنا قد يحتاج لكل هللة.

هذه هي المسألة التي دعاني للركوب من أجلها، ولم أشأ الإطالة في الكلام. أعطيته الريالات العشرة لكنه سألني:

- هل تعرف أحدًا هنا؟

- لا.

- إذن انزل معي في الفندق. أعرف الفنادق الرخيصة.

كانت الشمس فوقنا قوية. نحن هنا في الجنوب بعيدون عن تبوك. النهار هنا خريفي، والخريف هنا كالصيف في مصر. وأربكتني حركة النساء أمام باب الحرم. كنا تحركنا قليلًا وحدنا أمام باب آخر. النساء كثيرات يدخلن ويخرجن كاشفات الوجوه. عيون خضراء وعيون زرقاء وعيون سوداء.. وكما تعرف جنسيات الرجال في المملكة من سحناتهم وأزيائهم تستطيع أن تعرف البلاد نفسها من عيون النساء وإن بدت الوجوه كلها واحدة.

هكذا فكرت فجأة وأنا أنظر إلى الوجوه الطازجة كورود سابحة في مياه من الضوء. عباءات سوداء حقًّا أمامي لكن تظهر من فتحات صدرها ملابس خضراء وحمراء وبيضاء زاهية لامعة. عباءات سوداء حقًّا لكنها مع الضوء الأبيض للنهار تعطي الفرصة للوجوه اليانعة أن تعلن عن سحرها. هنا أمام باب الحرم النبوي الشريف لم أستطع رفع بصري إلى السماء ولا أن أخفضه إلى الأرض. صارت عيناي على مستوى وجوه النساء وعيون النساء وشفاه النساء ونضارة وجناتهن. لم يكن عمر بن أبي ربيعة مجنونًا وهو يحج للغزل. ما بالي لو رحت مكة. أستغفر الله العظيم. ماذا أفعل في خطف العيون والراحة التي تبعثها الوجوه في الأرواح؟!.. أنا الآن محمول على سرير من الزئبق.

- النساء هنا يكشفن وجوههن. لا تندهش. المسائل كلها مقلوبة.

قال الرجل، فأنزلني إلى الأرض، ومشى فمشيت جواره كطفل يتبع أباه.

***

إلى زقاق ضيق أخذني. زحام شديد ولكن الحركة تنساب في هدوء ولا صوت لشخص ولا لراديو أو مسجل، ورائحة البخور والعطور تضمخ المكان كله. صمت وخشوع كأنما الزقاق والبيوت كلها داخل مسجد كبير.

- من حسن حظك أنه لا توجد عُمْرة هذه الأيام وإلا ما وجدت مكانًا لقدم. الناس أيام العمرة تنام في الشوارع.

لم أرد. كأنما تركته بحق يرشدني. دخلنا فندقًا صغيرًا اسمه «حراء» وقابلنا في بهو ضيق مظلم شاب مصري يبتسم، وصحبنا إلى غرفة في الدور

العلوي، ورحت أنظر إلى الغرفة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على تسعة أمتار. بها سريران صغيران منفصلان، ودولاب معدني من ضلفتين لا يصل عرضه إلى المتر ولا يرتفع إلى المترين، وحوض مياه مثبت في الحائط فوقه رف زجاجي عليه كوب بلاستيك واحد، وفوقه مرآة صغيرة صدئة الحواف، مغبشة الزجاج، وفي السقف مروحة، وأحسست بالاختناق كأنما كان الحر محبوسًا في الغرفة وانطلق يحاصرنا مشبعًا بالرطوبة. لا نافذة للحجرة على الشارع. لها نافذة صغيرة على منور ضيق. قلت للشاب المصري:

- افتح النافذة.

ابتسم وفتحها، ولم يتغير الحال.

- أدر المروحة.

أدارها وانصرف، وجلست فوق حافة أحد السريرين. رأيت صاحبي قد جلس على حافة السرير الثاني يفتح حقيبة صغيرة كانت معه، ويخرج منها جلبابًا دخل فيه بسرعة بعد أن خلع بسرعة أيضًا ثيابه. فعلت مثله لكني ارتديت بيجامة. لا أحب الجلابيب منذ صغري. كانت ترتفع دائمًا وأنا نائم عن ساقي وأشعر بالهواء البارد في فخذي وظهري. كلما اقترح عليَّ أحد أن أرتدي الجلباب شعرت على الفور بالهواء البارد. لقد أدهشني كثيرًا انتشار الجلابيب في مصر. الناس صارت ترتديها في الشوارع وأحيانًا في العمل. تقليد جديد أرساه وعمده العائدون من بلاد النفط، ولا أعرف كيف لا يشعر هؤلاء الناس جميعًا بالهواء البارد في أفخاذهم، وقال صاحبي:

- نرتاح ساعة ثم نتغدى خارج الفندق.

- لا أشعر بجوع.

- إذن نتغدى بعد أن نصلي العصر. لقد فاتنا الظهر. سنصليه مع العصر في الحرم.

أحسست فجأة أنه ثرثار يتكلم أكثر مما ينبغي، لكني تجاهلت الأمر وحاولت أن أنام. لم أستطع ولا هو استطاع. رأيته يتململ ممددًا فوق السرير، ورأيته ينهض يُخرج من الحقيبة التي معه كتابًا ويعود يستلقي يقرأ فيه.

- اسمي إسماعيل خضر موسى.

قلت، فابتسم وقال:

- كان عليّ أن أعرفك بنفسي. كامل البلتاجي. لا تؤاخذني. لابد أنني أربكتك.

- لا تشغل بالك. لقد فهمت إشاراتك.

- لي نظرة لا تخيب في الناس.

وسكت قليلًا ثم سألني:

- ألا تحب القراءة؟

- أنا قارئ قديم.

نهض بخفة، وأخرج كتابًا آخر قدمه لي:

- هذه رواية رائعة، وصغيرة كما ترى.

أمسكت بها وقلت مبتسمًا:

- «ليس في رصيف الأزهار من يجيب». أعرفها. لا بأس أن أقرأها مرة ثانية لقد مضى وقت طويل على قراءتي لها.

لم أكن بحاجة حقًّا إلى قراءة ما يعطيني. كنت بحاجة إلى معرفة ما يقرأ. استطعت أن ألمح عنوان الكتاب: «التقصير». كتاب أسود على غلافه وجه غولدا مائير سمعت عنه من قبل ولم أقرأه. وشرعت أقرأ رواية مالك حداد. انتهيت منها في ساعتين. سرقتني الرواية الصغيرة العجيبة كما سرقتني أول مرة قرأتها. رأيته يقف ويخلع الجلباب ويقول:

- لا بد أنك في حاجة إلى المشي.

وكأنه ناداني من عالم مسحور، حتى إني دعكت عينيّ وقمت أغسل وجهي من الحوض، وأشعر بأني شخص آخر نزعوا جلده وأعطوه جلدًا أكثر بهاء. وعدت أجلس على حافة السرير أنظر إليه في صمت، ثم قلت:

- حين قرأت هذه الرواية أول مرة أحسست أنني أنا الذي يقفز تحت عجلات القطار، الآن لم أشعر بذلك، فقط خفق قلبي.

تأملني قليلًا وقال:

- أنا أقرؤها كثيرًا. ربما لا أقرؤها إلا من أجل ذلك. سأنتظرك في البهو السفلي.

وخرج مسرعًا. لماذا بان على وجهه ضيق مفاجئ؟.. وقفت أفكر.

***

دخلنا مسجد الرسول، نُصَلِّي الظهر والعصر معًا. أول ما فكرت فيه ونحن نترك الفندق ألّا أنظر إلى وجوه النساء. الدخول إلى مسجد الرسول ليس بالشيء العادي. في عيد الأضحى لم أستوعب فكرة أن تأخذ سيارة وتذهب لتحج وتعود في أيام قليلة. الآن لا أصدق أنه يمكن أن تنزل من فندق وتدخل المسجد النبوي في دقائق. توقعت أن أهتز وأبكي. ربما لهذا السبب لم يحدث شيء. دخلت المسجد وتطلعت إلى الحمام السابح في الفضاء فوق الجزء المكشوف. أثار انتباهي اتساع المسجد الهائل، وأعداد الناس الغفيرة، وانقسام المسجد إلى نصفين. الأيمن للرجال والأيسر للنساء. لا أرى وجوه النساء الآن. وجوهنا جميعًا إلى القبلة. لو التفتت لي كل هاته النسوة لمتُّ في الحال. لا يحتاج أي إنسان لدخول الجحيم غير أن يرى هذا العدد الهائل من وجوه النساء دفعة واحدة. يا للشيطان الجهنمي الذي يحاصرني! قال البلتاجي:

- لن نستطيع الوصول إلى قبر الرسول إلا بعد الانتهاء من الصلاة.

وجلسنا في الجزء المكشوف من المسجد، ثم أُذِّن للصلاة وصلينا. خشوع غامر تلبس الدنيا مع صوت الشيخ الندي الذي يؤم المصلين. أكذب إذا قلت إني شعرت بتحول في شعوري ناحية الإيمان، فأنا غير ملحد، وأكذب إذا قلت إني لم أشعر بشيء.

وانتهينا وكلمني البلتاجي:

- انتظر قليلًاحتى يخف الزحام.

وكنت أنا أحدث نفسي. أبهذه السهولة يمضي الوقت في حضرة الرسول؟ منذ تفتحت عقولنا نسمع الكبار يحلمون بالزيارة ولم نمل قط قصة الهجرة

في المدرسة والبيت. اختبأ الرسول في الغار وصاحبه أبو بكر فَبَاضَ اليمام على الباب، وعنكب العنكبوت، وفزع أبوبكر وهو يسمع أصوات أقدام خيل الكفار، والرسول يطمئنه لا تفزع إن الله معنا، قال أبي ذلك كثيرًا. قال حين رآني أبكي مع الناس، يوم تنحى جمال عبدالناصر ودخلت إسرائيل البلاد «لا تحزن إن اللّه معنا». وقمت أتقدم إلى قبر الرسول.

«بين منبري وقبري روضة من رياض الجنة» هذا حديث نبوي وهذه هي الروضة الشريفة يا إسماعيل.

قال البلتاجي وهو يراني أتقدم بصعوبة بين الجالسين من الآسيويين المستغرقين في قراءة القرآن من مصاحف صغيرة في أيديهم، يقرءون بسرعة ويهتزون مع القراءة ولا يكادون يحسون بمن يتقدم وسطهم.

- كان قبرا الرسول وأبي بكر في بيت عائشة، لكن عمر أوصى أن يدفن معهما. منذ دفن عمر لم تستطع عائشة أن تتفضل في ثيابها حرجًا من عمر. هكذا قالت هي. بعد ذلك ألحق البيت بالمسجد.

البلتاجي يتحدث وأنا لا أهتم بالرد عليه. سأقرأ الفاتحة وأطلب الرحمة لأبي والصحة لأمي والتوفيق لإخوتي.. وقفت أمام قبر الرسول وصاحبيه وأوشكت على التراجع. كيف حقًّا لا أبكي؟ من ينقذني من حالة الخلاء الروحي التي تلبستني منذ زمن طويل؟!.. منذ أمسك أبي بأيادي أخوتي وسلمهم إليَّ.. منذ قالت وهي تبكي:

«تركتني في اليوم الخامس من يونيو. ألا يُذكِّرك هذا التاريخ بشيء؟ يوم لا يمر كل عام كبقية الأيام.. يوم سيظل معنا، حتى لو حاربنا وانتصرنا ونسيه الناس، سأكون أنا الوحيدة التي لا تنساه، لأنك تركتني فيه. لماذا يا إسماعيل لا تعرف كيف تختار؟ لماذا تكون طعنتك باقية طول العمر؟ لا يشفي جرحي انتصارنا يومًا على إسرائيل. يا طول جرحي وبئس عذابي!».

وخرجنا. ما كدنا نخرج حتى سألني:

- هل أنت تصلي حقًّا؟

- لا.

أجبت دون أن أنظر إليه. وددت أن أكذب، ووددت لو قلت: نعم.

- أنا أيضًا لا أصلي لكني كنت خائفًا منك! هيا نرى المدينة.

***

عريض ممتد أحمر قان قاتم منطفئ هادئ مستكين غامض يغمره الضوء، فينام داخله ولا ينعكس كأنما هنا نهاية الرحلة وموئل الراحة. إنه جبل أحد. الهواء يملأ الفضاء أمامه باردًا منعشًا، والجبل الذي يحوط المدينة من الشمال كأنه حارس صامت يقف في ثبات يقيها شرور الزمان.. جبل في لونه حزن وخشوع والواقفون قليلون لا يزيدون على باعة التمر الجاف والحناء والعطر في الزجاجات الصغيرة والسواك، ونحن، كأنه لم ينزل المدينة غرباء غيرنا اليوم، لا أحد يتكلم من الباعة ولا صوت يرتفع.

- التمر والحناء والعطر والسواك سنة عن الرسول، والكحل أيضًا.

قال البلتاجي ولم يتكلم أحد غيره ذلك الأصيل. وعاد يقول:

- كان الرسول نظيفًا مقبلًا على الحياة. كان يحب كل شيء ولا يرضى بالقليل إلا في المال والطعام. انظر. من هنا جاء خالد بن الوليد.

أشار إلى المكان الشهير للواقعة.

- وهنا كان يقف المسلمون.

ورأيته حيث أشار إلى مستطيلين من الطوب الصغير على الأرض.

- هذا الطوب يحدد قبريّ حمزة ومصعب بن عمير. أعظم شهداء الواقعة. هل تعرفهما؟

- أعرف حمزة. ذلك الذي أكلت كبده أم معاوية.

قلت. وتهدج صوت البلتاجي فجأة بالبكاء:

- كان مصعب فتى الفتيان في قريش. أجملهم وأغناهم، وإذ آمن بالدعوة ترك كل شيء. وتحمل الجوع والعُري وهو محاصر مع المسلمين في شِعب أبي طالب، وأبدًا لم يستسلم. كان هو حامل الراية ذلك اليوم، ولم يتركها حتى تمزقت أعضاؤه ومات.

وسَكَتَ. ومن فوق الجبل هبت علينا نسمة طيبة طرية، وكنا نوشك على الدخول في المغرب حيث يتسلل الليل على مهل، والشمس على يسارنا بعيدة حمراء تتراجع عن الدنيا في حزن، وأنا أرى المسلمين يتركون مواقعهم فوق الجبل وينزلون حتى لا تفوتهم الغنائم والمعركة توشك أن تنتهي بالانتصار، فإذا بخالد بن الوليد يظهر عاليًا كجبل فوق الجبل ومعه جنوده ويغيرون على ظهر المسلمين، ويثبت الرسول، وتنكسر سِنَّته، وينهزم المسلمون، وسؤال الامتحان الدائم عن العبرة من الهزيمة، والإجابة طاعة القائد.. لكن لماذا كان السؤال يتكرر كثيرًا؟!

وتحرك البلتاجي يمشي فمشيت.

***

في الحجرة التي كان نورها ضعيفًا أحسست بالاختناق، فطلبت مصباحًا آخر أكبر، واندهشت من عدم إدراك البلتاجي لضعف الضوء وهو الذي يبدو شحيح النظر. استلقيت على سريري أفكر ما الذي أشعر بأنه ينقصني الليلة. التليفزيون؟ أستطيع أن أنزل إلى بهو الفندق. لقد لمحت جهازًا، ونحن ندخل عائدين، بعد أن تناولنا طعامنا في مطعم صغير خلف الفندق. لكن أي نزلاء هنا أستطيع أن أجلس بينهم؟ باكستانيون أو أفغان أو أتراك.. مسلمون ومن كل البلاد، فالمدينة لا يدخلها غير المسلمين. لكن ما يدريني أن الآسيويين سيجلسون صامتين. قد يتكلمون ويتقاذفون بكلماتهم السريعة ويفسدون جلستي أمام الجهاز. لأبقَ إذن في الحجرة.

وسألني البلتاجي:

- كم صار لك في المملكة؟

- ثلاثة أشهر تقريبًا.

- متعاقد؟

- لا أفهم ماذا تقصد؟

كان مشغولًا بإعداد كوبين من الشاي بجهاز كهربي صغير أخرجه من حقيبته. لم يرد إلا بعد أن انتهى ورحنا نشرب الشاي:

- أقصد هل تعمل بعقد رسمي أم مثلي؟

- تعاقدت قبل حضوري. لكن كيف تعمل هنا بلا تعاقد؟

ابتسم وأجاب:

- كان عليك أن تدرك ذلك وحدك. ألا ترى معي عدة الشاي؟

وأشار إلى الحقيبة الملقاة جوار الحائط، وقال:

- فيها كل ما يلزمني؛ صغيرة كما ترى ولكن تحوي الكثير.

وقام وفتحها، وأخرج منها مرتبة تمتلئ بالهواء فتصلح للنوم، ولحافًا يمتلئ بالهواء أيضًا ويدخل الإنسان فيه ويغلقه حوله بسُست في الجانبين، وأشياء أخرى كثيرة، وقال:

- جئت في عُمرة منذ عام ولم أعد إلى مصر. لقد وجهوا إنذارًا لكل من يعمل هنا بلا عقد رسمي، أن يصحح موقفه قبل شهر رجب الماضي.

- لماذا إذن لم تتعاقد قبل الموعد؟

- لأني قد أسافر في أي وقت.

وسَكَتُّ. ولا بد أنه أدرك ارتباكي، فقال:

- كان من السهل أن أتعاقد قبل القرار الأخير، الكفلاء يحبون هذا النوع من العمالة الذي لا يرتب عليهم أي حقوق للعمال. بعد القرار صار خطرًا على الاثنين معًا العمل دون تعاقد، لكني لم أتعاقد. ما زلت أجد الكفلاء الذين يغامرون بتشغيلي. أنا أستطيع أن أقوم بأعمال كثيرة أقلها الكتابة على الآلة الكاتبة. لكن هذا ما حدث. لذلك أنا لا أُسلَمُ من المطاردة. عند وصولك إلى المطار كنت أنا ضمن المقبوض عليهم لترحيلهم لأنهم يعملون بلا تعاقد رسمي، لكني استطعت الهرب.

تأملته في غاية الدهشة. قلت:

- كل هؤلاء الذين كانوا محاصرين برجال الشرطة مقبوض عليهم؟

- وأكثر منهم كل يوم يتم ترحيلهم.

وسكتنا قليلًا ثم قال:

- لا بد أنك ستسألني كيف استطعت الهرب.

قلت في أسى:

- ما يدهشني كيف وأنت الشخص الذي يبدو مثقفًا متعلمًا، تقبل لنفسك هذا الوضع الصعب.

***

وكأنما كُتِبَتْ لي هذه الليلة في لوح القدر. لقد أحسست حين وضعت قدمي على سلم الطائرة في طريقي للمدينة، أني سوف أرتاح قليلًا من خوفي الباهظ من تطور الأمور مع واضحة. تركتني أمسك يدها بين يدي في الدرس التالي ليوم رؤيتي لجدها. قالت فجأة: لماذا تعاملني بهذه القسوة؟ وكنت أنا أرفع صوتي بلا سبب في الحديث كأني أود تنفيرها من الأمر كله. ربَّت على ظهر يدها فَتَركَتْها فأخذتها لتنام بين راحتي يديّ، وأحسست كأن بينهما عصفورًا صغيرًا يود لو ينتفض فلا يستطيع، عصفور دافئ ينبض الدم متسارعًا في عروقه. حالفني الحظ وتركت يدها في اللحظة التي سبقت دخول خالد إلينا. لم يقابلني حين ذهبت. كان عائدًا لفوره من رحلة قصيرة للرياض. لم يدخل إلينا قط في أثناء الدرس. فعلها اليوم ودخل يصافحني فارتعشت كما لو كان رآني بالفعل. احتجت إلى وقته حتى أستجمع أنفاسي بعد أن خرج. وكأنها كانت تعرف، كانت تكتب وتبتسم من خوفي وارتباكي.

لماذا حقًّا لا أستطيع الابتعاد، ولا أطيق الاقتراب من واضحة بنت سليمان بن سبيل؟! إنها أصغر من كل هذا العناء. «واضحة بنت سليمان ابن سبيل» عادت سيرتها الأولى. اليوم ضبطت متلبسة مع المصري إسماعيل خضر موسى وستُرجم وسيُرجم. لن يُرَحَّل من البلاد. سيُلقى به من طائرة إلى صحراء الربع الخالي. مصري ملعون مثل رئيسه الذي يدعو عليه المسلمون ليل نهار أن يموت لأنه وطئ القدس بقدمه المدنسة، وجلس مع اليهود الذين أمرنا الله أن نقتلهم حيث نثقفهم يا أرحم الراحمين.

يا صالح سنيور الثقيفي أغثني بفيلم آخر. وذهبت إلى صالح، وكان غالب وحده الموجود، وكان يبكي، وصالح يسبه، يا صالح إنه ولد مسكين هزلان فقير ممزق الثياب. يا أستاذ أنت لا تتدخل، هذا الملعون لا مسكين ولا فقير.

هذا مصاب بزهري يا أستاذ. انظر إلى قدميه.. ملأ جسمه كله ولا يقول الكلب. لقد مزقت كل الشرائط.. ها هي ذي أكوام أمامك ورفعت الفيديو والتليفزيون من الغرفة. هؤلاء الأوساخ يريدون قتلي. اخرج يا أخا القحبة. وغالب يبكي بحرقة، وصالح يدفعه أمامه بعصا صغيرة حتى لا يلمسه ولا يلمس ثيابه ويعود ويكلمني. هذا طرده أبوه من المنزل حين عرف القصة. حطم التليفزيونات السبعة التي في بيتهم وحطم أجهزة الفيديو. أبوه مجنون اشترى لكل ولد من أبنائه تليفزيونًا وفيديو حتى لا يتنافسوا ولا يتهاوشوا. المشكلة يا أستاذ أن هذا الكلب لا يكتفي بالأفلام الجنسية، والزهري يا أستاذ مرض خطير. هل لا تعرف ذلك؟ أعرف يا صالح وهيا بنا نبدأ الدرس. لا درس اليوم يا أستاذ. لا تخف. راتبك محفوظ. من قال يا صالح إني أستطيع أن آخذ راتبًا بلا عمل؟ ومن قال يا أستاذ إني أحتاج الدرس. أنا أنجح. يأتي المدرسون قبل الامتحانات إلى مخزننا، يأخذون البطانيات وأثواب الحرير والصوف وأنجح. لا تنظر إلى عمري. أنا أرسب بإرادتي. بإرادتي لا أذهب للامتحان. أعطي المدرسين ما يريدون وآخذ ما أريد ولا أذهب للامتحان. أبي رجل حمار يأتي لي كل شهر بمدرس فأطرده. أنت أحببتك وسأطلب من أبي أن يعطيك راتبًا أكبر بشرط أن لا تدرس لي يا أستاذ. اجلس نتحدث في أي شيء إلا الدرس.

ومشيت والظلام فوق الدنيا أكثر من كل وقت، وركبت سيارتي ولم أنتبه للطريق الذي اخترته، ورأيت المنزل الموقوف به سيد الغريب مظلمًا كله خارجه وداخله، ومغلّق الأبواب والنوافذ، ولا صوت إلا صوت ذؤابات النخيل العالي يحركها الهواء برتابة. ومشيت فوجدت نفسي في شارع ضيق لكنه مضاء بمصابيح صغيرة على أبواب البيوت، ورأيت غالبًا في أحد الأركان ممددًا، وقد أسند ظهره إلى جدار بيت قديم، ومد ساقيه على الأرض، وحوله وفوق ساقيه تتقافز القطط، فأحسست بالقرف من كل شيء.. وفي البيت لم أوافق سعيدًا ووجيهًا واستمر في المهزلة. قلت لوجيه ما كان عليك أن ترشحني للدرس لمثل هذا الولد.

وقلت في المدينة أنسى، فقابلني البلتاجي. قال:هنا يا صديقي إسماعيل تقذف المطارات بالأحلام والمنى تتدحرج أمام أرجل القادمين قريبة جدًّا من أيديهم لو انحنوا. كل شيء في الدنيا تجده هنا، لعب أطفال هونج كونج جوار بيض رومانيا الشيوعية وملابس تايوان القذرة جوار دجاج بلغاريا الشيوعية أيضًا وعطور باريس جوار ساعات كورية المزيفة واليابان القوية. هنا تبيع كل العملات وتشتريها كما الشهيق والزفير. هنا شرطة أيضًا للجرائم الصغيرة. أما الجرائم الكبرى فغالبًا يحتويها الظلام. هنا نهر متدفق سيال لا يعترضه جندل ولا شلال. نهر من المكاسب فقط عليك أن تختزل من عمرك بضعة

أعوام تنسى فيها أن يكون لك صديق. أن تحب أحدًا وأن يحبك أحد. أن تكون مثلي راضيًا بكل شيء. ولا تفكر حتى بما تأكل. جبنة شيدر من أستراليا أم جبنة حلوم من قبرص. لحم ضأن من الأردن أم ضأن محلي بلا طعم. أنا رجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامي!

كان ذلك منذ زمن بعيد جدًّا، قبل ثورة يوليو، حركة الجيش، وكنت لم أنته بعد من دراسة القانون بالجامعة، قامت الثورة وأنا في السجن فأخرجوني كما أخرجوا كل الوطنيين، لكنهم عادوا وأخذوني عام 1954، وكنت انتهيت من دراستي وتزوجت، وقالوا إني من الإخوان، وأخرجوني بسرعة حين عادوا إلى ملفي عندهم، ملف الملكية الذي تسلمته الجمهورية الفتية. وعادوا وأخذوني عام 1956 لأشهر قليلة وقالوا شيوعي، وأخرجوني قبل العدوان بأيام، فذهبت أقاتل في القنال، وعدت بعد الحرب وسلّمت سلاحي. أتعرف؟ قليلون هم من سلموا سلاحهم. كثيرون باعوه أو هربوه. وعادوا وأخذوني عام 1959 ولم أخرج بعد ذلك إلا عام 1964. رأيت ابني الذي صار عمره تسع سنوات، وابنتي التي صار عمرها سبعًا وأخذوني عام 1966 وأخرجوني بعد النكسة بشهور، وأخذوني عام 1970. وانتهى دور جمال عبدالناصر معي وتسلمني السادات الذي أفرج عني وعن غيري وتركني في الشوارع أربعة أعوام، ثم أخذني عام 1975 في أول أيام السنة، وأخرجني بعد ثلاثة أشهر ليأخذني عام 1977 ليخرجني وأخرج أنا من مصر كلها..

هل كنت أحتاج حقًّا إلى كل هذا الوقت لأكره الوطن؟ أم فقط جئت لأن زوجتي حَوّلت الشقة إلى روضة أطفال استعاضت بهم عني، وعن ولدنا الذي يعيش في السويد الآن، وابنتنا التي تزوجت مدرسًا معارًا إلى الجزائر؟ أنا لا أعرف لماذا أتيت إلى هذه البلاد دون غيرها. كنت أدخل وأخرج من السجون أكثر قوة رغم كل ما لعلك سمعت عنه، من مآس بالسجون.. زوجتي فقط هي التي انكسرت، تدهورت وشابت بسرعة وشاخت. المرأة كالأرض بلا ريٍّ تتشقق. لا تسألني لماذا لم أسافر إلى أوروبا كما فعل كثيرون، ولا لماذا لم أذهب إلى بلاد عربية أخرى وآخذ صحيفة وإذاعة وأشتم؟

وبكى. ولم يتوقف «ما زوشي غبي يستمرئ العذاب». رفضت أن أتعاقد مع أحد لأظل معرضًا للترحيل. مريض أنا، متفوق في مرضي، يستحيل علاجي.. أم تراني أود فعلًا أن يعيدني إلى بلدي أحد. أن يجبرني أحد على حب البلاد؟ لم أكن شيوعيًّا أبدًا يا أخ إسماعيل ولا طبعًا كنت من الإخوان. بالقوة أدمنوني السجون فقط لأني بدأت حياتي بحب الوطن.

وأجهش في البكاء بصوت عالٍ، فقمت من فوق سريري مرتبكًا وجلست جواره فوق سريره.

- هوّن عليك يا أستاذ كامل.

- هل تعرف لو عرفوا عني شيئًا هنا كم سيفًا سيجري فوق عنقي؟ هنا النملة لو شردت من طريقها ستجد فوقها ألف قدم. هنا لو أذّن الديك قبل الفجر ما رأى فجرًا بعد ذلك ولا صباح. هنا لافتة دانتي فوق الجحيم. لقد فعلها السادات وضيعنا جميعًا معه.. رجل واحد أضاع أمة. أي قطيع؟!

***

لم أسمع البلتاجي بعد ذلك إلا قرب الفجر. نمنا وأحسست قبل النوم بتعب لم أعهده. اختلط أذان الفجر الذي أيقظني بنحيب مكتوم لم أتبين مصدره إلا بعد لحظات، ولم أستطع النهوض للحديث معه مرة أخرى. خشيت أن أخجله، وظللت على وضعي نائمًا وعلى انتظام أنفاسي. تذكرت ما فكرت فيه قبل أن أنام. القصة لها جوانب خفية لم يدل بها. ثم ما الذي حقًّا يجعله يشعر كما لو كان هو الذي يقفز من القطار تحت العجلات كلما قرأ رواية مالك حداد؟ لقد تمنيت لو حدثني في الرواية مرة أخرى، وددت لو قلت له إني كنت مشروعًا صغيرًا لكاتب للقصة أيضًا إلا أني نسيت.

علّقتني رسالة أبي في الدنيا بين السماء والأرض، وابتلع الفضاء كل الكتب والأوراق والأقلام، لكنه داهمني بحكايته. يا له من عاجز مسكين! إن أعظم ما أودعني الله هو النسيان. لولا نعمة النسيان لصرت مثله، فلكل منا سجن ضيع فيه شيئًا عزيزًا حتى ولو لم يطل سجني.

ونمت من جديد ورأيته. الديك الضخم رأسه هناك في الأعالي وعُرْفه في السماء السابعة وجسمه ممتد إلى الأرض وجناحاه يملآن فضاء الدنيا بالألوان الزاهية، ثم راح يضرب بجناحيه فيندفع الهواء البارد يكاد يجمدني، أنا الذي أنظر إليه من أسفل في فزع ثم يسكت فأكاد أغرق في بحر العرق وأموت وأحس كما لو أن أحدًا يمسك برأسي يضعه في برميل ماء فأختنق وأضرب بذراعيّ الهواء، وفي اللحظة التي تكاد فيها الروح تَفرُّ مني يرفعني فتتواتر أنفاسي ويصيح الديك كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس، وإذ برأس الديك يسقط فوق صدره ويندفع الدم يملأ الفضاء بلون أحمر وتغرق الأرض في الاحمرار وأسمع ضجة في

الخارج، فأصحو فزعًا فلا أجد البلتاجي ولا حقيبته. ترك لي فقط رواية «ليس في رصيف الأزهار من يجيب» وصوت عجلات القطار!

13

هنا يمكن للإنسان أن ينسى كل شيء. أدرك ذلك جيدًا. الوقت المترهل مثل الوقت المزحوم. الاثنان يغرقانك!

كان عليّ صباح وصولي إلى تبوك أن أبدأ في تحرير استمارات الضمان الاجتماعي التي أحضرتها من المؤسسة الرئيسية في المدينة. لم أبق في المدينة غير نهار اليوم الثاني. ذهبت في صباحه إلى المؤسسة وأخذت الاستمارات، وفي مسائه أخذت الطائرة عائدًا.

كثيرًا ما فكرت أني سأصطدم بالبلتاجي مرة أخرى في الطريق، وربما في المطار، لكن هيهات. كأنما كان حلمًا. والآن وأنا جالس في غرفة مكتبي أملأ خانات الاستمارات ببيانات العمل لا يفارقني وجهه. ووجدت نفسي أتوقف عن العمل. أقف وأبتعد عن المكتب، وأدور في الحجرة أعصر ذهني، لأتذكر أين رأيت وجه البلتاجي من قبل. في الصحف. أجل في الصحف المصرية. كان ذلك منذ سنة.. سنتين.. ربما ثلاث. لا أذكر بالضبط. ورأيته أكثر من مرة. في أي صفحة ولأي سبب؟ لا أذكر.

وعدت أجلس إلى مكتبي غير قادر على مواصلة العمل. مكتوب إذن أن أنسى هذا الرجل مرتين «تبوك تنسيك أمك وأبوك» مثل حقيقي هنا، لا يحتاج المرء إلى أكثر من دقائق مع منصور حتى ينسى كل شيء إلا منصورًا. دقائق مع نبيل فأنسى كل شيء إلا نبيلًا، أو أرشد كذلك ومنذر. نظرة إلى اليمني الذي سيأتي في موعده يحرك السواك في فمه، أو موقف سخيف من عابد. لكن تبوك كانت أكرم!

أضاء باب الغرفة بوجه متألق وشعر أشقر حرير وعينين زرقاوين باهرتين. امرأة سافرة الوجه، تقف بالباب، تنظر إليّ بابتسامة واثقة. امرأة حقيقية ترتدي بنطلون الجينز الضيق وفوقه بلوزة حمراء الياقة وبلوفر أزرق، وعلى كتفيها وظهرها شال أبيض.

ووجدت نفسي أقف.

- جود مورننج.

قالت ودخلت وجلست أمامي وسألتني ما إذا كنت أعرف الإنجليزية. كل ذلك في وقت واحد تقريبًا. ولم تكف عن النظر إليّ باتساع باهر في عينيها. بدا أنها تكاد تضحك من ارتباكي، وقالت إنه يمكنني أن أجلس، واكتشفت أني ما زلت واقفًا فجلست، وسألتني أن أطلب لها فنجانًا من القهوة من مستر نبيل. تعرف نبيلًا إذن.

وتساءلتْ هي:

- أين مستر عابد؟

- في مكتبه.

- ليس هناك.

- لا بد أنه خرج لأمر سريع وسيعود. هل من خدمة أؤدِّيها لكِ؟

وظهر نبيل عند الباب يبتسم، ويقول بدهشة مصطنعة، وبصوت تمثيلي عال:

- أوه مسز روز!

ضحكت هي، وابتسمتُ أنا، ودخل هو يصافحها. أعطته يدها دون أن تتحرك، فأبقاها قليلًا في يده وهو يخاطبني:

- روز ماري زوجة مستر لاري. أجمل أجنبية في البلاد.

ترك يدها، فغمزت لي بعينها، وهزّت كتفها وسألتني عما يقول.

ترجمت لها الكلام فضحكت وقالت:

- لأني المرأة الأجنبية الوحيدة هنا.

ابتسمتُ وبدا لي الأمر سهلًا. هذه سيدة بسيطة تعطيك الإحساس بالألفة. وسألت نبيلًا أن يعد لنا فنجانين من القهوة. ما كاد يخرج حتى فكرت كيف تعرف نبيل حقًّا. مضى عليَّ ثلاثة أشهر هنا ولم أرها. هل تأتي في موعد آخر بعد مواعيد العمل؟

- هل أنت جديد هنا مستر.. ؟

- إسماعيل. لي ثلاثة أشهر هنا.

- آسفة لم أرك. لقد سافرت إلى أمريكا الأشهر الثلاثة الماضية.

- هل تعملين هنا؟

- مستر لاري زوجي هو الذي يعمل. العمل ممنوع بالنسبة لي. أعمل بشكل خاص وسِرِّي في حضانة مستر عبدالله.

- لا أعرف أن لمستر عبدالله حضانة.

- له حضانة مشهورة بالبلدة تديرها زوجته. كيف لا تعرف ذلك؟

وَضَحِكَتْ فأجبتُ:

-ربما لأني أعزب.

واستمرت تضحك. وقالت إن زوجة مستر عبدالله ضخمة جدًّا رغم أنه ضئيل للغاية، وهي لا تكف عن أكل اللوز طول النهار، مع أن هذا خطر جدًّا على الصحة. ودخل نبيل بالقهوة وقبل أن يخرج سألها:

- أمريكا إذ جود روز؟

- جود نبيل. ڤيري جود.

وضحكنا ثلاثتنا ثم خرج نبيل الذي احمرّ وجهه بشكل مستلفت للنظر. مضى وقت طويل ونحن نتحدث. حاولت هي أكثر من مرة الانصراف، وأنا أشجعها على انتظار عابد، فتستمر جالسة، وأتمنى أنا ألّا يعود عابد، ولا يدخل مكتبي أحد، وإذا بالساعة صارت الواحدة، ولم أفطن حتى لابتسام اليمني الذي رأيته فجأة فتذكرت أننا لم نتبادل الابتسام اليوم، وتبادلناه على الفور. وإذ بعابد يقف بالباب.

- هاللو روز.

هتف وهو يدخل يصافحها، فصافحته وهي جالسة، ولمحت الضيق على وجهه، وقال:

- هلّا أتيتِ إلى مكتبي؟

وقفت وقالت:

- لا بد أن أذهب الآن إلى الكامب، ليس لديّ وقت أكثر من ذلك. أحببت فقط أن أراكم.

وانطلقت خارجة بعد أن صافحتني، ولوحت له بكفها. وسألني عابد فجأة:

- ألم يسأل عني أحد؟

- روز.

لا أعرف كيف قلت ذلك. نظر إليّ شزرًا، وخرج إلى غرفته، وأنا أشعر بالأسف الحقيقي على إجابتي بهذا الشكل الذي لم أخطط له.

***

على المكتب الاستمارات السخيفة التي كنت أملؤها وأريد أن ألقي بها كلها في الباحة.

روز ماري اسم جميل بحق. لا يزال في الغرفة شذا عطرها. يا إلهي! كم هي خفيفة كريشة، منتشية كعصفور! مجنونة صريحة دهشت لكل إجاباتي. خريج فلسفة، ويعمل مدرسًا للغة الإنجليزية في مصر، وهنا مسئول عن شئون الأفراد! أي خلط؟ لكن هذه حالتي بالضبط وأنا فيها غير متفرد بين المصريين. ستجدين هنا عمال محارة وقيشاني من حملة المؤهلات العليا. هذه حالة مؤسفة لكن هذا ما يحدث على كل حال. ولم أشأ الاستطراد. هذا وقت الانكشارية فيه طردت مهن الدرجة الثالثة والرابعة العقول وساقتها أمامها بسياط السخرية، ميزان العدل مختل في بلادنا، ولعله كذلك في بلادكم وإلا لماذا جئتم؟ لنا عذرنا وليس لكم العذر. البترول سيد هذا الزمان يقف عند باب حدودنا الشرقية والغربية ويقول أرضُ مصر أرض حرام. مؤامرة جغرافية. هل يصدق ذلك أحد؟ أنا أصدق. فالمؤامرات تحدق دائمًا ببلادنا. وإن لم يفعلها العدو ونفعلها نحن. لدينا والله وقت كثير لذلك. ولدينا صحف ومجلات وإذاعات تجعل الأسود أبيض والأبيض أسود أو عديم اللون والطعم والرائحة! ولم أقل شيئًا من ذلك. تذكرت فقط كامل البلتاجي.

لكن قلت: «أنتِ كما تقولين خريجة اجتماع وتعملين هنا في حضانة أطفال بشكل سرّي، لا نختلف كثيرًا إذن». قالت إن زوجها خبير كبير، وكانت تضحك وتتحداني كأنها تعرفني من قبل، وقالت إنه هو الذي دفعها للعمل بالحضانة لأنه ممنوع أن تعمل، فلا هي طبيبة ولا مدرسة ولا ممرضة. ثم لاتَتْ وقالت إنها تقدرني ولا ترى لومًا عليَّ. وقالت إن حلم حياتها أن تقوم ببحث عن حالة الأعراب في البادية الآن... عن التغير الذي يلحق بسكان البوادي، لكن السلطات لا تسمح لها لأنها غير موفدة من أي جهة علمية.. لذلك سافرت إلى أمريكا واستطاعت أن تأتي بخطاب من جامعة شيكاغو إلى السلطات لتسهيل مهمتها، ولم تدر أنه ستقابلها مشكلة أخرى. طلبت السلطات أن يكون معها «محرم» في تحركاتها. ليس من المعقول أن تسافر امرأة وحيدة بين البوادي، ومستر لاري لن يترك عمله ليفعل ذلك، والوحيد الذي يمكن أن يساعدها هو «جورج» أخوها الذي لم يوافق على الحضور من أمريكا للعيش في بلد تُجلد فيه الناس بسبب الخمر. ضاعت منها الفرصة إلى الأبد. هل رأيت البادية هنا؟ سألتني. لا. رأيت شحاذًا نزل البلدة في يوم عيد. لم أقل ذلك.

ودعتني لزيارتها وزوجها في «الكامب». لماذا حقًّا وجهت لي هذه الدعوة ولم يسبق أن عرفتني من قبل؟

***

رأيت اليمني جالسًا والسواك في فمه، ورأيت بسمته اليوم أجمل، كانت بيضاء تغطي الدنيا بدفء جميل. لقد بدأ البرد يشتد بالليل هذه الأيام، وصارت الشمس تصحو معنا مُرهقة تصعد إلى السماء في مهل، ولا يبدو أنها امتلكت الفضاء إلا عند الظهيرة. لكن البرد بالنهار ليس قارسًا على أي حال.

تركت مكتبي والبهجة التي تركتها روز في الحجرة لا تزال تضحك في وجهي، ودخلت البوفيه فوقف نبيل فزعًا.

- لقد خرج عابد إلى البلدة. كيف ستجلس هنا؟

- ما الذي يمكن أن يحدث. تليفون غبي لطلب أكثر غباء. هل لديك مقعد آخر؟

كان حين دخلت يجلس على المقعد الوحيد، يقرأ في مجلة «الوطن العربي»، ويوشك أن «ينكفئ» على الصفحة. أدركت أنه ضعيف النظر كثيرًا. قال:

- اجلس أنت على هذا المقعد وسأجلس أنا على الأرض.

تكلم وقعد في الحال، والمجلة لا تزال في يده. جلست وقال:

- بوفيه على قد الحال. لا تلمني.

كان البوفيه صغيرًا للغاية وقذرًا، يذكرك ببوفيهات المصالح الحكومية في مصر.

دولاب معدني صدئ صغير معلق على الحائط بلا أبواب، وعلى أرففه الثلاثة علب وبطرمانات للشاي والسكر والقهوة. وتحت الدولاب بوتاجاز مسطح فوق منضدة خشبية، يبدو أن نبيل هو الذي صنعها من خشب قديم غير مهذب، وعلى المنضدة أكواب وفنجانان، وفي الركن الآخر من البوفيه ثلاجة «وستنج هاوس» كبيرة وبيضاء.

- شيء غريب يا أخي! يشتمون السادات شتيمة فظيعة. كل المجلات هنا تشتم السادات!

- هل تحب السياسة؟

- أبدًا. عابد يشتري المجلات ولا يقرؤها فأقرؤها أنا!

ضحكنا وعاد يتكلم:

- يقولون إنه سبب حرب لبنان، وضياع فلسطين، وعميل للأمريكان.. أنا أعرف أنه عميل للأمريكان.. كل شيء في مصر أصبح أمريكانيًّا. ثلاجات وغسالات وملابس. أنا مثلًا لن أشتري شيئًا من هنا لأن كل شيء هناك - وسكت لحظة ثم ضحك وضرب جبهته بيده - إنهم لا يقصدون ذلك. عميل يعني جاسوسًا!

وضرب الأرض بالمجلة وتركها ووقف يسألني:

- تشرب شاي؟

- قهوة.

أجبت وأنا أضحك وتناولت المجلة أقلّب صفحاتها بينما انشغل هو بإعداد القهوة التي قدمها لي وقال:

- الغريب أنك حين ترى السادات في التليفزيون يصعب عليك. يذكرك أحيانًا بفؤاد المهندس.. أيّ والله.. لكن.. فلسطين ضاعت من زمان، وحرب لبنان قائمة من زمان أيضًا، أمعقول أن السادات هو السبب؟ بلا سياسة.. بلا نيلة.

وتناول المجلة التي كنت وضعتها على الأرض، ومزقها ووضعها في سلة المهملات وأنا أضحك حتى دمعت عيناني... وسكتنا طويلًا حتى قال:

- والدي الله يرحمه كان له في السياسة.

- أبوك؟

- أظن المسألة واضحة يا إسماعيل.

ضحكنا وأنا لم أكن أقصد شيئًا. أدهشني حضور بديهته وطريقته في الكلام اليوم.

- زمان. زمان جدًّا. كان أبي من الإخوان الذين اشتركوا في حرب فلسطين. عاد مقطوع الذراع والساق. أيّ والله، الساق اليمنى والذراع اليسرى! شيء لن يصدقه أحد! لكن هذا ما حدث (وبدا جادًّا فجأة) كان سببًا في تعاسة الأسرة. لا عمل ولا قدرة ولا أحد يسأل. قامت الثورة ولم يبق للإخوان قيمة. هكذا كان أبي يقول. وهكذا حدثتني أمي فيما بعد. أنا ولدت يوم قامت الثورة. اليوم نفسه. لا تسألني كيف استطاع أبي ذلك فأنا أشبهه تمامًا وأكثر إخوتي شبهًا له. صورته لدينا مُعلّقة للآن. كان لي خال مجنون يساعدنا ويأخذني إلى الإذاعة في عيد الثورة، بعد أن أصبحت قادرًا على المشي والكلام. كان هناك أطفال كثيرون يذهبون في اليوم نفسه. أطفال كثيرون جدًّا ولدوا يوم الثورة. كانوا يذيعون أسماءنا ويعطون كل طفل باكو شيكولاته ونصف جنيه. أمي قالت جنيه. كان خالي يأخذ الفلوس ويعطيني الشيكولاته. ما علينا. لا تضحك من فضلك. هذه حقائق وليست قصصًا. صدقني.

جاء يوم كان أبي كعادته ممددًا في حوش البيت الواسع يتشمس. كان النهار يطلع فيخرج إخوتي الأكبر مني للعمل، وتخرج أمي إلى السوق، ويزحف أبي

إلى حوش البيت، وأنا ألعب حوله. بيتنا قديم جدًّا من أيام المماليك، حجراته واسعة تسكن في كل حجرة أسرة كاملة، وللبيت بوابة ضخمة لها ضلفتان من جذوع الأشجار المحاطة بالحديد. بوابة مفتوحة لا يمكن لأحد أن يحركها لأن التراب علا حولها من أسفل. تصور أنه فوق البوابة توجد سورة الفاتحة منحوتة في الحائط بلون أزرق باهت وتحتها خان السنجقدار.. ولا يوجد اسمه. يوجد فقط اسم الذي بنى البيت المعلم محمد إبراهيم وولداه إسحاق ويحيى. هذا مكتوب على البوابة. لقد تركناهذا البيت بعد ذلك وسكنا في شقة مستقلة في الحي نفسه. حي المدبح بإمبابة كَبَرْنا وصرنا رجالًا. ثلاثة إخوة وأربع أخوات. واحد من إخوتي في السجن الآن. كان موظفًا بالبريد واختلس فلوس التوفير! أيّ والله لا تضحك!

نعود إلى أبي. في ذلك اليوم الغريب جدًّا دخل حوش البيت جملٌ هائج. جمل عالٍ كأنه قطار. داس فوق أبي الذي لم يستطع الحركة ولا الصراخ. ربما صرخ ولم يخرج صوته. أنا كنت في طرف الحوش أصرخ، والجمل يدوس فوق أبي مرة ومرة ومرة. يتراجع ويهجم على أبي الذي يرفع ذراعًا واحدة لا تصل إلى عنق الجمل وساق واحدة لا تصل إلى بطنه. لقد خَرَجَتْ النساء من الحجرات، والأطفال، ووقف الجميع يصرخون. لم يكن هناك رجل واحد. كل الرجال كانوا قد خرجوا يعملون في المذبح القريب. وفجأة قفز إلى الحوش خمسة من الرجال معفرين منكوشي الشعر كأنهم الهنود الحمر يمسكون حبالًا وسواطير وسكاكين، لكنهم وقفوا مذهولين. كانوا هم أصحاب الجمل، وكان الجمل يبتعد عن أبي وعلى خطمه زَبَدٌ كثير، وأبي سَكَنَ ولم يعد يرفع ساقًا ولا ذراعًا. وقف الجمل يتنفس متعبًا، ثم أناخ بهدوء على الأرض والرغاء على خطمه ينثال على التراب ثم مَدَّ عنقه كمن ينام وانقلب على جانبه، والرجال الهنود الحمر تقدموا منه بحذر، وعقروه من رقبته، وجروا إلى الخلف، لكن الجمل لم ينهض ولم يهج. فقط رفص رفستين وسكت مثل أبي.

وسكت نبيل طويلًا. أطرق ينظر إلى الأرض ويخفي دمعًا يحاول الانسياب، ثم رفع إليّ وجهه وهو يمسحه بكفيه، وابتسم وقال:

- عملت بنصيحتك. لم أرسل لخطيبتي شيئًا هذا الشهر. لم يصلني منها خطاب بعد. أيضًا لم أرسل لأمي ولم يصلني منها خطاب.

***

عدت إلى حجرتي أشعر بأن شيئًا ثقيلًا فوق كتفيَّ يكاد يحني ظهري. وكان اليمني الجالس في الشمس ينتظر نظرتي وابتسم. لم أبتسم وكدت أقترب منه. أود لو صرخت فيه هاتفًا: لماذا تخايلني كل يوم بابتسامتك البلهاء؟ من الذي أعطاك حق الجلوس بلا عمل؟ ماذا تعرف هنا عني حتى تبتسم لي؟ لكنني دخلت الغرفة وسمعت صوت سيارة تدخل الباحة مسرعة. ليكن من يكون فيها. لديّ إجابة جاهزة عن السؤال السخيف. لم يتصل أحد يسأل عن شيء في غيابك يا عابد ويا عم عبدالله. لكن الذي دخل الغرفة كان عابدًا ومعه شاب مصري يرتدي بدلة أنيقة، وله وجه حسن، ونظارة بيضاء، وشعر أسود مهذب، ويحمل حقيبة سمسونايت لامعة.

لم يسألني عابد عن شيء. جلس خلف المكتب المجاور للخزانة، وجلس الشاب الأنيق أمامه، وجلست أنا إلى مكتبي.

- الأستاذ إسماعيل زميلنا.

قال عابد للشاب الذي قام يصافحني بدماثة ثم جلس.

وخاطبني عابد:

- الأستاذ عبدالحميد مندوب بنك الدلتا جاء إلينا لترويج سندات بنكية، هل تحب الاشتراك فيها؟

- ليس الآن.

- أنا كنت أعرف - وخاطب المندوب - أنا سأشتري بعشرين ألف دولار.

قال ذلك ونظر إليّ، وفتح المندوب الحقيبة يخرج أوراقه فقمت وتركت المكان كله. كان عابد بالبلدة ويستطيع إنهاء الشراء هناك، لكنه أتى بالمندوب ليرد لي ما تصور أنه إهانة من روز ماري التي جاءت تسأل عنه فجلست معي، ووجهت لي الدعوة أمامه، ولم تذهب معه إلى حجرته.

***

أخذتني قدماي إلى الجراج. ورآني أرشد ونحن نشرب الشاي أحملق في طبعة جريدة «الشرق الأوسط» الإنجليزية الموضوعة على المنضدة بيننا.

- لا عليك مستر إسماعيل. هذه مشكلاتنا في باكستان.

قال ولم يأخذ الجريدة ولم يعتذر عن وجودها في العمل. لم يعد يخشى جانبي. في الجريدة مقال يشغل مساحة كبيرة عنوانه: «الرأي العام يضغط من أجل إنقاذ بوتو». وكنت أعرف من الصحف والإذاعات أن بوتو ينتظر محاكمة ثانية بعد أن قدم التماسًا بإعادة النظر في حكم الإعدام. وقال:

- ضياء الحق يطبق الشريعة الإسلامية الآن. إنه يستجدي المملكة السعودية مستر إسماعيل.

سألته:

- هل تعتقد أنه سيعدم بوتو فعلًا؟

أجاب:

- سيقتله. ولو استطاع أن يقتله مرتين لفعل مستر إسماعيل.

ورأيت نبيلًا يدخل مضطربًا إلى الورشة يخاطبني:

- تعالى بسرعة عم عبدالله يسأل عنك.

سبقني في العودة ومشيت خلفه مسرعًا. أصابني بعدوى الهلع الذي كان في عينيه، لكنني فكرت هل يتصور أرشد أني مهتم بالسياسة إلى هذا الحد. وفكرت أيضًا كيف فسد اليوم كله.

***

14

اشتد البرد. اليوم هو الثاني والعشرون من ديسمبر. في الصباح نجد المياه في الحنفية مجمدة. هذه حالة لا تحدث إلا في البيوت العربية المكشوفة التي يظل الطلّ ينام في ردهتها طول الليل. المشي في الردهة الصغيرة من الغرفة إلى دورة المياه كأنه سباحة في بحر من الثلج. التليفزيون الآن له طعم مختلف، لا يذكّرني بأن الدنيا أكبر مما حولي، يشعرني بالدفء، نشاهد برامجه في غرفة فاروق الخالية.

- لسنا في حاجة إلى شريك رابع.

قال وجيه:

- نجعل غرفته غرفة معيشة.

أردف سعيد. انقطعت أخبار فاروق تمامًا. لم يرسل إلينا ولم يأت له ذكر في خطابات أسرتي، ومضت ثلاثة أشهر هي مدة الفيزا التي خرج بها. لن يعود.

نقلنا إلى غرفته منضدة جعلناها سفرة وبعض مقاعد وتركنا سريره كما هو. أحْرصُ أن يكون صوت التليفزيون عاليًا ويدهش سعيد ووجيه. أقول إن موجات الصوت تُزاحم موجات البرد وتطردها من الغرفة، يقولون إنني داخل على مرحلة من الجنون، ونضحك. في السادسة والنصف صباحًا أغادر البيت. أجد سيارتي أمام الباب مغسولة بالندى، وكل يوم تملأ الفضاء شابورة كثيفة لا تنقشع قبل التاسعة. بعد أن أدخل إلى سيارتي مرتجفًا وأغلق بابها وأديرها، أنفث بخار الماء من فمي، وأتذكر مبارياتي مع الأطفال في طريقنا إلى المدرسة. من الذي ينفث بخارًا أكثر لوقت أطول. كل يوم الآن أفعل ذلك وأضحك.

اليوم اختلف. صحوت أشعر بغثيان. ذهبت إلى الحمام وبقيت فيه بعض الوقت أستجيب للرغبة في القيء ولا يحدث. عدت إلى الغرفة غير قادر على الوقوف. تمددت فوق السرير وسحبت الغطاء فوقي أفكر ألا أذهب إلى العمل، لكني ذهبت مضت نصف ساعة وأنا متردد بين الذهاب والبقاء فوصلت متأخرًا.

***

أين أنا؟

ورأيت أشياء رمادية وأشياء بيضاء، وميزت من بينها وجه عايدة قريبًا مني.

- لا تضع يدك فوق الجرح. لقد مَرّت بسلام.

سمعت صوتها: أذكر ذلك وأنا أستيقظ للمرة الثانية. هذا هو الدكتور وجيه يجلس على مقعد جوار رأسي يبلل شفتيْ بقطعة قطن مغموسة بالماء وأنا ممدد فوق السرير. في الغرفة ثلاثة أسرة أخرى عليها ثلاثة رجال نائمين لا أرى وجوههم. أنا في المستشفى والوقت ليل فنور الغرفة مضاء.

- ماذا جرى يا دكتور؟

- لا شيء. داهمتك الزائدة الدودية فاستأصلناها.

- معقولة؟!

- ذلك يحدث للناس كل يوم.

- أنت الذي أجريت العملية؟

- كنت تحب أحدًا غيري؟

- لا... أشكرك جدًّا.

وأحسست بأسفي. لم أقصد من سؤالي شيئًا وقال:

- لا تتحدث كثيرًا. الأفضل أن تنام. نحن الآن في منتصف الليل. في الصباح احرص على أن تمشي قليلًا.

ثم وقف وقال:

- يوجد طبيب نوبتجي وممرضة إذا احتجت شيئًا جوارك زر جرس اضغط عليه. هل تطلب شيئًا قبل أن أمضي؟

- أين عايدة؟

- تعمل بالنهار. أما زلت تذكرها؟

أجاب وانصرف على الفور ولم ينس إطفاء النور.

***

ظللت يقظًا في ظلام الغرفة. أذكر الآن كل شيء. لقد وصلت إلى العمل متأخرًا فأخبرني عابد بغضب عم عبدالله وكيف اضطر هو إلى فتح مكتبي لإخراج دفتر الحضور للعمال. ولما سألته كيف فتح المكتب قال: عليّ أن لا أنسى أن المكتب والغرفة كلها كانت له من قبل.

حاصرني الضيق وأحسست بمغص مفاجئ والرغبة في القيء عاودتني، والغثيان كاد يفقدني توازني. أسرعت إلى دورة المياه ووقفت أمام الحوض أفرغ ما في جوفي، ولم أكن تناولت إفطاري بعد. خُيّل إليّ أن معدتي ستقفز من فمي، وتفصَّد عرق شديد على جسمي، واشتعلت الحرارة في وجهي، ولم تعد قدماي تستطيعان حملي، فأمسكت بحنفية الحوض بيديَّ الاثنتين، ولم أدرَ بعد ذلك إلا وأنا أستيقظ في المساء في المستشفى. لا بد أني سقطت على الأرض. زائدة ملعونة بحق تلك التي أخذتني بغتة بلا إنذار. هل يكون الموت مختلفًا عن الوقت الذي مضى وأنا مخدَّر فيه لا أشعر بشيء؟ لا أظن. الموت سهل إذن. لا أدري لماذا فكرت في ذلك الآن. ربما لأنه المستشفى الذي مات فيه فيليب منذ أيام. لقد ظللت أسرع خلف نبيل حين ناداني وأنا عند أرشد، وعند بوابة الشركة توقف وقال:

- مات فيليب. عم عبدالله حزين جدًّا..

ولم يقل شيئًا آخر. انحرف إلى البوفيه وتركني أتقدم ببطء إلى غرفة عم عبدالله ذاهلًا. رأيت على وجهه غيظًا مكتومًا قال:

- سَوِّ لفيليب مكافأة نهاية الخدمة. شهر ونصف الشهر عن كل سنة وأخبرني كم يصير له.

كنت أعرف أن فيليب أو غيره يستحق مكافأة نهاية الخدمة شهرًا فقط عن كل سنة، ولأني أعرف أن فيليب يعمل منذ خمسة أعوام قلت:

- سبعة وثلاثون ألف ريال ونصف.

- أمتأكد؟

- أجل. كان ملفه على المكتب في الصباح أمامي أنقل منه بيانات لاستمارة الضمان.

- اجعلها خمسين ألفًا. قل على مسئولية المدير - ثم خاطب عابدًا الذي كان يقف جواري - وأنت تذهب في الصباح بالمكافأة لزوجته. تنصرف الآن لتجهيز الصندوق الذي ستشحن فيه الجثة إلى سيلان. تدفع ثمن الشحن وثمن التذاكر لزوجته وأولاده واحجز لهم على أقرب طائرة.

-ألن يدفن هنا في المملكة؟

تساءل عابد، فصرخ فيه عم عبدالله:

- إيش يعني يُدفن بالمملكة؟ لأنه أسلم؟! يدفن في بلده بين أهله.

وسكت فانصرفنا وأنا أشعر بالرثاء لعابد الذي يبدو ملكيًّا أكثر من الملك.

دخلت غرفة مكتبي وجلست صامتًا. وإذ بمنصور الذي يختفي كثيرًا يظهر داخلًا والقرد فوق كتفه، ويقول بعد الجلوس:

- هه! كان يريد الحصول على الجنسية. كان يريد البقاء في المملكة. قتل نفسه. ذهب اليوم للشيخ بالمحكمة ليشهر إسلامه. انتهى كل شيء وحولوه إلى المستشفى للختان فمات.

- ختان؟!

- طبعًا. ما في ختان في مصر؟

نظرت إليه غير قادر على التخلص من دهشتي. واستطرد:

- ختان رجل مثل فيليب ليس سهلًا. عملية جراحية.

لم أكتف بما سمعت، ولم يكن أحد يعرف شيئًا آخر. في البيت سألت وجيهًا فلم يقل أكثر من ذلك أيضًا وأنا لا أصدق. وجيه الذي لا يريد أن يوضح لي كيف مات فيليب يخفي عني أمرًا. وجيه هو الجراح الأول بالمستشفى. ما

يدريني أنه لم يخطئ وتسبب في موت فيليب. لكن هل يخطئ طبيب مثله في الختان؟ لا أظن أن روح الغازي المتعالي صاحب التميز تجد لها وسيلة للتعبير في غرفة العمليات. غرفة العمليات مثل غرفة العبادة، يعمل فيها الطبيب بإخلاص في المريض الذي أسلم له روحه. أيكون وجيه سيئًا إلى هذا الحد؟

صرت أنظر إليه ويتحاشى هو نظراتي. لعله فهم ما أفكر فيه، ولعل ذلك هو الذي جعله يسألني اليوم ما إذا كنت أحب لو أجرى لي العملية أحد غيره.

لم أستطع أن أتقبل موت فيليب بسهولة. صرت عازفًا عن الكلام في العمل وفي المساء ذهبت إلى واضحة، فقالت:

- لماذا تبدو كثيرًا على غير ما يرام يا أستاذ. هل تضايقك بلادنا إلى هذا الحد؟

سكتُّ.. تأملت عينيها، فأرخت أهدابها فوقهما، لكن كان لا بد أن تَرفعَ الأهداب، أنا لا آتي إلا وروحي منجذبة للحضور، إلا وقلبي فرح جذلان. لكن دائمًا ما يحدث شيء يلفني بالاختناق. وحكيت لها قصة الطبيب المصري الموقوف الذي رأيت بيته في الطريق مرة، فغاض الدم من وجهها، وحكيت لها قصة فيليب، فابتسمت في خجل. قالت ذلك يحدث في كل الدنيا وستنساه. ثم قالت بغضب إنها لا تفهم معنى دخول هؤلاء الناس في الإسلام، ولا تصدق أنهم حين يعودون إلى بلادهم يحتفظون بالإسلام. تفهم هي بنت البلاد بحسها العفوي كذب الأمر كله. بالضبط كما يفهمه منصور. لكني أرى في حالة فيليب بعض الصدق ولا أستطيع الدفاع. رجل تجاوز الخمسين ولديه من الأبناء عشرة لا يكذب. رجل ضعيف يحاصره الخوف من العودة إلى بلاده من دون أن يكون قد حقق ما أراد لأولاده فاختار أصعب الطرق. ينخلع من جذوره.

قلت لها سأحاول أن آتيك بعد ذلك خالي البال، فابتسمت وراق لي وجهها، وعدت أنظر إلى غزارة شعرها، فتتحرك في جسدي طاقة خفية، وأشم عطرها الغامض فأنكمش ويحاصرني الخوف. وقالت إنها تحب مصر كثيرًا وتتمنى لو زارتها، وإن جَدّها يقول إن أهله في مصر كثيرون ولو سافر واحد منا إليهم لاحتفوا به. وسكتت وقالت: المشكلة أن جَدّها لا يذكر أين يعيش أهله ولا أين كان يعيش، ثم ابتسمت وقالت: مسكين شاخ وفسد. وسألتني هل أعرف مصر جيدًا. قلت أعرف الإسكندرية لكن لن يكون الأمر صعبًا لو جاءت أن أعرف القاهرة وأسوان وأي مكان.. وطالت نظراتنا ثم قالت إنها

تحب الأفلام المصرية، وكثيرًا ما لا تصدقها لكنها تندهش من جمال «النسوان». وطالت نظراتنا وقلت مباغتًا: أنت أجمل، وأطرقتْ خجلًا وقالت: «الحر أفسدنا يا أستاذ»، وقلت قاصدًا: «أراك أجمل»، ورحت أقرأ وجهها فإذا بها تشرد طويلًا وتطفو على الوجه ألوان شتى من الأسى والضيق. وقالت: هل تعرف لماذا تعطيني الدرس يا أستاذ؟ هل تعرف لماذا لم نلجأ لأحد المدرسين؟ باغتتني وتأملت وجهها وقلت: أعرف يا واضحة بل إنني رأيتك فوق العربة وتحت الشمس. ورأيت عينيها تثبتان وينسكب منهما الدمع كما لو كان ينتظر خلف الباب. شَهِقَتْ وقالت: «قتلوني يا أستاذ» وأطرقتْ فوق المكتب فمددت يدي ومشيت بها فوق شعرها الغزير الناعم ثم نزلت بيدي إلى خدها الأسيل الذي كان مثلجًا ورفعتُ وجهها من تحت ذقنها. لا عذاب في الدنيا يمكن أن يرتسم على وجه كالذي رأيته على وجهها الصغير. وأخرجت من جيب سترتي منديلًا ورقيًّا ورحت أمسح الدمع وما سال على وجنتيها من كحل معه. لم أتكلم ولم تتكلم ولم يكن ممكنًا استكمال الدرس ذلك اليوم. وقفنا واقتربتُ منها فإذا بها تفتح عينيها في انبهار وارتعشت شفتاها وانحنيتُ واستطالت هي إذ لابد شبَّت على أطراف قدميها لكني لمحت الباب مفتوحًا كالعادة. ذهبت إلى الباب لأغلقه فأخذت طريقي وخرجت مسرعًا!

عدت إلى واضحة أمس أيضًا فلم أجدها. قال خالد إنها سافرت للرياض وستعود بعد أسبوع، ضحك وقال إن لها خالة في الرياض كثيرًا ما تشتاق إليها ولا تستطيع واضحة أن تتأخر عليها، وطلب إليّ الجلوس فاعتذرتُ، ومشيت أفكر هل هو صادق فيما يقول أم أن واضحة آثرت الابتعاد؟..

هأنذا بالمستشفى ولا بد أني سأمضي أسبوعًا أيضًا. النوم يتغلب عليّ الآن وأسمع صوت أذان الفجر بعيدًا في البلدة النائمة.

***

15

استيقظت في حوالي التاسعة. ما زلت أسمع «صوصوة» عصافير خارج النافذة. رأيت - وأنا أفتح عينيّ - الثلاثة الذين فوق الأسرَّة، كوريون يتكلمون والبهجة في عيونهم وضجيج غريب في أصواتهم، ورأيت أفواههم تتحرك بسرعة غريبة أثناء الكلام. ابتسمت لهم، فقالوا معًا في مرح: «جود مورننج. جود داي إن شاء الله». ابتسمتُ مرة أخرى. ورأيت عايدة تدخل الحجرة على وجهها ابتسامة رائعة، وتتألق عيناها السوداوان الواسعتان في وجهها الخمري، وتزهو ملابسها البيضاء.

وَقَفَتْ جوار السرير وقالت:

- يجب أن تنهض فورًا وتمشي في الطرقة بقدر ما تستطيع.

لم أرد وبقيت أتأمل وجهها. قلت:

- أنت عايدة؟

اقتربت أكثر وقالت:

- هيا انهض. سأساعدك.

وأمسكت ذراعي توقفني. قلت:

- سأمشي وحدي.

- إذن لا تتأخر.

وتركتني وخرجت

***

قمت ومشيت قليلًا إلى جدار الغرف، وعدت إلى السرير، فصعدتُ فوقه متعبًا ورأيت الكوريين يقفون في جلابيب بيضاء يحزمون حقائب صغيرة جدًّا.

دخلت عايدة ومعها حقنة، فكشفت لها ذراعي.

- السلام عليكم.

هتف الكوريون وهم يخرجون. لم تلتفت عايدة إليهم ولوحتُ لهم بيدي. رأيتهم يمشون متباعدي السيقان قليلًا، ولا بد أن عايدة أدركت ما أفكر فيه، ورأت الدهشة في عيني إذ قالت:

- كوريون أشهروا إسلامهم أمس.

ابتسمتُ وخرجتْ وعند الباب قالت:

- لا تحاول أن تشرب شيئًا اليوم، وطبعًا لا تأكل.

لم تعد بعد ذلك إلا عند الظهر. دَخَلَتْ وخلفها عربة المرضى يدفعها نعمان ومعها امرأة ضخمة مصرية نادتها عايدة بـ«أم زينب» وهي تطلب منها أن تضع المريض برفق على أحد الأسرّة. خرج نعمان وأم زينب يدفعان العربة الفارغة وقالت عايدة:

- زائدة دودية أيضًا. داهمته في السيارة. شاب سعودي كان قادمًا من مكة في طريقه إلى تركيا، قال ذلك قبل العملية. وشعر هنا بآلام حادة في بطنه فجاء إلى المستشفى.

ودخل الدكتور وجيه يرتدي البالطو الأبيض. بان لي طويلًا جدًّا كأني لم أعرفه من قبل. قال:

- هيه. كيف حالك، مشيت اليوم؟

هززت رأسي مبتسمًا.

- أنا مشغول جدًّا. ربما أراك في المساء. هيا يا سستر إلى العملية الثانية.

وخرج وخلفه خرجت عايدة مسرعة. رغم ما بدا لي أول مرة، من تنافر بينهما، فوجيه لا يعتمد إلا عليها كما عرفت بعد ذلك.

زارني سعيد في الثالثة وأحضر معه جلبابًا وساعدني في خلع جلباب المستشفى القذر. ابتسمت وأخبرته بشعوري حين أرتدى الجلباب، فضحك وقال: عليّ أن أتحمل الهواء في فخذي هذا الأسبوع. وأحضر معه أيضًا علبة

كبيرة من عصير البرتقال الجاف وثلاثة أطباق صيني وكوبًا وملعقة وشوكة وسكينًا وبعضًا من ثيابي الداخلية وبطانية لأضعها فوقي وفوقها بطاطين المستشفى القديمة. وبعد سعيد جاءني نبيل. أطلَّ عليّ بوجهه يضحك من الباب. أحضر لي علبة من الشيكولاتة وقال إنه كاد يموت حين رآني ملقى على الأرض في دورة مياه الشركة. قال إنه سمع صوت سقوطي وهو في البوفيه. خرج ليرى مصدر الصوت فلم يجد شيئًا أمامه ولا يعرف ما الذي هداه للذهاب إلى دورة المياه فوجدني ممددًا على الأرض. وضحك وقال: «أنت ثقيل جدًّا». هو الذي حملني بعد أن صرخ. وجاء عابد يجري فنقلاني إلى المستشفى وقال: إن أرشد حزين جدًّا لأجلي، ومنذر صرخ وقال: مياه الآبار ملعونة، وضحك نبيل وقال: إن روز ماري اتصلت تسأل عني، وأنه كان موجودًا بالمكتب فرد عليها. قالت له: «آيزه إسماعيل» فقال: «إسماعيل هوسبيتال» اندهشت وقالتْ: «هوسبيتال!» فقال هو: «ييس أوبريشن». وسألني: هل أخطأ في الإنجليزية. وضحكتُ وأحسست بألم في الجرح من شدة اهتزازي، فتماسكت، وقلت له أن يسكت، فلن أستطيع الضحك أكثر. ضحك وقال: «إذن أغمك. وأكلمك عن منصور» لكني ضحكت بصوت مكتوم فقال: «سيزورك هو والقرد»، وقبلني على جبيني وانصرف.

أحسست بالعجز عن مقاومة العطش، وبجفاف شديد في حلقي وشفتيّ. ودخل نعمان إلى الحجرة، فقلت له أن يبلّ لي قطعة قطن، ورحت أمسُّ بها شفتيّ، ورأيته يقف فوق رأس الشاب السعودي النائم في حيرة، ثم التفت وسألني:

- هل أفَاقَ من البنج؟

- أفاق. كان يتكلم كثيرًا ولم أفهم منه شيئًا..

ضحك وقال:

- كل الناس هنا تتكلم. كنت قادمًا لأفيقه.

وانصرف بعد أن انتزع الوسادة من تحت رأس الشاب ووضعها عند قدميه وهو يقول: «حمارة أم زينب». ورأيت الشاب يفتح عينيه ينظر إليّ، ثم يعود يسقط في النوم.

***

في صباح اليوم التالي بدت لي الدنيا أكثر بهاءً حولي. أحسست بهزالي وشحوبي، وأن جسمي بات وكأنه من أثير.. شيء بين السماء والأرض. وأحسست كأني أستريح من رحلة صعبة أو صعدت على جبل عالٍ وجلست فوق قمته المنعشة وفتحت مسام جلدي للهواء النقي. فكرت في الأمس كيف مضى جميلًا. زارني عابد أيضًا لدقائق وزارني بعده أرشد وجلس صامتًا يتأملني غير مصدق. وقالت لي الممرضة التي تعمل بالليل: إن شخصًا اسمه منذر جاء يسأل عني فوجدني نائمًا وانصرف بعد أن ترك لي هذه اللفّة. فتحتها فوجدت فيها جلبابًا جديدًا وفوطة جديدة كبيرة وزجاجة كولونيا أولدسبايس. يا إلهي! كل هؤلاء أسرعوا يروونني ويطمئنون عليّ. لا بد أن الأمور على غير ما يبدو لي.

وأهلّت عايدة من الباب بابتسامة أكثر ألقًا من الأمس. لعلّي أنا الذي صرت أكثر عافية وأفضلَ استقبالًا لما أراه.

- تستطيع اليوم أن تشرب.

ووقفتْ جوار السرير تعد لي كوبًا من عصير البرتقال قدمته لي وقالت:

- ليس كله.

شَربْتُ وهي تنظر إليّ لا تكف عن الابتسام. وضعت الكوب فوق الكوميدينو وابتسمتُ. سألتها:

- لماذا لم أرك أمس آخر النهار؟

- أجرينا عمليات كثيرة وعدت إلى «السكن» في غاية التعب.

- طيب. يبدو أنك تضحكين لشيء تريدين أن تقوليه..

- إطلاقًا.

وعادت تبتسم ثم سألتني:

- من هي واضحة التي رددت اسمها كثيرًا وأنت في البنج. هل هي مصرية؟ هذا اسم سعودي.

إذن أفشيت كثيرًا من الأسرار، تجاهلتُ الأمر، وسألتها:

- أي أسماء أخرى قلتها؟

ابتسمت وقالت:

- البلتاجي. كامل آرون. أول مرة أسمع كلمة آرون. هل هو اسم؟

هززت رأسي باسمًا واستمرت هي:

- فيليب. لقد كنت تردد فيليب كثيرًا جدًّا. أكثر من كل الأسماء. مِنْ واضحة. أيضًا سيد الغريب. هل تعرفه؟

أشرت لها بيدي أن تجلس على المقعد المجاور للكوميدينو فجلست. بدت كتلميذة طيّعة. تَنَهّدت وقلتُ:

- أنا أريد أن أسألك عن فيليب.

- أنا لا أعرفه.

- فيليب سوساس بيليا. رجل أسود طويل له وجه قوي. سيلاني أشهر إسلامه وجاء هنا للختان ومات منذ أيام.

أغمضت عينيها ووقفت سحابة داكنة خفيفة على وجهها، ثم ابتسمت وقالت:

- يحدث هذا كثيرًا.

-أريد الحقيقة.

- ليس الدكتور وجيه على أي حال. لم تكن نوبتنا، جراح سعودي مبتدئ لكنه أيضًا ليس خطأ الجراح. خطأ معمل التحليل الذي اختلطت عنده عينة الدم. حلل عينة مريض آخر باعتبارها عينة فيليب. جاءت العينة سلبية في كل شيء. لكن فيليب مصاب بضغط دم مرتفع جدًّا. اندفع الدم بقوة ولم يكن هناك سبيل لإيقافه فمات!

هذه هي المسألة إذن. خطأ تافه. لكن هل يحتاج الأمر إلى أن يخفيه وجيه عني؟ ربما لأن الطبيب سعودي. وقالت عايدة: إن إخصائي التحليل بالمعمل سعودي أيضًا، ثم سألتني:

- لماذا تهتم به؟

- كان صديقي.

قلت وسمعنا نحيبًا شديدًا فجأة من الشاب الصغير الذي معي في الغرفة. قامت واتجهت إليه.

- لماذا تبكي يا ياسر؟ يؤلمك الجرح؟

قال ياسر الذي سمعت اسمه لأول مرة:

- الجرح هين يا ست عايدة.

جلست على مقعد مجاور لسريره وقالت باسمة:

- تريد أن تعود إلى مكة.

- أريد أن أرى أمي.

نظرت إليّ في دهشة. يبدو ياسر صغيرًا حقًّا في حوالي العشرين، لكن لا يظن أحد أن شابًّا في سنه يبكي ليرى أمه. قالت:

- ستراها بالتأكيد. أيام قليلة وتراها.

- أمي هنا في تبوك.

وعادت تنظر إليّ في دهشة، وقال ياسر:

- أنا من مكة، لكن أمي من تبوك. لم أرها منذ مولدي. طَلّقَها أبي وذهب، يعيش في مكة وأخذنا معه أنا وأختي. لم يسمح لنا أبدًا برؤيتها أو السؤال عنها وهي لم تأت يومًا إلينا. أنا أعرف أنها من تبوك واسمها «صالحة» وهي خثعمية. أريد أن أراها.

قال ذلك وعاد يجهش بالبكاء. وبدت عايدة شاردة الذهن، ثم قالت:

- سأحضر لك أمك بشرط أن تكف عن البكاء.

تطلع إليها بعينين واسعتين متوسلتين وقال:

- سأفعل. أحضريها لي الله يرضى عليك.

وتوقف عن البكاء ونام على الفور. نام نومًا حقيقيًّا. وقامت عايدة واقتربت مني وقالت:

-هنا يتزوج الواحد أكثر من واحدة، وتعيش الضرائر بلا ضغائن، لكن لم أسمع أبدًا برجل يحرم زوجته من أبنائها. هنا تفرح الزوجة أحيانًا بزواج زوجها من امرأة جديدة لأنه يضطر إلى أن يقدم إليها كل ما يقدمه للجديدة من ذهب.

- هل ستجدي أمه فعلًا؟

- سأجدها. لدينا هنا خادمة سعودية اسمها «وَخَبَة» تعرف كل شيء في تبوك، ولن تعجز عن الوصول إلى أمه صالحة الخثعمية كما يقول.

وَخَرَجَتْ، ورحتُ أنا أتطلع إلى الشاب الذي نام بوداعة الطفل الصغير.

***

أقدام مسرعة تدب في الطرقة خارج الحجرة، وضحكات نسائية تأتي من بعيد، فقمت على مهل، وغادرت السرير، ودفعت الباب أتطلع إلى الزحام في آخر الطرقة. رأيت عددًا من المرضى الرجال وبعض الممرضات. ورأيت عايدة تقف على باب مكتبها، وتشير إليّ أن أدخل إلى غرفتي. تقدمت منها.

- ماذا يجري؟

- شيء سخيف.

ودَخَلَت مكتبها غاضبة لا أدري لماذا. دفعني حب الاستطلاع إلى أن أتقدم في الطرقة حتى وصلت إلى الزحام، وإذ بالدكتور وجيه يظهر فجأة غاضبًا صارخًا في المزدحمين بالانصراف، ولم يبقَ واقفًا غير طبيبة باكستانية وأنا. رآني وجيه ولم يكلمني وحدّث الطبيبة الباكستانية بالإنجليزية:

- ماذا تفعلين يا دكتورة؟

- ليس هناك طريقة أخرى.

- لكن هذا لا يجوز في المستشفى!

- هما طلبا ذلك. ثم إن هذا عملي.

نظر إليها بغيظ شديد، وانصرف من دون أن ينظر إليّ، ثم توقف فجأة والتفت يقول للدكتورة الباكستانية:

- هذا مستشفى يا دكتورة وليس قسم بوليس.

وبدا أنها غير آبهة له، وعاد الزحام من المرضى والممرضات، والدكتورة الباكستانية تنظر إليهم ببلاهة غريبة، وسمِعْتُ ضجة داخل الحجرة المغلقة، أصواتًا مختلطة: مواء وعواء وشخيرًا وصراخًا وشتائم وأنفاسًا متلاحقة ووقع أقدام سريعة وأشياء تقع ثم صمتًا طويلًا وأنفاسًا متعبة ثم فُتح الباب فظهر رجل سعودي متوسط العمر ممزق الثياب، في عينيه غضب ناري، ولَمَحْتُ خلفه امرأة جالسة فوق السرير تغطي نفسها بالملاءة البيضاء وشعرها منكوش وعيناها دامعتان.

- هذه مجنونة.

هتف الرجل، ومَرَّ من بين الزحام كما تشطر السكين قطعة الزبد! وسقطتْ غترته التي كانت منزلقة على كتفه إلى الأرض فلم يهتم بأن يأخذها. ودخلت الدكتورة الباكستانية الحجرة وأغلقت الباب وسمعنا نحيبًا طويلًا هادئًا وانفض الزحام.

شاعت الحكاية في المستشفى بسرعة، وعرف الجميع أن الدكتورة «سردار» الباكستانية سمحت لرجل أن يعاشر زوجته في إحدى غرف المستشفى. جاء يشكو زوجته وكيف أنها تكره أن يعاشرها، وكانت زوجته معه، فقالت إنه هو الذي لا يستطيع، ولقد جاءت معه لتساعده على أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه خدعها ودخل بها إلى طبيبة النساء. وهَدَّأت «سردار» من روعهما وجلست معهما طويلًا تتحدث بلغة عربية متعثرة عن الهدوء النفسي الواجب قبل لقاء الزوجين، وفجأة أقسم الرجل أن يعاشر زوجته هنا في الغرفة نفسها لتعلم الدكتورة أنه سليم، وتحدّته زوجته ووافقت فأغلقت عليهما «سردار» الباب!

***

- كيف يحدث ذلك؟!

سألتُ عايدة التي دخلت تعطيني قرص «الأمبيسلين». قالت دون أن تنظر إليّ:

- عالم مجانين..!

وظهرت امرأة سوداء جدًّا وقصيرة وسمينة عند الباب، فقالت عايدة:

- إيه يا «وَخَبَة» وجدتها؟

- ها هي ذي معي.

وأفسحت طريقًا، فدخلت امرأة أخرى قصيرة وبدينة أيضًا، حول رسغيها ذهب كثير، وفي أصابعها وعلى صدرها، وتغطي وجهها بطبقات من الحرير الأسود، سَألتها عايدة:

- أنت صالحة؟

- نعم.

- هذا ابنك ياسر.

لم ترد المرأة.. تَقَدّمَتْ وكانت «وخبة» قد تركت الباب وتراجعت، ونظرتُ إلى عايدة التي بدأ دمع يترقرق في عينيها. تَوَقَّعْت مشهدًا عاصفًا بالدموع، وجلستْ المرأة على كرسي جوار سرير ابنها عند رأسه، وتقدمت عايدة ووقفت أمامها توقظه. فتح ياسر عينيه ونظر إلى المرأة الجالسة، وقالت عايدة بصوت مخنوق:

- هذه أمك يا ياسر!

اعتدل ياسر بسرعة، واستند بظهره إلى ظهر السرير، وهتف بصوت هامس:

- أمي.

قالت المرأة بصوت عال:

- كيفيك ياسر. كيف أختك حصة؟

ولم ترفع الخمار متعدد الطبقات عن وجهها. تأملها ياسر وقال هامسًا:

- بخير.

- كيف الشيبة؟

- بخير.

- تعيشون في مكة؟

- ما زلنا.

- الله معكم.

وقامت وانصرفت وعايدة تنظر إليّ وأنا أنظر إليها،ونظرتُ إلى ياسر، فهز كتفه، وقال:

- أمي صارت مجنونة.

- وسَكَت ولم ينظر إلى أحد.

***

لم يكن من الصعب قتل الوقت. جاءت سيارة في اليوم التالي، وأخذت ياسرًا إلى مكة. وكان دائمًا معي في الغرفة واحد أو اثنان، لكن لا علاقة بيننا ولا حديث. لقد حول وجيه غرفتي إلى غرفة ملاحظة يمضي فيها المريض قليلًا من الوقت قبل أن يغادر المستشفى أو ينتقل إلى حجرات المرضى، وحوّل غرفة الملاحظة الأصلية إلى غرفة استقبال طويل. فعل ذلك حرصًا على راحتي كما قال.

تَفَرَّغْتُ لقتل الوقت باستطلاع ما يجري. في اليوم التالي لحادثة الدكتورة «سردار» أتت الشرطة لتحقق في شكوى رجل من البادية يدّعي أنه أحضر ابنته الصغيرة المريضة إلى قسم الأطفال فخطفتها الممرضة المصرية. رأيت الممرضة تقف في الصالة بين ثلاثة من رجال الشرطة بينهم ضابط وعلى وجهها ذعر شديد. كانت عايدة وعدد من الممرضات يبتسمن ويضحكن. قالت الممرضة المتهمة إن ابنة الرجل موجودة، وإنها هذه التي تمسك بيدها! وقال الرجل إنها ليست ابنته!

طفلة في الثالثة سمراء شعرها غزير وعيناها واسعتان عسليتان ترتدي فستانًا بمبي مدندش الذيل بدائر أخضر من الدانتيلا وفي جانبي رأسها «فيونكتان» من شرائط الحرير الأحمر. كانت بحق جميلة. يزيد من ذلك أنها صامتة لا ترد على كلام أحد. قالت الممرضة إن كل ما فعلته هو أنها رأت البنت جميلة في ثياب قذرة فأخذتها إلى «السكن» وألبستها هذا اللبس الجميل بعد أن أدخلتها الحمام وقصت أظافرها ودرّجت شعرها وعطّرتها؛ ولكن الرجل كان لا يزال يقسم أن هذه البنت ليست ابنته، وأنه لن يتنازل عن ابنته ولن يتنازل عن سجن الممرضة المصرية التي فجأة زاغت عيناها إلى بعيد وبدا أنها لم تعد تدرك ما حولها، ثم صرخت بإيقاع طويل، ففزع الضابط والشرطيان..

وتراجعت الممرضة وهي تكرر الصراخ، وأسرعت عايدة وزميلاتها يتلقينها قبل أن تسقط فوق الأرض، واستطعن إدخالها إلى غرفة الممرضات القريبة، وأغلقن الباب خلفهن. سمعنا ضجة وصراخًا مستمرًّا.. وفجأة غناء في صوت شديد المرارة والسخرية: «حبيتك وباحبك وحاحبك على طول»، وبان ارتباك على وجه الضابط الذي أمر الرجل البدوي أن يأخذ البنت ويمضي. من يقول إنها ابنتي؟ أنا أقول. صربخ فيه الضابط سأذهب للملك. اذهب للشيطان!

وحمل الرجل البنت على ذراعه، وانصرف في عجلة وغيظ، وانصرف الضابط والشرطيان أسرع منه.

***

استلقيت على سريري غير قادر على أن أكتم ضحكاتي. ضحكت وحدي بالغرفة وصار صوتي مسموعًا. أطلت عايدة بوجهها تضحك. ثم قالت:

- طبعًا أنت تستغرب؟!

وظللت أضحك ثم وجدت أنه لم يعد لائقًا ذلك فسكت وتأملت وجهها المبهج. لا بد أنها أدركت أن إحساسًا بالراحة صار يشمل جسمي وروحي فأنا أشعر بتألق عينيّ وانبساط وجهي. أرخت رموشها الطويلة وتكلمت:

- اسمها «وردة» الممرضة التي صرخت. لم يمض على عملها هنا ستة أشهر. بدأت عملها في مستوصف «ضبا»، وفي ضبا لا يوجد سكن للمرضات

غير المتزوجات. عادة لا تذهب هناك غير المتزوجة. لكن هكذا جاء تعيين وردة. كان الأطباء والممرضات يتركون المستوصف في الساعة الثانية ظهرًا إلى بيوتهم. الأطباء جميعًا متزوجون والممرضات كذلك. إلا وردة التي كان عليها أن تبقى بالمستوصف نفسه. في إحدى الغرف فوق السطح تنام. المستوصف كبير به أكثر من عشر حجرات بالدور الأسفل..

كان على وردة أن تمضي الوقت بعد الثانية ظهرًا وحتى الصباح وحدها. لك أن تتخيل حجم الأفكار التي يمكن أن تسرق العقل في بلد بعيد مقفر وفي مكان خال. أصاب وردة انهيار عصبي شديد ونُقِلتْ إلى هنا. وضَحِكتْ عايدة وقالت إن وردة تعيش الآن في سكن الممرضات. تضحك كثيرًا بلا ضابط وتتذكر كيف كانت تقطع الوقت بالغناء فوق السطح. كانت تغني للسماء والفضاء وتجري وتقفز، ثم فجأة تلطم خديها وبالليل تنكمش في أبعد ركن من غرفتها وتنتحب. الآن، بعد أن ينتصف النهار، كثيرًا ما تشرد وردة بذهنها، ثم تعود وتشرع في الغناء الذي سَمعْته. تتلبسها «عقدة ضبا» كما صرنا نسميها.

- كنت أحسبها خائفة من الضابط.

قلت ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك. وضحكتْ هي أيضًا وارتفع صوتها، وصرنا نضحك كما تقابلت عيوننا. لكن لم يكن ممكنًا الضحك في كل وقت.

***

صحوتُ على صراخ جنوني، وتركتُ سريري فزعًا أنا الذي أصحو كل يوم على صوت العصافير التي لا أراها ووجه عايدة البهيج. خرجتُ ووقفتُ أتطلع إلى مصدر الصوت القادم من الطرقة المتعامدة مع غرفتي، والمتجهة إلى عنبر النساء.

شرطيان يمسكان بامرأة صغيرة تحاول الإفلات منهما وهما يجرّانها بغلظة وغيظ. شقراء شعرها طويل يغطي وجهها وصدرها وكتفيها، ويصل إلى نصف ظهرها. اقتربا بها أكثر،ورأيتُ عينيها خضراوين، لكن وجهها شديد الاحمرار من آثار لطمات سابقة.

كانت تقع على الأرض، ويرفعانها بقوة وتتشبث بسيقانهما، والنساء المريضات يبكين أمام الأبواب، الممرضات من كل قسم وقفن ينتحبن. واقتربت وردة مسرعة تحمل طفلًا صغيرًا أسود. دخلت به إلى غرفة عايدة التي كانت تقف إلى جواري ولا أدرك. كان هناك طبيب مصري شاب يقف خلف المرأة والشرطيين يرفع نظارته البيضاء ويمسح عينيه ويمشي خطوة كلما تقدم الجنديان بالمرأة خطوة. استطاع الشرطيان أن يسحبا المرأة الصغيرة بقوة، ولم تعد تسقط على الأرض. تركت نفسها تسرع بينهما، وكل منهما أمسك بأحد ذراعيها فانفتح الروب البني عن جلباب أخضر به ورود بيضاء وبرتقالية، واتسع صدرها فبان طوقها وجيدها مبهرين، ونزلا بها السلم والطبيب خلفهما.

دخلت عايدة إلى غرفتها ووجدت نفسي أدخل وراءها. رأيت وردة جالسة والطفل على صدرها تربت على ظهره وتبكي، وعايدة خلف المكتب وضعت رأسها بين كفيها وتبكي أيضًا. قبل أن أتكلم دخلت المرأة التي كان يجرها الشرطيان إلى الحجرة في هلع، وهجمت على وردة تأخذ الطفل منها، فتركته وردة دون مقاومة، وجلست المرأة على الأرض. وبسرعة شَدَّت طوق جلبابها وأخرجت ثديها وألقمته إلى الطفل شديد السواد. راحت تنظر إلينا بعينين لامعتين مرعوبتين، وظهر الشرطيان كأنهما جِنيّان، ولكن الطبيب المصري الشاب لحق بهما وصرخ:

- اتركاها وشأنها.

كادا يهجمان على المرأة، لكنهما توقفا ونظرا إليه شزرًا فقال:

- انزلا وسألحق بكما معها. أنا المسئول.

ظلا ينظران إليه بحدة ثم انطلقا يمشيان ويدبّان على الأرض، ونظر هو إليّ، ثم انهار جالسًا على مقعد قريب. لحظة ورفع رأسه إلى المرأة التي كانت تشد على الطفل في صدرها كأنها تريد أن تخفيه فيه، وتغطيه بأطراف الروب فلا نراه، ورفعت المرأة وجهها إلينا. دموعها غزيرة، لكنها فجأة أخذت تنسكب انسكابًا وهي تنظر إلى الطبيب الشاب.

- اعطِها شيئًا تشربه يا وردة.

قال الطبيب. وفتحتْ وردة ثلاجة صغيرة أخرجت منها دورقًا به عصير برتقال قدمت كوبًا للمرأة التي أخذته وشربته دفعة واحدة. بدا لي أنها ليست هي التي تشرب فقد تركت الكوب جوارها على الأرض بسرعة وانكفأت على

الطفل ترضعه. شبع الطفل فأدخلت ثديها الصغير إلى صدرها. وتراجعت بظهرها تستند إلى الحائط كأنما تستريح إلى الأبد.

- يا أخت لا فائدة من ذلك كله. لقد تركتك تعودين لتري ابنك خمس مرات الآن.

مالت المرأة الصغيرة الجميلة برأسها إلى الخلف رافعة عينيها إلينا وتكلمت باكية:

- صدري يخذلني يا دكتور. انظر إلى الجلباب.

ونظرت أنا أيضًا، فوجدت آثار اللبن فوق صدرها وازداد نحيب وردة التي وقفت في ركن ووجهها إلى الحائط بينما راحت عايدة تمسح عينيها بمنديل صغير، وتكلمت المرأة الصغيرة الجميلة بصوت مليء بالعذاب:

- صدري يا دكتور كلما ابتعدت يَحنُّ وينزل منه اللبن.

وسكتت وتركتْ دموعها تتكلم. ورفع الطبيب الشاب نظارته، وراح يمسح دموعه بمنديل من الورق، ثم نظر إلى ساعته وبدا أنه يتماسك وقال لها:

- لقد أخذت عنوانك وهو مع سستر وردة وسستر عايدة أيضًا، ووعدتك أنني سأرسل إليك باسم الأسرة التي ستأخذه. ثقي بأنه سيأتي يوم تستطيعين فيه العودة إلى المملكة وتتعرفين إلى ابنك. إننا لن نترك أي أسرة تأخذه دون أن نعرف عنوانها.

وقام بهدوء. ومد لها يده، فقامت والطفل على صدرها، ثم قدمته ذاهلة إلى وردة التي مدت ذراعيها وحملته. وطال نظر المرأة إلى وردة. إلى وردة وليس إلى الطفل. هل كانت تريد أن تستوثق بأن التي أخذته منها بشر حقيقي؟

***

لَمْ أشأ أن أعرف القصة. حين أنزلوا جثة عبدالله بن الزبير ووضعوها على حجْرْ أمه «أسماء» العجوز الهرمة التي شارفت على المائة انحنت عليه تقبله وقيل إنها حاضت ونزل من ثدييها اللبن!

لم أترك غرفتي ولا أكلت إلا آخر النهار حين دخلت عايدة وخلفها الخادمة المصرية «أم زينب» تحمل الطعام.

- نسيت أن أحضره لك في الغداء. لا يمكن أن تمضي اليوم بلا أكل.

- لم أر أمًّا بهذا الهلع من قبل.

- لم تر أمًّا تُفْصَل عن ابنها إلى آخر الزمن.

- ألن تعود مرة أخرى؟

- مستحيل. مثلها يوضع على القائمة السوداء.

- لكن الطفل ليس صغيرًا. ليس مولودًا حديثًا.

أمضت عامًا في السجن ترضعه. في مثل هذه الحالة لا تترك الأم طفلها إلا بعد عام. مسكين الدكتور أحمد. وصل هنا منذ أسبوع فقط وكلفوه بمرافقة الأم حتى المطار. رحمةً يرافق الأم طبيب حتى لا تقدم على شيء خطر. حتى لا تموت أو تنتحر. الموت أرحم. تصور لقد رفَضَت طول العام أن تدل الشرطة على أبيه. أبي الولد!

اتضحت الصورة. فتاة غرر بها أحد رجال البلدة. لماذا لم تعترف باسمه؟ أتراها كانت تأمل أن تأخذ ابنها؟ تركوها عامًا في السجن ترضعه. لا بد أن تتسلمه الدولة أكثر عافية، وهي، الأم، لم تستطع أن توقف مرور العام. كم من أمانٍ خرافية تعلقت المسكينة بحبالها الوهمية. ربما فكرت أن الله قد ينهي الدنيا فجأة فتقفز إلى الآخرة وابنها في صدرها.

قالت عايدة إن المرأة لبنانية وأهلها يعيشون هنا لكنهم تبرءوا منها. لا يريدون العودة إلى لبنان. إلى أين يذهبون والحرب قائمة في كل مكان؟ لقد تركت لنا عنوانها ولكن.

وسكتنا طويلًا والطعام بيننا لم آكل منه شيئًا. قلت: «إنه طفل جميل».

- عبدالله؟

قلت:

- لا أعرف اسمه.

قالت إنهم أعطوه هذا الاسم، وإن اللقطاء يوضعون هنا في قسم الأطفال حتى تتبناهم إحدى الأسر أو الأمراء أو ينقلونهم إلى ملجأ بالرياض، لكنها وزميلاتها يحببن أن يأخذوهم إلى السكن. إن أَسْوَدَ يوم هو اليوم الذي يتبنى فيه الطفل أحد. لا يحدث ذلك إلا بعد أن يتعودن على الطفل ويتعوّد عليهن، يصبح له أكثر من أم تبكي لفراقه، ويبكي هو من أجل كل هاته الأمهات!

***

16

وكأنني دخلت من باب أفضى إلى جحيم لا خروج منه. لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك، وإن ضبطت نفسي متلبسًا بانتظار دخول عايدة المبهج لغرفتي في الصباح. لقد نسيت الدنيا بالخارج. لم يكرر أحد زيارتي ولا أنا عدت أذكر أني أعرف هنا أحدًا.

لا أعرف الآن إلا خُطوات مسرعة تحمل أكياس الدم لإنقاذ جريح، وإلا بكاء الممرضات على الموتى الذين كان يمكن إنقاذهم لولا ولولا ولولا، وزعيق الأطباء في المرضى أن لا يتركوا أسرَّتهم أو أن يتركوها ويمشوا حتى لا تتجلد الدماء في سيقانهم.. لا أعرف إلا صوت زغاريد تنطلق من قسم النساء. هذه فتاة بكر وضعت مولودها بعد ثلاثة أيام من الطلق والألم والانتظار. وها هي ذي الفرحة تطل من عيني الزوج الشاب الغريب الوحيد الذي تحضر الممرضات لابنه كساء على نفقتهن وهدايا لأمه الصغيرة وطعامًا ساخنًا.

لا أعرف الآن إلا صراخًا كأنه قادم من عصور سحيقة من رجل محبوس في غرفة سفلية سينتقل إلى مستشفى الأمراض العقلية بالطائف بعد أيام، وأسمع دائمًا صوت عربة نقل المرضى تسرع في الطرقة ونعمان الخادم يشخط في أم زينب المتعبة. الخادم من أصل البلدة له خادم من بلاد بعيدة. وقريبًا من غرفتي غرفة للمحاريق والليل أشباح من صراخهم هم المقيدون في أسرتهم الملفوفين بالقطن والشاش المتلهفين إلى نقطة ماء. لا أعرف الآن إلا سيارات تترصدها الحوادث. تنهار عليها جُرُفٌ فجأة من فوق الجبال، أو تسقط هي فجأة من فوق الجبل، أو يدفعها القدر إلى «قليبة» فتنقلب، بلدة قديمة ذات اسم قديم ولا أدري كيف تنقلب الجِمَال. من أي البلاد أنا ومن أي مكان قريب أتيت؟! نمل ثقيل راح يغطي الذاكرة ولم أمض هنا إلا بضعة أيام. لا يكفيني وجه عايدة الرائق المبهج وسط هذا الجحيم من الصرخات والضحكات والموت تغلغلًا في الحياة. كيف حقًّا لا يموت الأطباء وتنتحر الممرضات؟! أي قوة شيطانية وضعها الله في بني الإنسان فيبدون في النهاية أقوى من الأحجار؟!

زارني خالد، فبدا وكأني عرفته من قبل في بئر مظلمة ولا أكاد أتعرف على ملامح وجهه ولا أذكر حتى اسمه. «واضحة تهديك السلام» قال وفكرت أسأل من هي واضحة، وكان دمثًا. قال إنه علم من سعيد بمرضي، وإنه أخبر

واضحة في الرياض، فانزعجت كثيرًا وتهديني السلام. ما السلام؟ كدت أقول. قال «واضحة ستعود بعد يومين». ولم أقل إني سأخرج بعد يومين. هكذا حدد لي وجيه موعد الخروج مع أني رجوته الخروج اليوم.

وحطّ على لقائنا صمت طويل،وتنبهت فجأة إلى دقة وجهه. ولولا شاربه والعقال الأسود والغترة لصار «واضحة» بلا اختلاف. إذن مازلت أذكر وجهًا ممن عرفت. ومضى وهو يدعو لي بسرعة الشفاء، ولم أتكلم.

إنني أنتظر الليلة الأخيرة رغم إمساكي بنفسي متلبسًا بانتظار دخول عايدة المبهج، وعايدة اليوم بدأت تعمل بالمساء.

***

عندما انتصف الليل كنت في حاجة شديدة إلى الكلام. سَكَنَتْ الحركة، ولم أعد أسمع غير أنفاس واهنة، وخفتت الأضواء وأنا في الغرفة وحدي، يعاديني النوم مع أنني سأغادر المستشفى في الصباح.

تركتُ الغرفة، ووقفت في الطرقة ذات الضوء الخافت أمام باب غرفة عايدة، وترددت أن أطرقه. في حاجة شديدة أنا للحديث معها وما خرجتُ إلا لذلك وإن كنت لا أدري فيم سأتكلم. وسمعت صوت «نجاة الصغيرة» خافتًا وسمعت شيئًا كالنحيب!

في اللحظة التي فكرت فيها أن أعود فُتِحَ الباب وَوَقَفتْ تنظر إليّ في ذهول.

- آسف. آسف جدًّا.

- لا داعي للأسف. لقد أحسست بقدميك. أخفتني. تفضل.

دخلْتُ مرتبكًا وجلستْ هي خلف المكتب.

- أنا لم أقصد شيئًا.

- أعرف. يمكن أن تجلس.

جلستُ وكدت أقول. لقد سمعتك تبكين في صوت خافت وهأنذا أرى أثر الدمع في عينيك، لكنها وقفت وقالتْ:

- سأعد لك كوبًا من الشاي، الجو بارد وأريد أن أشرب شايًا أيضًا.

واتجهتْ إلى دولاب صغير أخرجت منه موقدًا كهربائيًّا، ووضعت فوقه براد الشاي، وبدت لي وهي تتحرك صغيرة للغاية وقلت ما لم أود قوله:

- هل أسألك لماذا كنت تبكين؟

- لقد سألتني بالفعل.

أجابت مبتسمة وسكتنا، وانْشَغَلَتْ بإعداد الشاي، ثم قَدَّمَتْ لي كوبًا وأَخَذَتْ آخر، وعادت تجلس خلف المكتب.

- أحيانًا يشعر الإنسان بحاجة للبكاء.

فكرت ربما كان صوت نجاة الذي يبثه راديو صغير فوق المكتب هو سبب بكائها. ذلك أمر سهل مع أي مغترب.

- أرجو أن لا أكون تطفلت على مشاعرك.

- بالعكس.

- ألست سعيدة هنا؟

- سعيدة جدًّا وإلا ما بقيت. تعودت على العمل. وفي «سكن الممرضات» نقضي وقتنا في مرح. نعيش أسرة متآلفة إلى حد كبير. طبعًا لدينا مشاكل مثل كل الناس، فينا من ضحك عليها خطيبها وأخذ فلوسها، وفينا من يرفض أهلها أي عريس يتقدم لها حتى تظل بقرة حلوبًا لهم، وفينا التي تزوجت وتركت زوجها، وحين عادت من إجازتها وجدته تزوج بأخرى في الشقة نفسها التي جهزتها، وفينا العازفات عن الزواج تمامًا إلى الأبد!

- يا إلهي! إلى هذا الحد؟

- فينا أيضًا الناصحات اللاتي اشترين عمارات وأراضٍ، وفينا طبعًا سعيدات الحظ في الزواج. في كل الأحوال نصنع بعضنا مع بعضٍ حياة سهلة حلوة في السكن.

وسكتنا قليلًا. وكانت نجاة قد انتهت من أغنيتها وينساب صوت عبدالوهاب رخيمًا يعطي الليل مذاقًا عذبًا.

-هل تحب عبدالوهاب؟

سألتني مبتسمة بابتسامة صغيرة. قلت:

- لا يوجد من لا يحب عبدالوهاب.

وسكتنا.

«لم نعتنق والهوى يُغري جوانحنا

وكم تعانق قلبانا وروحانا»

- إنها قصيدة جميلة للشاعر عزيز أباظة كتبها لزوجته.

ابتسمت وقالت:

- أخاف أن أقول لك إني أحب عبدالحليم فتسخر مني.

- لماذا؟ أنا أحب عبدالحليم أيضًا.

وعدنا إلى الصمت حتى وجدت نفسي أسألها:

- أين أنت يا عايدة من كل من حدثتني عنهن؟

كانت هذه أول مرة أخاطبها باسمها مباشرة. وكان سؤالي مفاجئًا لنفسي.

دائمًا يسبقني لا شعوري في كشف ما أريد ستره.

- أنا؟

ولم تكمل. وظللت ناظرًا إلى عينيها حتى رفَّت أهدابها، ثم قالت:

- دعنا نترك هذا الحديث.

ولم يحدث.

- الطب مهنة فظيعة تحولك إلى آلة باردة. إذا لم تتحول تنكسر ولا تصلح. هنا رأيت الناس يتحولون إلى حيوانات مسكينة، يصرخون كأنهم وحوش، من الألم الذي يفوقهم توحشًا، وهنا رأيت الناس جثثًا بلهاء لا قيمة لها. لقد تحملت ذلك كله من أجل إخوتي الذي هم سعداء الآن. كل إخوتي السعداء عارضوا دخولي مدرسة التمريض إلا واحدًا. هاشم الذي كان أكبر مني مباشرة. كان طالبًا في كلية الحقوق وكان مصدر بهجة دائمة في البيت. متفائل لا يكف عن الابتسام، يؤمن بأن كل شيء يتغير مع الوقت حتى الأفكار العتيقة. لكنه كان مصدر قلق دائم للأسرة. كان يشارك في المظاهرات بالجامعة ويأتي رجال المباحث كثيرًا بالليل ليقبضوا عليه، ويخرج دائمًا من السجن أكثر بهجة وتفاؤلًا. وكان ضئيل الجسم للغاية لا يعرف أحد أي قوة فيه ليتحمل السجون. لقد تخرج هاشم من الجامعة عام (73) وفي عام (74) أثناء زيارة نيكسون لمصر، حين أخرجوا الناس بالفلوس لتقف على شريط السكة الحديد تحيي نيكسون والسادات في طريقهما للإسكندرية لم يستطع البقاء في دمنهور، بلدتنا. سافر إلى الإسكندرية. كان له بها أصدقاء دراسة يحبهم. صدمته هناك سيارة ونقلوه إلى المستشفى الأميري حيث كنت أعمل بعد أن تخرجت، ذلك اليوم كنت في قسم الاستقبال، وفي ذلك اليوم استقبلته.

وسقطت دمعة من عينيها، ثم انسالت بعدها دموع، فأخرجتْ منديلًا ورقيًّا من علبة مناديل في أحد الأدراج وراحت تجففها.

- أنا آسف جدًّا.

- تصور أنه الوحيد الذي يراسلني.

- هو حي إذن.

- لكنه فاقد القدرة على الحركة. يعيش مع أمي وأبي المسنين وخادمة.

«لذلك أنت هنا» قلت لنفسي، أي عذاب فوق طاقة البشر، لو كانت عايدة رجلًا لاختلف الأمر. أنثى حاضرة الجمال. ووجدت نفسي أربت على ظهر يدها بيدي. قلت:

- هل ضايقتك؟

- أنت لم تضايقني. ولم تؤلمني.

كانت أغنية عبدالوهاب قد انتهت وسمعت المذيع يقول موجز أنباء الواحدة من القاهرة. قال كلامًا عن بيغين وكارتر والسادات لم أفهمه ولم أهتم به. أدرت مؤشر الجهاز بعيدًا فانساب صوت عبدالحليم حافظ وادعًا دافئًا شجيًّا:

«يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا اسمر

«لولا سمارك جو ا لعين ما كانت تنور

يا حلو يا اسمر. يا حلو يا اسمر

يـــا حلـــو يـــا اســـمر»

وابتسمتُ ورأيتها تبتسم وتتألق عيناها بانبهار فائق!

***

17

وافق خروجي اليوم الأخير من شهر ديسمبر. تركت وجيهًا في المستشفى، وفي البيت لم أجد سعيدًا. لست بحاجة إلى شيء قدر حاجتي إلى النوم. تركت غرفة عايدة والفجر يوشك على الظهور. وصفت لها حالي وقلت إنني اكتشفت متأخرًا جدًّا أني رحت ضحية مؤامرة صنعها أبي ووافقت عليها بغباء أخلاقي منقطع النظير. غباء جعل بيني وبين النساء سدًّا.. والآن أفكر جديًّا في الزواج. وصمتنا كثيرًا وأطرق كل منا ثم رأيتها تنظر في ساعة يدها. أعادتني إلى الحقيقة. هي أنثى وأنا ذكر في بلاد يترصد فيها الهواء الأحاسيس ينقلها للعسس. قمت ولدي شعور بأنها لم تقل كل شيء. للملائكة حاجات يخفونها أيضًا. كل منا أخفى شيئًا وعجز عن البوح به، مع أنني كنت كلما نظرت إلى وجهها استأنسته وتمنيت لو مضيت إلى صدرها لأنام!

لم أقل لها إني أنا الذي أفشلت قصص الغرام. ورغم أني نزلت إلى البلاد التي غفل عنها السندباد والتي ينزلها الآن ألف سندباد وألف كل صباح، البلاد التي تعود منها فتتفتح لك كل النوافذ وكل الطرق والأبواب، فإنني مازلت لا أحس بالنار تشتعل في جليد قلبي. كَذِبٌ كل ما فعلته مع واضحة وكل ما أحس به كلما زرتها، وكذب أنني أريد الزواج الآن. لم يلتئم جرحي القديم بعد. ما زلت أود لو أخرج من نفسي أعاقبها. أقتلها.

سألتني لماذا تقرأ هذه الرواية كثيرًا. كانت رواية «خان الخليلي». قلت أنا أحب أحمد عاكف. قالت ضاحكة. أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. قلت خذيها. وجاءت تضحك وتقول من هو أحمد عاكف في الرواية؟ وضحكنا وسكتنا.

وقلت أود الذهاب إلى حديقة أنطونيادس. الدنيا ربيع وهناك مهرجان الأزهار الآن. قالت لم أعرف عنك أنك تحب الورد، أنت تحب الحب وتريد أن نذهب، لأن هناك بحنا بالحب في يومنا الأول. وتألق وجهها الأبيض واحتوتني عيناها العسليتان ثم انطلقنا. كان الزرع حولنا في الكلية أكثر اخضرارًا من كل يوم، والفضاء أكثر ابيضاضًا من كل يوم، والسماء أعلى من كل يوم، وقرميد الكلية الأصفر المشرب بالحمرة أزهى من كل يوم..

وقالت ونحن نعبر الباب: كثيرًا ما أفكر كيف تفهم «المنطق» أفضل منا جميعًا. قلت: أنا أذاكر أكثر منكم، قالت: كذاب وكنت كذلك، وواجهتنا

مستشفى الشاطبي للولادة باتساعها العريض وباحتها الضخمة وبياض كل شيء فيها، الذي يلتحم مع بياض الفضاء، ورأتني أتطلع إليها بعمق فقالت وهي تلكزني في ذراعي: هل تعرف أحدًا يلد اليوم؟ قلت: إن هذا أعظم موقع لمستشفى للولادة لأن أمامه بحرًا عريضًا. قالت: أنت تقول كلامًا غريبًا وهتفت «تاكسي»! وركبنا وأنزلنا صامتين عند حديقة الحيوان فمشينا في تراخٍ نقترب بعضنا من بعض ونبتعد ولا أذكر فيما تكلمنا حتى وجدنا باب حديقة أنطونيادس وفوقه لافتة «غير مسموح بالدخول للجمهور». لماذا؟! وقال الشرطي: كما ترى أخذها الجيش وتحولت إلى موقع عسكري. قلت: قبل ذلك أخذوا لسان السلسلة الجميل وصار تمثال عروس الإسكندرية وحيدًا لا يمر عليه عشاق!

ابتسم الجندي لا يدرك شيئًا، وقالت هي: حديقة ا لحيوان أوسع فسألتها: لماذا لم تقرئي الرواية جيدًا؟ وسكتنا من جديد وقالت: لماذا حقًّا لا تعطيني ما تكتبه من قصص أقرؤه؟ قلت: لا أظن أني سأستمر. لماذا؟ لماذا حقًّا تتخلى عن كل شيء جميل في نفسك؟ لماذا إغلاق النوافذ؟

وتَراجَعْتُ عن الشرح وظلّت بيننا اللقاءات. وكان الوقت مساءً في آخر وقت لنا أيضًا بالكلية ذات الحديقة الجميلة ومشينا فوق النجيل حتى حديقة كلية التجارة والشيطان الأخرس يقول لي: إن الصراحة أفضل من الخداع، فصارحتها وقلت: أنا لا أعرف الحب إلا للزواج وأنا لن أتزوج الآن ولن أتزوج أبدًا. ومشينا صامتين!

وفي محطة الرمل رأينا سعد زغلول يعطي ظهره للمدينة ويشير إلى البحر، إلى غريق، وقَفَزَتْ وقبلتني على خدي والناس كلها ترانا في الميدان وأسرَعَتْ تبتعد، ولم أذهب يوم الأحد ولا أي أحد بعد ذلك. لم أكن أحبها أبدًا. كنت أحب الحب كما قالت. عرفتني التي لم تقرأ القصص ولم تعرف أنني أنا الغبي الكبير في هذا العالم أكمل رسالة رجل تجاوز الخامسة والستين ولم يتمها.

«الحياة مأساة، والدنيا مسرح ممل، ومن عجب أن الرواية مفجعة، ولكن الممثلين مهرجون، ومن عجب أن المغزى محزن، لا لأنه محزن في ذاته، ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد، فأحدث الهزل كل الهزل. ولما كنا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا، فإننا نبكي، فتخدعنا الدموع عن الحقيقة. ونتوهم أن الرواية مأساة، والحقيقة أنها مهزلة كبرى»!

قال هاملت وقال نجيب محفوظ وقال أحمد عاكف المسكين الذي قرأ أدب الكاتب والكامل والبيان والتبيين ولا صار كاتبًا ولا فاز بحبيب. كيف انتهى الأمر للجنون ثم الموت؟ توالت عليَّ الرسائل مكتوبة بحبر أحمر وأخضر وأزرق وأسود. لماذا لم تنتبه؟ كان اليوم هو الخامس من يونيو. يوم لا ينساه في مصر أحد. «قد ينساه الناس بالانتصار وأظل أنا الوحيد في شعب كامل أذكره». لم أعرف بموتها إلا قبل سفري إلى هنا بأيام حين ذهبت إلى الكلية لاستخراج نسخة من شهادتي وقابلت «سامية» التي كانت صديقة لنا وتعرف كل شيء. جاءت مثلي لتستخرج شهادة وتسافر إلى الإمارات. أخبرتني سامية فأسرعت أنا بالسفر. لم يبد عليها قط أنها يمكن أن تجن فما بالك أن تموت. من يُطْلقني من موتي الآن؟ من يحرق أسراري؟ واضحة أم عايدة أم تراني قاتلًا للجميع؟! كم أود حقًّا أن أنام.

***

- كنت أعرف أنكَ هنا.

هتف سعيد وهو يدخل حاملًا كرتونة على صدره، أسرع بها إلى غرفة المعيشة التي أقف فيها، ووضعها فوق المنضدة. ووقف يلهث. قال:

- سنحتفل بك وبرأس السنة.

كانت الساعة الثالثة ظهرًا وكنت نمت نومًا عميقًا. فتح الكرتونة وراح يخرج ما فيها ويضعه فوق المنضدة ويتكلم:

- جبن حلوم من قبرص. زيتون سيوي من مصر. هاهاها. يا أخي رؤساء الجمهوريات طبعهم غريب. واحد سماه زيتون الحرية والثاني زيتون العبور. فول قها. بيض بلغاري. انظر إلى حجم البيضة. في حجم الفرخة المصرية. في بلغاريا يقولون للجبان جبان مثل البيضة!! هاها هاها.

واستمر يخرج ما في الكرتونة. ولا يكف عن الكلام والضحك وبدأ شكله غريبًا لي جدًّا، واكتشفت لأول مرة أنه أقصر مما أتصور. كان يتحرك مثل كرة من المطاط!

- وخذ أيضًا جبن رومي من إيطاليا. رومي أصلي. وجبن شيدر من أستراليا انظر إلى العلبة. مدكوكة. مثل البوشمان. لا بد أن بوشمان انتهوا مثل الهنود

الحمر. كُلّ منته. لن يبقى إلا وجه ربك. وخذ أهم شيء عشرين زجاجة بيرة بدون كحول ماركة «موسى»صنع أوروبا. الأوروبيون النصابون يضحكون على العرب. سيكون احتفالنا بخروجك وبرأس السنة رائعًا وفوق ما تتصور!

نظرت طويلًا إلى عينيه. قلت:

- ماذا جرى لعقلك اليوم؟

- تريد الحقيقة؟

- أجل.

- قابلت وداد.

- هل هذه أول مرة؟

- لا طبعًا. لكني اليوم قابلتها وقَبَّلتها أيضًا. قبلتها هنا في المملكة التي تقع في الغرب من قارة آسيا وتطل على البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وفيها قِبلَةُ المسلمين من كل أنحاء الدنيا ومنها هربت الجن والعفاريت بسبب الحرّ والقرّ.

وصار يضحك ويصفق ويقفز في فضاء الغرفة، فلم أستطع منع نفسي عن الضحك. وفجأة توقف وقال بجد شديد:

- يا أخي لم أكن أعرف أن الحرمان شيء فظيع إلى هذا الحد.

***

بعد الغداء انفردت بنفسي في غرفتي. أدهشني أنني أسمع صوت سعيد يغط في نومه لأول مرة. ابتسمت وأنا أتخيل سلوكه قبل الغداء. سعيد هذا لا بد يَمْكُرُ بي. ليس أسهل من تقبيل امرأة هنا. وداد هنا. وداد خطيبته وتعيش مع أمها وهو يزورهما ولا بد أن أمها تعطيهما هذه الفرصة وأكثر. أجل. وأكثر. إن قبلة لا تحدث كل هذا الجنون. وفكرت أن أذهب إلى واضحة، لا بد أنها عادت من الرياض.

في السادسة كان سعيد لا يزال نائمًا. لقد نمت أنا أيضًا مرة أخرى، واستيقظت ولا بد أن وجيه عاد ونحن نيام فأكل ونام. كل هذا النوم حدث اليوم في بيتنا بالنهار.

ركبت سيارتي التي لم تخذلني رغم توقفها لأسبوع كامل. قدتها عبر الأزقة حول الشارع العام مراعيًا الحُفَر والمطبات التي قد تؤثر على الجرح الذي نُزِعت خيوطه فقط في الصباح. وجدت الشرطي يقف وسط الطريق يمنع تقدمي. يا ألله! لقد نسيت وهأنذا أجد نفسي أمام البيت الموقوف به سيد الغريب. الشرطي يأمرني أن أدور من جهة أخرى. منعوا المرور من الشارع إذن. ورأيت الغريب يجلس في الشرفة يرتدي عباءة سوداء وفوق رأسه مصباح شحيح الضوء لكني رأيت وجهه جيدًا. لا أعرف إذا كان رأى وجهي أيضًا أم لا فأنا أقف في الظلام. درت بعيدًا عن البيت وأخذت طريقي متمنيًا فجأة أن لا أجد واضحة.. أن لا أكمل معها الدرس اليوم أيضًا. لكنها هي التي استقبلتني. اتسعت عيناها بفرح طاغ ولم تتكلم. أخذت يدي بين يديها، وجذبتني لأدخل غافلة عن جرحي وقلة قدرتي على الحركة المفاجئة. لكنني مشيت وأحسست بالقوة تدب في روحي، ولما دخلت إلى الغرفة لم أجدها معي.

انتظرتُ طويلًا. في كل لحظة كنت أتخيل دخول شخص آخر إلى الحجرة. خالد أو جَدُّها العاجز أو أمها التي لم أرها أو أبوها الذي لم أره أو أي من إخوتها الذين لم أرهم، ولم يتوقف قلبي عن الخفقان حتى رأيتها. غيرت ثيابها وعادت ترتدي فستانًا طويلًا، كحلي اللون به ورد أبيض، وعلى كتفيها شال أبيض، وتركت شعرها محلولًا على كتفيها وظهرها، وفي رسغيها أسورتان من ذهب مرصعتان بالياقوت الأحمر وعلى صدرها كانت وردة ذهبية معلقة بسلسلة، وعلى أوراق الوردة فصوص من الياقوت الأحمر أيضًا، ويسبق كل ذلك عطرها في الطريق. وجدت نفسي أقف وأمد يدي، فمدت لي يديها، وأخذتهما، واقتربت مني ثم مالت إلى مقعدها، فتركت اليدين وجَلَسْتُ قبالتها أتأمل وجهها وعينيها، أصابها شحوب قليل في الرياض.

- كنت خائفة أن لا تأتي.

- استئصال الزائدة ليس أمرًا صعبًا.

- لا أريد أن تشرب من المياه الحكومية.

- قيل لي ذلك لكنني لا أحب المياه المعدنية.

- سأرسل لك منها كميات كبيرة.

- لا أحبها حقًّا.. ثم إن الإنسان لا يملك أكثر من زائدة دودية واحدة.

ابتسمتْ وقالت:

- لم أستطع الحضور لزيارتك.

- هل نبدأ الدرس؟

تَسَاءَلْتُ بغباء ومن غير قصد كعادتي السخيفة، وسكتت وأَطْرَقَتْ، ثم رفعت وجهها وقالت بهدوء وألم:

- لماذا تستصغر شأني؟

وانفجرتْ في بكاء غير متوقع.

- واضحة.

هتفت هامسًا:

- أنا أرسلت إليك خطابًا من الرياض. ألم تقرؤه؟

- أنا لم أذهب إلى العمل بعد.

وظلت الدموع تسيل على وجنتيها، فأخذت مقعدي واقتربت منها، وبذراعي اليسرى أحطت كتفيها، وبيدي اليمنى رفعت وجهها إليّ، فإذا بها تميل برأسها على صدري وتنتحب.

أسمع الآن أنفاسها وقَلْبَها وأشم عطرها الغامض وأَغرق بوجهي في شعرها الناعم الغني.

- واضحة.

هَمَسْتُ فرفعتْ وجهها إليّ. اتسعت عيناها بألق رأيته فيهما مرة وارتعشت شفتاها برغبة رأيتهما عليهما مرة والتفتُّ لا شعوريًّا إلى الباب فهمست لا تخف. هي التي قالت ذلك ولا أحد غيرها. هي واضحة التي في صدري الآن. ومددت يدي اليمنى إلى إبطها الأيسر فأحسست بنهدها صغيرًا تحت كفي

وبأنها خفيفة كحمامة وأنا أقيمها لتقف وأقف. كيف طالت واستطالت؟ أم لعلني أنا الذي انحنيت.. صارت في حضني.. فمي على فمها وأشد عليها بكل قوتي وآكل بشفتي شفتيها وتصطدم أسناني بأسنانها. في اللحظة التي ابتعد فيها وجهانا لألتقط أنفاسي رأيت الفرح يكاد يقفز من عينيها.. ومن جديد ضممتها إلى صدري ورحت أعتصر رضابها وأحسست بشفتيها تتحركان مع شفتَي وبينهما وحولهما. إنها لا تترك نفسها لي بل تقبلني أيضًا. نسيتُ أن هناك بابًا مفتوحًا، وأن الموت معلق فوق رأسينا، وفي اللحظة التي بدا فيها أنها ذابت وتلاشت رأيت على وجهها طيف وجه آخر.. وجه عايدة!

ابتعدت بوجهي وتأملتها. مغمضة العينين الآن. عدت أقبلها ونزلت بها إلى الأرض وأحسست بألم في الجرح وفكرت في جرأتي وعواقب ما أفعل هنا في بلد ينقل فيه الهواء الكلام، ووجدت نفسي أقف بصعوبة. آلمني الجرح حقًّا رغم أني أساعدها على الوقوف معي. فتحت عينيها وبدت كأنها استيقظت من حلم بعيد.

- لا تخرج الآن. لا تجعلني أشعر بذنب.

- اجلسي يا واضحة.

- اجلس أنت أولًا.

جلسنا معًا كلٌّ إلى مقعده. أطرقتُ وأطرقتْ هي. لا أعرف فيما كانت تفكر لكنني أعرف فيما فكرت.

قطعت عايدة عليّ الطريق وقالت أثناء الحديث إنها لن تفكر في الزواج قبل أن يشفى هاشم ويمشي على الأرض ولو كلفها ذلك عشرين سنة هنا. وها هي ذي تعود الآن وتطل بوجهها عليّ.

- هل تأخذني معك إلى مصر؟

- آخذك يا واضحة ولن آخذ غيرك.

قامت وأخذت رأسي في صدرها وقبلته وقالت كأميرة مزهوة:

- يمكن لك أن تنصرف. لا حاجة بي إلى درس اليوم!

***

جسدي حي وليس شيئًا أعيش فيه. حي. حي. حي.. وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وهفت نفسي إلى حدائق من الورد. لقد استيقظت كل حواسي تريد الإشباع. ليس من العدل في هذه الدنيا إغلاق الحواس. لكنني لا أستطيع دخول البيت عاريًا أرقص. لا بد أن أخفي عن سعيد ووجيه كل شيء. أدخل كما خرجت. روح متعبة، عليل جسدها تنتظر الشفاء. كذب سعيد عليّ ولم يقبّل وداد ولا فاز منها بشيء أكثر أو أقل.

آه. ما أجمل أن تجاهد أن لا تفشي سرّ الحب. تلوك لذة وتجتر سرورًا وتعلو وتعلو وتعلو والناس حولك سذج بلهاء!

عدت إلى البيت فوجدت سعيدًا ووجيهًا يقفان في غرفة المعيشة ومعهما صالح ابن صاحب البيت. هلا يا أستاذ، لماذا انقطعت عنا؟ خاطبني، ولكن من ذا الذي يأخذني إلى الأرض بسهولة. أرض الغرفة التي حملوا منها المنضدة ووضعوها في الردهة فصارت واسعة أحاطوها بالحشايا. لقد وضعوا جوار التليفزيون فيديو فوقه أفلام أيضًا.

- استعرنا الفيديو من صالح الليلة فقط.

- عيب يا دكتور يبقى عندكم لحين ما تزهقون. أترككم في أمان الله.

- اجلس.

خاطبني سعيد: «أبدّل ثيابي» قلت. وإلى غرفتي مضيت. وعدت بعد أن بدّلت ثيابي وصرت أخف وزنًا مما كنت فوجدتهما فرشا الأرض بزجاجات البيرة «موسى»، وجلس وجيه في يده زجاجة صغيرة بيضاء وفي يده الأخرى «قَطّارة».

- كحول في المستشفى. سأضع نقطة في كل زجاجة والشاطر يصمد.

قال وجيه، وسعيد خرج إلى المطبخ وعاد يحمل صينية كبيرة فوقها ثلاث دجاجات محمَّرة وقطع كبيرة من الكباب: «متى طهوت كل ذلك؟»

«اشتراه وجيه، اتفقنا أن نشتري كل شي الليلة. الليلة نبذخ».. وضحك وأنا الذي لم أحتفل من قبل برأس السنة، وكنت أكتفي بالبقاء في البيت

والفرجة على التليفزيون، رأيت سعيدًا ووجيهًا كأنهما ريفيان ينزلان المدينة لأول مرة.

- اختر لنا فيلمًا نبدأ به.

أمسكت الأفلام الأربعة: دكتور جيفاكو. فرانكشتين. قبضة بروس لي. البعض يفضلونها ساخنة. أي خليط؟ ليس من بينها فيلم جنسي على أي حال. نبدأ بمارلين مونرو. وجلسنا نشرب ونأكل والفيديو يعمل ولا ننظر إليه، وأفقدتنا قطرة الكحول كثيرًا من توازننا. «كُلْ كثيرًا حتى لا تسكر». يقول وجيه «عليك اللعنة». يرد سعيد وينشد:

«لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب على الورد من حمراء كالورد»

ونضحك ويقول وجيه: لكن هذه صفراء ونزداد ضحكًا، وينشد سعيد:

«يا خليليّ من بني مخزوم

عللاني بماء بنت الكروم»

ونضحك ويقول وجيه: ولكن هذه بنت الشعير.. يقول سعيد: «بنت كلب» ونزداد صراخًا، وقلت لهما أن يسمعاني، فاتسعت عيونهما ينتظران ما سأقول:

«والله ما أدري بأية علة

يدعونها في الراح باسم الراح»

«ألريحها ولروحها تحت الحشا

أم لارتياح نديمها المرتاح»

ولا بد أن البيت زلزلت أركانه من صراخنا. سألني سعيد: كيف أعرف هذا الشعر. قلت: أعرف الكثير يا سعيد. قال: لماذا تخفيه عنا؟ هيا نشرع في المبارزة، لكنني أطلت النظر إليه. بكى فجأة وأشار إلى الطعام وقال: أن نبعد الحمار. «أي حمار؟ لا أرى أمامي إلا أنت». قال وجيه، وانطلقت أصرخ ضاحكًا، لكن سعيد استمر يبكي، بل فزع وقام مبتعدًا ناحية الحائط وقال: إن الحمار يضع رأسه في الأكل ولا بد أن نأخذه بعيدًا، وراح يكرر ذلك وسمعنا طرقات سريعة على الباب الخارجي تكاد تحطمه فقمت. وفي الردهة ضحكت، وفتحت فمي أشرب الهواء البارد. ما كدت أفتح الباب حتى دفعوني جانبًا واندفعوا إلى الغرفة، ثلاثة جنود كأنهم شياطين، تلمع أزرارهم النحاسية وتبدو أحذيتهم ضخمة كأنها كتل من البازلت تسقط متتابعة فوق الأرض، ودخل برد شديد معهم إلى الردهة وإلى روحي، ودخل خلفهم ضابط شاب قال: «احملوا كل شيء كما هو» ورأيت المسدسات في أجنابهم بارزة، وسحب أحدهم ملاءة السرير، ووضع فيها كل شيء، وحين اصطدمت قدمه بزجاجة الكحول فانسكبت، لمحت وجيه يتنفس بارتياح.

بملابسنا المنزلية أخذونا في العربة الجيب التي مضت والصمت فيها، والظلام حولها والبرد، وإلى غرفة خالية من الأثاث أدخلونا بقسم الشرطة، حولنا الجدران الباردة وتحتنا الأرض المثلجة، وليس معنا غير بكاء سعيد لوقت طويل من رأس الحمار التي ظلت تخايله!

في الصباح أخذونا إلى غرفة الضابط المسئول. ضابط كبير ذو رتبة كبيرة ابتسم لوجيه وقال:

- يا هلا يا دكتور كيف صارت الليلة؟

ابتسم وجيه وقال:

- اسأل تلميذك الذي حبسنا يا أبا حكيم.

- هذه عندي يا دكتور.

وأشار للضابط الشاب الذي قبض علينا أن ينصرف، وطلب لنا قهوة، وراح يقلِّب أوراقًا أمامه. جاء شيخ مسن يحمل الإبريق والفنجان، وطاف علينا،

وشرب وجيه وسعيد مرتين، ولم أشرب. لا قِبَلَ لي بالقهوة العربية المرة، وفجأة هتف أبو حكيم:

- إيش هذا؟ صالح بن سنيور الثقيفي. هذا مخبّل.

ونظرنا بعضنا إلى بعض، وفهمنا أن صالح أبلغ الشرطة أننا نسكر ونثير ضجة ونفزع السكان. واستمر أبو حكيم:

- هذا مخبّل بن مخبّل. ألا تسكنون في بيتهم يا دكتور؟

- نسكن.

- لماذا العداوة إذن؟

- لا أدري يا أبا حكيم.

وضحك أبو حكيم وأمسك بالقطّارة الصغيرة.

- لماذا هذه يا دكتور. تضعون الكحول في البيرة؟

- هذه لعيني يا أبا حكيم.

- تضع في عينك خمرة.

وضحك ولم نضحك. بدأ يتحول بالحديث:

- أنت تعرفني، وتعرف كيف أختار أصحابي يا أبا حكيم.

- أعرفك والله زينة المصريين، أنا سأترككم، لكن المشكلة أن الولد الملازم أبلغ مدير مدرسة هذا - وأشار إلى سعيد - ومدير المدرسة هاتفنا طالبًا ترحيله.

وَسَكَتَ قليلًا ثم قال لسعيد:

- لك حق كبير عندي يا أستاذ، لكن هذا ما صار!

***

18

تاقت نفسي إلى العمل، وهأنذا أقود سيارتي بسرعة وأفتح نافذة السيارة لهواء الصباح البارد ولقطع الضباب..

قطعتُ إجازتي وذهبت، لم يعد ممكنا البقاء في البيت وقتًا طويلًا. لقد عدنا من قسم الشرطة أمس إلى البيت في صمت. تَرَكَنا وجيه وذهب إلى المستشفى يسبق انتشار الخبر. قال إن الأمر يختلف بذهابه أولًا. ودخل سعيد البيت مستسلمًا، بدّل ثيابه وسألته إلى أين؟ قال إلى المدرسة، هل تظنهم يُرَحلونني وأنا هنا؟

أخذت حمامًا ساخنًا بعد الليلة الباردة، ورأيت الجرح أحمر، ومكان الخيط كأنما عقرب مشى فوق جلدي، وترك بصمات أقدامه. وضعت فوقه ضمادة جديدة، ونمت وأيقظني سعيد في الثالثة عصرًا فرأيته كأني أراه لآخر مرة. سَيُرحَّلُ سعيد إذن وسأنساه إلى الأبد.

قال وطعام الغداء بيننا نأكله على مهل:

- كنت أعرف أن مصيبة في انتظاري.

- لكنك كنت فرحان طوال الأمس.

- كنت أكذب.. لم أقبِّل وداد، قابلتها فقط، هناك مشكلة قائمة بيننا منذ شهور.

ولم أرد.

- لها ابن عم يعمل محاسبًا في مصر ويريدها منذ زمن. سافر إلى الكويت ونجح في أن يحصل لها على عقد عمل أفضل وتريد السفر.

- لكنها كانت ستعود معك هذا العام وتتزوجان، لقد قلت لي ذلك.

- قلته. بل وكنا متفقين، لكن ماذا تنتظر أن يحدث لشخص التهم أهله نصف ثروته والتهم النصابون نصفها الثاني؟

وقام وحمل أطباق الطعام دون أن يدري أني لم أنته فقمت وحملتها معه. ما كدت أدخل غرفتي حتى بدلت ثيابي وخرجت مسرعًا بالعربة لا أبالي بجرحي ولا بالمطبات في الأزقة. أي دافع خبيث كان وراء شكوى صالح؟ كيف أقنع الشرطة أن تداهمنا؟ ووصلت إلى بيته ووقفت أدق الباب دقات متتابعة.

- من؟

جاءني صوت امرأة عجوز واهن من خلف الباب:

- أنا إسماعيل. أين صالح؟

- صالح من؟

- الثقيفي.

- لا أحد هنا بهذا الاسم.

- صالح التلميذ بالمتوسطة الذي لأهله تجارة بالشارع العام.

- لا أحد بهذا الاسم هنا. انْصَرِفْ.

وسمعت صوت وقع الأقدام الواهنة تعود. تلفتُّ حولي. يميني ويساري ووراءي. هذا هو البيت وليست هذه مدينة سحرية يختفي فيها كل ما تراه. ركبت سيارتي مرة أخرى واندفعت إلى الشارع العام.

- إيش تبغي يا أستاذ؟

قال بهدوء بعد أن دخلت دكانه، كان يقف يبيع البطاطين والأقمشة وأنا أنظر إليه بغيظ شديد. لم ينتظر ردي.

- تبغي بطانية جلد نمر. لدينا جلد نمر يحبه المصريون جدًّا. مصري أنت يا أستاذ؟ أليس كذلك؟ تبدو جديدًا في تبوك.

وكان يتلفت في أثناء الكلام إلى ولدين رأيتهما عنده من قبل، ويبتسمان في استمتاع.

- ما تبغي شيئًا؟ إذن أفْسِحْ مكانًا لغيرك الله يرضى عليك. تشرب بارد يا أستاذ؟

وأدركتُ حماقة ما أفعل. هذا الولد الذي لم يبلغ العشرين يسخر مني مرتين ولا سبيل للانتقام. عدت على مهل إلى البيت. دخلت الغرفة ونظرت إلى نتيجة الحائط. الأول من يناير عام 1979. آه لو انتهى هذا اليوم وليلته وذهبت إلى عملي في الصباح. ورأيت سعيدًا وهو يُخْرِج حقائبه استعدادًا للسفر. قال: إن المَدْرَسَةَ أرسلت تطلب رأي الوزارة والرأي سيأتي بالترحيل خلال أيام. هو يعرف ذلك.

وقال فجأة ما كان عليك أن ترفض التدريس لصالح. قلت أنا لم أرفض، فقط رفضت أن أتقاضى أجرًا نظير الفرجة على أفلام جنسية. قال: أنت لا تعرف هذه البلاد. صالح يستخدم الرشوة مع كل المدرسين من كل الجنسيات. لا يرفض أحد رشوته ولا هديته. رفضت أنت أن تكون له اليد العليا. هذا شيء لم يخطر ببالي قط يا سعيد، صالح أصغر من أن يفكر كما تقول. صالح تاجر يا إسماعيل. معظم التلاميذ هنا تجار، صغار السن لكن لهم نفوسًا كبارًا. أربكني سعيد وقلت هذه نفوس مريضة. قال ربما هي بريئة براءة الأطفال تتألم لأقل أذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها. هنا لو أعطاك أحد شيئًا خذه بلا تردد، ولو طلب أحد منك شيئًا افعله أوْ أعطه أملًا حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسير الريح. طال سكوتي، ثم قلت إني ذهبت إلى صالح منذ قليل. ابتسم ساخرًا وقال أسعدته بالمجان.

***

في غرفة مكتبي رحت أنظر إلى الدولاب الزجاجي والمقاعد والساعة المعلقة في الحائط والأرض الموكيت والمكيف ذي الصوت العالي والخزانة والمكتب المجاور لها. هذه غرفة أحبها ولا أدري. الوقت بها يمر وإلا ما معنى هذه الشهور الأربعة التي مضت. لقد استقبلني الجميع اليوم بفرح. الآسيويون ونبيل ومنذر وعابد أيضًا ابتسم وعم عبدالله الذي أعجبه أن أقطع إجازتي وأحضر.. وفي التاسعة دق التليفون فسمعت صوت روز ماري. يا إلهي! كنت نسيت. قالت إنها تفعل ذلك كل يوم، وإنها تنتظر أن أقبل دعوتها للغداء. قلت أقبَلُها إذا كانت اليوم! فضحكت وكأني رأيتها تمتلئ بالفرح. لا تدري أني لا أريد العودة إلى البيت. قالت ستأتي في الثالثة بسيارتها وسأتبعها أنا بسيارتي. وما كدت أفرغ من المكالمة حتى جاء عابد من غرفته يسألني «هل قَبِلْتَ دعوة روز؟» كان يستمع إلى حديثنا فالتليفونات على

خط واحد. لماذا إذن جاء يسألني؟! أجبت «كما سمعت». ولم يختلج وجهه ولم يتغير لونه.

قال:

- هذا خطاب لك.

تناولت الخطاب وتأملته. ما هذا النسيان الجارف؟هذاخط واضحة لا أخطئه، وهذا خطابها الذي حدثتني عنه. واضحة التي تفجّر سرُّها أول أمس فقط ونسيته كأنه تم منذ زمن سحيق.

- هل تعرف أحدًا بالرياض؟

لم تكتب اسمها على المظروف لكنه قرأ الأختام.

- لي قريب هناك.

أجبته دون أن أنظر إليه.

***

في الثانية عشرة، بعد أن رأيت اليمني جالسًا على الأرض والسواك في فمه، وبعد أن ابتسم لي ابتسامة أكبر من كل مرة سابقة، وضحكتُ لأني كنت نسيته، دخل نبيل يحمل قهوة لم أطلبها، وجلس ثم قال:

- وصلني اليوم خطابان. واحد من أمي وآخر من خطيبتي. ما رأيك؟

- فيم؟

سألت مبتسمًا. ها هو ذا نبيل يعيد إليّ شيئًا من البهجة بطريقته التي كنت نسيتها في الكلام!

في الخطابين.

- أنا لا أعرف ما فيهما.

أَخْرَجَهما من الجيب الأعلى للجلباب ووضعهما فوق الكتب وقال:

- أمي تقول إن خطيبتي هددتها إن لم أرسل لها مبلغًا كبيرًا تحجز به شقة فإنها ستتركني، وخطيبتي تقول إنها تنتظرني كما ينتظر العصفور طلوع الصبح ليغني.

انطلقت أضحك وأحسست بالدم يجري في عروقي.

- لا تسخر مني. هذا خطاب خطيبتي وهذا كلامها اقرأه بنفسك.

- كنت مشتاقًا إليك يا نبيل.

تأملني باسمًا وقال:

- أنا أريد رأيك.

- قلت لك من قبل أن تسافر.

- وأنا قلت لا أستطيع. إنني أفكر في حل آخر. أرسل توكيلًا لأخي الأكبر يعقد قراني على خطيبتي، وأرسل إليها فيزة دخول، وتأتي بثوب الفرح تعيش هنا معي.

- حلٌّ سليم.

سَكَتَ لحظات وقال:

- المشكلة أن أخي الأكبر مختل العقل والثاني في السجن كما قلت لك، أنا لا أعرف كيف أخلص من هذه الورطة؟!

وقام وتركني والدهشة معي في الغرفة، لكني أحسست وكأني صرت أكثر صحة وعافية.

***

في الثالثة والربع جاءت روز. كان منذر آخر الذين انصرفوا من العمال. اقترب مني وهمس في أذني: «عندي حكايات يا أستاذ»! ثم تحدث بصوت

عال: «تكسر سيارتك أو أكسر سيارتي لنعود كل يوم معًا». وانصرف كالعادة متعجلًا.

رأيتها تقف بالسيارة خارج الباحة ووجهها وشعرها يلمعان في ضوء النهار الذي امتلكته الشمس بعد صباح مليء بالضباب. لقد نزلت تصافحني، وكنت أعرف أن عابدًا يقف بباب مكتبه ينظر إلينا فقد لَوّحَتْ له بالتحية.. رَكبَتْ سيارتها وتبعتها بسيارتي. قطعنا مسافة ليست بالقصيرة على الطريق الأسفلتي، ودخلنا إلى طريق جانبي ممهد بالحجر الأبيض الصغير المدكوك، وخايلني شيء بعيد في الرمال. كلب أبيض ضخم يمشي على مهل.

طال الطريق وترامت الصحراء، وظهرت فجأة سحب رمادية، وتوارت أشعة الشمس، وفجأة بانت بيوت منخفضة من الخشب المدهون باللون الأخضر وذات أسطح مائلة. هذا هو الكامب الذي يعيش فيه الأمريكان. عبرنا بوابته بعد أن أشارت للشرطي أنني معها، ورأيت ثلاثة صفوف من البيوت تشكل ثلاثة أضلاع لمربع، وكل بيت ينفصل عن الآخر بحديقة صغيرة دائرية يحوطها سياج من شجر قصير. بين جدران البيت وسياج الشجر أزهار شتوية مختلفة الألوان.

- هذا منزلنا.

قالت بعد أن تَوَقّفَتْ وتَرَكتُ سيارتي وصعدت ثلاث درجات بيضاء. أدارت المفتاح بالباب وقالت لي أن أدخل.

لماذا لم تدق الجرس؟ ماذا سيحدث معي اليوم؟ أيكون اليوم أيضًا خطأ جديد؟ تقدمتْ أمامي وخطوتُ مرتبكًا، لكنني سمعتُ صوتًا يتحدث بالإنجليزية ويسألها هل أتَيْتُ معها. هذا مستر لاري بالتأكيد تَنَفّسْتُ بارتياح ووجدته أمامي يستقبلني في الطرقة القصيرة. فابتسمتُ. لا أدري لماذا فكرت أني رأيت تربة الحديقة سوداء. طويل مستر لاري وقوي البنيان، يرتدي أوفرول أخضر كاكيّا يتردد إلينا في المكتب كثيرًا وهو يرتديه. يوحي إليَّ أنه رجل عمل ولا ينبغي للزيارة أن تطول، ليكن. لكن من أين حقًّا جاءوا بالتربة السوداء؟

- هاللو مستر إسماعيل. هاوْ دو يو دو؟

- هاللو مستر لاري.

وشدني من يدي إلى الداخل ورأيت روز تبتسم لنا، ثم تسبقنا وتختفي.

جلسنا في صالة واسعة في ركن منها مكتبة بها كتب وأسطوانات وشرائط كاسيت وتليفزيون وفيديو وبيك آب وستريو. في ركن آخر دولاب زجاجي أنيق عريض وقصير به وفوقه تحف صغيرة، وفي الركن الثالث منضدة سوداء لامعة بسيطة حولها أربعة مقاعد يقابلها في الركن الأخير الأنتريه الذي نجلس فوق مقاعده. أنتريه بسيط من الخشب السويدي فوقه حشايا منفصلة. لاحظت أن المنضدة شبه مجهّزة، عليها مفرش أبيض به ورد أخضر، وفوقه ثلاثة أطباق كبيرة وثلاثة أطباق صغيرة فارغة كلها موزّعة أمام ثلاثة مقاعد، وجوار كل طبقين سكين وشوكة وملعقة، وإلى الجانب دورق مياه وثلاث علب من السفن أب وثلاثة أكواب.

- بيرة مستر إسماعيل أم عصير؟لدينا بيرة محلية (وغمز بعينه) وبيرة..

- عصير.

قلت بسرعة حتى لا يعود إلى ذكر البيرة مرة أخرى. لا أريد أن يذكرني أحد بالليلة قبل الماضية.

قام واتجه إلى ثلاجة صغيرة لم أفطن إلى وجودها، وأخرج منها زجاجة من عصير الليمون، وملأ كوبًا قدمه لي، وراح يتحدث بصوت عالٍ بإنجليزية غريبة معجونة بلكنة أمريكية تأكل نهايات الحروف، وسمعت روز ترد عليه من مكان لا أعرفه ولا أراها منه، ولم أفهم مما يقولان شيئًا.

لحظات وأقبلت روز باسمة في ثوب أخضر زاهٍ قصير يكشف عن ساقيها حتى الركبتين، ومفتوح طوقه يكشف عن جيد عالٍ مُؤَسَّس على كتفين ممتلئتين وصدر ناهد. أحاطت روز عنقها بعقد من اللؤلؤ الأبيض اللامع وتعطرت عطرًا غامضًا يجذب مني أنفاسي. ليست هذه روز الجميلة التي رأيتها ترتدي الجينز. هذه امرأة تحمل دعوة على صدرها وفي عينيها. ولعلها أدركت معنى نظراتي فابتسمت.

- مالك مستر إسماعيل؟ أراك شردت بذهنك.

سألتني بعد أن جلست أمامي جوار زوجها. ماذا تريد مني روز بهذا السؤال؟

أجبت:

- لا شيء.

- هل تخاف طعامنا؟

ضحك لاري بصوت كاد يهز جدران البيت، فَنَظَرتْ إليه في دهشة ممزوجة بالاستياء فبدا خجلان وهو يقول:

- لا تخف مستر إسماعيل. نحن جميعًا غرباء. طعام الغرباء لا يختلف.

وسألتني روز:

- ألست سعيدًا في العمل مع مستر عبدالله؟

- مستر عبدالله شخص ممتاز، لا بد أنكما تعرفانه أكثر مني، مستر لاري يعمل في المؤسسة وأنت في حضانته.

وظللنا الصمت. بدا أني تجاوزت حدود اللياقة. قالت روز بعد قليل:

- فعلًا. مستر عبدالله شخص ممتاز.

وعدنا إلى الصمت. هل يتكدر صفو اللقاء؟هل ينتهي الكلام بهذه السرعة؟

لكن مستر لاري سألني:

- هل أنت من القاهرة مستر إسماعيل؟

- أنا من الإسكندرية.

- أوه. مدينة جميلة.

- هل زرتها مستر لاري؟

- لا. قرأت عنها رباعية داريل. لا بد أنك قرأتها. روز تقول إنك مثقف جدًّا.

أدهشني إطراؤه الكاذب وقلت:

- اختلفت الإسكندرية الآن. لم يعد بها أجانب ولا يهود بالذات.

- لكن اليهود يعودون الآن مستر إسماعيل.

- لا أظن مستر لاري.

قلت ذلك ونظرت إلى ظهر روز التي استأذنت وقامت لتحضر الطعام. ظهر بديع التقسيم، كدت أنهض وأحتضنه، وربلتا ساقيها تلمعان بألق غريب. لكنني تنبهت لنظرات مستر لاري، فأطرقت.

قام هو ووضع في الستريو شريطًا انسابت منه موسيقى خفيفة منعشة، وعاد يجلس صامتًا وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أختلس النظر إلى روز وهي تأتي لتضع شيئًا فوق السفرة، أو تعود إلى المطبخ، وعاد يسألني:

- هل تظن حقًّا أن اليهود لا يذهبون إلى مصر الآن؟

- يذهبون ولكن لا يهتم بهم أحد.

- لكن السادات يتحدث عن السلام كل يوم.

- السادات ليس الشعب المصري مستر لاري. بيننا وبين إسرائيل دم كثير!

وسكَتَ وسَكَتُّ وعدت أشعر بأني أفسد كل شيء. قلت ليكن. لكن روز وقفت فاردة ذراعيها تقول بصوت مبهج:

- كل شيء جاهز الآن.

قمنا للمائدة ولم يكن الغداء مختلفًا. كان بالضبط كما قال لاري، طعام الغرباء. شرائح من اللحم البارد، وشرائح من اللحم الساخن، وأرز قليل، وخبز أقل، وخضار سوتيه، وطبق كبير من السلاطة، وزجاجة نبيذ أحمر عليها علامة الفرسان الثلاثة.

قال لاري:

- يجب أن نعتذر لأننا نقدم إليك نبيذًا انتقل بالطائرة.

لم أفهم ماذا يقصد، فقال:

- النبيذ يفقد كثيرًا من مذاقه حين ينتقل. أفضل نبيذ تشربه من مكانه.

- هذه مسائل دقيقة مستر لاري، وأنا لا أشرب الخمر.

غيرت روز الموسيقى، وأدارت أسطوانة تحمل فالسات لشتراوس، وسألني لاري ما إذا كنت أحب الموسيقى، فتحدثت عن سترافنسكي وطقوس الربيع

وتشايكوفسكي ومارش السلاف. وبدا لاري معجبًا بثقافتي الموسيقية التي أعرف أنا مقدار بساطتها. وحين قال إنه يحب كثيرًا موسيقى هايدن، قلت: هذا الرجعي الكنسي لا يصمد دقيقة أمام فاجنر مثلًا! وبدا أن الجو تكهرب بحق هذه المرة، لكن روز ابتسمت وقالت بتفوق تحسد عليه: لماذا حقًّا لا تأكلون في صمت، وتستمعون إلى فراشات شتراوس وهي تحلِّق حولنا؟!

***

بعد الغداء قالت روز: إن بالكامب سينما ستعرض اليوم «التانجو الأخير في باريس».. وقال لاري:

- أظن أن مثل هذه الأفلام تمنع في مصر.

كنت أعرف أنه يريد أن ينال مني بأي طريقة. وأنا الحقيقة لا أدري حتى الآن لماذا بادرته بالعداء. قلت:

- نعم. هي ممنوعة في مصر.

ابتسمت كمن ظفر بغريمه، ولم يضايقني أنه وجد فرصة للنيل مني. لكنه سقط في الفخ، وقال لي أن أدخل لأنام في غرفة نومهما إذا كنت مرهقًا. أدركت أنه يعرف أني كشرقي سأرفض وأنصرف. رفضت لكنني لم أنصرف. قلت سأبقى جالسًا حتى أرى الفيلم.

كان لاري ضعيفًا هشًّا بحق. تكلم فجأة عن أمريكا وقال إنها ليست كما نراها في الأفلام. في أمريكا فقر وجوع، وإنه شخصيًّا بذل جهدًا كبيرًا حتى يأتي إلى المملكة السعودية.. بدا لي وكأنه يتحدث مع مسئول سعودي يملك قَدرَه، لكن روز التي جلست جواري بعد الغداء طول الوقت، كانت تبدو دائمًا أكثر ثقة بنفسها.

حين خرجنا إلى السينما كان الجو أكثر برودة. ربما لأننا هنا وسط صحراء واسعة. شاهدت أكثر من رجل وامرأة يخرجون من البيوت، ويمشون على مهل يضحكون ويتحدثون بصوت عال، ويتجهون جميعًا إلى السينما التي وجدتها صغيرة أنيقة ذات مقاعد جلدية وثيرة ومكيفة الهواء.

جلسنا، ودار الفيلم الممنوع في مصر، وخرجتُ مسحورًا بأداء مارلون براندو، ولكنني رأيت عم عبدالله ينظر إليّ في دهشة. كان بالسينما أيضًا، وكان في صحبته أمريكي قصير وضخم. بدا أنه امتعض لرؤيتي، لكنه تجاهلني ومشى في طريقه مع الأمريكي. ارتبكت قليلًا، ثم وجدت نفسي أفكر في الرقصة الأخيرة الجميلة في الفيلم، ومارلون براندو وهو يطلب من الفتاة الصغيرة أن تضع أصبعها في مؤخرته، وكيف راح يتلذذ بالألم وهي تفعل ذلك.

***

19

صرنا نتنفس الصمت ونأكله، سعيد يفعل كل شيء بهدوء. يقوم ويجلس كأنه خيال، يأكل كأن أسنانه تعمل وحدها وعلى مهل، لا يتكلم ولا يفتح التليفزيون. يصلي كثيرًا ويقرأ في القرآن بلا صوت. وأنا عرفت أن عايدة رحلت عن تبوك فَلَحِقْتُ بِصمتهِ.

في طريق عودتي بعد عودة روز ماري أحسست بألم في الجرح. كان الوقت ليلًا، والبرد شديدًا والظلام حولي يُضَيِّق الخلاء الواسع، وضغطُ البول شديدًا في مثانتي، فأوقفت السيارة ونزلت، وحوارها وقفتُ ورأيت الدم ينفذ من الضمادة فوق الجرح. سَبَّبَتْ الحركة شقًّا في مكان الخياطة إذَنْ. كان من الممكن أن آخذ طريقي إلى البيت ويتدبر وجيه الأمر، لكنني توجهت إلى المستشفى. وقابلت «وردة» أنا الذي رغبت أن أرى عايدة. أخذتني وردة إلى طبيب باكستاني، رفيع العنق، صغير الرأس بشكل مثير فقال لها أن تعالج هي الجرح، وتركنا مسرعًا حين سمع سيارة الإسعاف.

- أين عايدة؟ هل لا تزال تعمل بالليل.

سألتُ وردة وفوجئَتْ بسؤالي، فتورّد وجهها، وتَرَدّدَتْ في الكلام ثم قالت:

- في ضبا.

- ضبا؟!

- أجل.

- لماذا؟

- احتاجوا واحدة منا فأصابنا الرعب وتقدمت عايدة بنفسها تطلب العمل هناك.

- لكنني كنت هنا من يومين.. لم تقل لي شيئًا.

- حدث ذلك كله أمس، واليوم سافرت.

- إلى هذا الحد؟!

قلت بصوت هامس ووردة تنظر إليّ. انتهت من وضع الضمادة وجرت تلحق بالحادثة. كيف لم يخبرني وجيه؟ وما الذي يجعلها تأخذ مثل هذا القرار؟ أصابني الصمت فأصاب وجيه أيضًا الذي لم يجد أحدًا يتحدث إليه، فصرنا نتنفس الصمت ونأكله!

كان عليّ في اليوم التالي أن أذهب إلى واضحة، وكنت أعرف أنني لن أقابلها أيضًا. تلقاني خالد هاشًّا كعادته وأخذني إلى الحجرة الواسعة فلم أر المكتب.

وطدت نفسي ألا أنزعج.

- تفضل بالجلوس يا أستاذ.

وأشار إلى الأرض. لم أجلس ولم أرد.

- والله يا أستاذ واضحة مريضة جدًّا. منعها الطبيب من استقبال أحد لمدة أسبوعين قد تمتد إلى شهر ويعلم الله ما يحدث بعد ذلك.

مددت يدي أصافحه فصافحني. طيّر صالح سنيور الثقيفي خبر السُّكْر في كل تبوك. عند الباب الخارجي قال خالد:

- أعرف بيتك يا أستاذ. وحين تشفى واضحة سأحضر إليك.

ولم أرد. ثقيف طاردت الرسول بالحجارة حين ذهب إليها. من ثقيف خرج ابن جلا وطلاع الثنايا ودخل الكوفة فخلع العمامة وأصدر أول مرسوم يهدد بقطع الرءوس، لكنني لا أظن أن صالحًا ينتسب لثقيف. ليس إلا طائشًا موتورًا. من يترك الجنوب الطري إلى الشمال المترب الجاف الآن؟ وصار الصمت أعمق. وجاهدت في عودتي ألا أخطئ فأمر ببيت سيد الغريب، ذلك الموقوف المنسي بالخوف والخذلان. لا يجب أن يصيبني الصمت إلى الأبد.

سافر سعيد ولم أذهب اليوم إلى العمل، ذهبت معه إلى المطار ورأيت وجوه المصريين حولنا مبتهجة. متاعهم كثير وحركتهم دائبة والشمس ساطعة أكثر من كل يوم وضحكاتهم عالية. إنهم على أبواب الفضاء الواسع، لكن سعيد صامت وأنا يزداد صمتي.

عدت إلى البيت، وقرأت الصحف التي اشتراها وجيه ولم يقرأها. «بيجن» يعلن عن استئناف المفاوضات مع مصر خلال أسبوع أو أسبوعين في أمريكا، والأنباء تتضارب حول سفر الشاه، وشهبور باختيار رئيس وزراء إيران الجديد يعلن أن إيران قد توقف تصدير البترول إلى إسرائيل، وعشرات من الأطباق الطائرة تظهر فوق أستراليا. أجسام زرقاء لامعة تطير على غير هدى فوق الساحل الشرقي للقارة، ثم يتحول لونها إلى الأحمر وترسل إشارات غامضة، والعلماء يقولون إن هذه المشاهدات هي كوكب الزهرة الذي يبدو الآن في أقصى درجات لمعانه بحيث يمكن رؤيته اثنتي عشرة ساعة كل يوم بطريقة تخدع كل من يراه فيتصور أنه جسم متحرك.

عاد وجيه في الثالثة ودهش لأنني لم أتناول الغداء حتى عودته وقال: إنه من اليوم سنتغدى دائمًا معًا. قبل أن أدرك معنى كلامه فكرت في ارتفاع صوته المفاجئ، وقال:

- سأعمل بالليل شهرًا أو شهرين.

إذن سأمضي الليل وحدي. قلت في نفسي وعاد هو يقول:

- أظن أنه لا حاجة بنا لأحد يسكن معنا، أمْ لا تتحمل ميزانيتك نصف الإيجار؟

قلت في حسم:

- لسنا في حاجة إلى شريك ثالث ولا إلى هذا البيت نفسه.

- كيف؟

- هل تستطيع العيش الآن في بيت يملكه صالح سنيور الثقيفي؟

***

كدت أنام بعد الغداء أنا الذي أعلنت الحرب على النوم الذي أعلن الحرب عليّ.. في يومين متتاليين ضاعت عايدة وواضحة، ولم يبق إلا روز ماري التي أعرف أنها لن تزيد على جملة عارضة.. والآن أيضًا ضاع سعيد فازدادت للنوم الأسلحة.

خمسة أيام وأنا أستخدم كل سلاح حتى لا أنام. أستحم أكثر من مرة في اليوم الواحد. أتناول غداءً خفيفًا رغم هزالي بعد العملية. لا أجلس فوق السرير. ألعب الرياضة في الغرفة، وأفكر بصوت عال. لكن النوم مثل وسواس خناس ينجح دائمًا في اختلاس لحظة ترتخي فيها أهدابي فيضع فوق عينيّ دثارًا ثقيلًا من الظلام، ويشدني من قدميَّ إلى أسفل سافلين، ويظل واقفًا فوق رأسي يرسل كوابيسه ورؤاه. يصيبني النوم بالرعب الآن وأراه جالسًا أمامي في كل مكان في الغرفة يبتسم ماكرًا مطمئنًا إلى أنه سيد الكون. أنا يا سيدي مستعد للاستسلام بشرط أن تغير رؤاك. لماذا تداهمني بالرعب ولم أخطئ حتى الآن في حق أحد؟!

أغلق كتاب واضحة إلى الأبد وخاب حدسي، واختفت ببساطة إغلاق يد وانفتاحها، ولا أظن أن للقصة تتمة غير ما جرى فكل ما أحسست به لم يكن غير ظمأ. أم تراك تظن أني أشتهي روز ماري التي دعتني ولا أفهم للآن سرّ دعوتها؟ ها أنت ذا رأيت، يا سيد العيون والأجساد، ويا باعث الحياة وسالب الأرواح، أني ضيقت صدري أمام زوجها، ووضعت الجنادل في طريق المياه العذبة السلسبيل. لعلك تلومني من أجل عايدة. أي خطأ في أني لا أفهم المرأة إلا للزواج؟ أي خطأ في أني كدت أبوح برغبتي؟ هي التي سدت الطرق وفتحت باب جرح ما له من شفاء. ستبقى هنا عشرين سنة حتى يُشفى هشام الذي دهمته سيارة يوم زيارة نيكسون للبلاد. تحاصرني السياسة أنا المحاصر يا سيدي لا تنس، واتركني أنام مرة كالأطفال فلم أخطئ يوم صرَّحت «لآمال» أني لا أفهم الحب إلا للزواج. من كان يدريني ببساطة العقل وشفافية الروح، أنني ضحية الواجب والمبادئ العائلية البالية.

لا خطأ لي ولا خطيئة رغم موت «آمال» وضياع الجميع. في زماننا لا يموت أحد بالحب إنما هي قصص قديمة كلها فما خطيئتي إن كان ذلك قد حصل؟ ألا تزال تنظر إليّ رغم أني جالس فوق المقعد أقاوم دبيبك النملي وإغراءك بأن أغفو ولو لحظة فوق السرير؟ سأستحم الآن، ولن أعطيك اليوم فرصة. اليوم على الأقل. حتى لو عميت عيناي وتحطمت أعصابي.

وتركت المقعد متعبًا. وتمددت فوق السرير أقاوم رغبة في البكاء.. أملت حقًّا في النساء الثلاث.. لم تبق إلا واحدة لا أمل فيها. أي خيبات تلو خيبات! خيبات أصنعها بنفسي، وخيبات تلقى في طريقي. وشددت الغطاء فوقي ودَخَلَتْ الوجوه الثلاثة معي تحته، ورأيتهم، أولئك الحراس الأشداء سود الوجوه صفر الأسنان ذوي الابتسامة الدائمة والنظرات الممتدة إلى الأفق البعيد العالي، يسوون الأرض ويرشونها بالماء ويقيمون جدارًا عاليًا ويلوحون بأيديهم للسماء فيتساقط منها أولاد صغار وأولاد كبار وشيوخ وشبان ونساء

وبنات، وترتفع في الأرض أحجار ويمسك بي الخصيان، ويلقون بي إلى أعلى فأجلس فوق جبل تحيط قمته المياه فلا أستطيع النزول.

وأرى واضحة مكومة على الأرض جوار الجدار رأسها بين ركبتيها وذراعيها، وتستيقظ وترى الذين يدورون حولها بالابتسامات البلهاء والذين نزلوا من السماء أمسكوا الأحجار التي ارتفعت فوق الأرض، وتفزع وتجري إلى اليمين فتراهم وإلى اليسار فتراهم وأمامها سدّوا الطريق، ولا سبيل لها بتسلق الجدار وأنا عاجز عن النزول وهي تسمع صراخي وترفع لي ذراعيها هلعًا.. و حجرٌ بعد حجر والدم ينفجر من رأسها!

وروز تقف على قمة جبل قبالي انشقت عنه الأرض فجأة تضحك وتخلع ثيابها تُطيِّرُها في الهواء، وتعود الأرض وتنبسط ويصعد الجميع إلى السماء وينزاح من حول الجبل الماء، وأنزل بخطوات بطيئة أتقدم إلى واضحة التي تكومت الآن تنهنه كطفل انتهى من الصراخ بعد أن ضربوه ضربًا مبرّحًا وجلس وحيدًا في ركن ذليلًا يدرك مبكرًا جدًّا معنى الإهانة..

ويذوب الجدار قطعًا من الثلج فيصير بحيرة باردة، وتمسكني يدٌ من ذراعي تقيمني أنا الجالس ورأسي بين ركبتي وذراعي حول رأسي أنهنه بالبكاء.. وأرفع وجهي وأراها، عايدة، يترقرق الدمع في عينيها، وأمشي معها فتسقط مني في حفرة في الطريق، وأظل أمشي وحدي باكيًا أمسح دموعي بيدي ويطول الطريق وأبدّل فيه ثيابي وأدخل الشارع العام فأصرخ يا إلهي ما كل هذا الجحيم؟ جحيمان في لحظات وأنا ما جئت السوق إلا التماسًا للتعب حتى إذا نمت أنام بعد سماء النوم بألف سماء فينساني، لكن سيارات الشارع العام كلها تعود في اتجاه واحد، وتصرخ ويعلو نفيرها، وتكاد تقفز بعضها فوق بعض، وأتقدم مسرعًا في الشارع أرى الأفق الجنوبي أسود من الدخان الكثيف الذي يعلو ألسنة اللهب التي ملأت صفحة الفضاء بالاحمرار الجنوني.

انفجارات متوالية وأخشاب تطير عاليًا وأشياء ضخمة لا أميزها وأشياء صغيرة، والرجال والنساء يقبلون مسرعين في ذعر يحملون الأطفال أو يجرونهم جرًّا بلا رحمة، والحمم الحمراء تسقط فوق المنازل القريبة، والصراخ يختلط بكل اللغات وأتقدم غير مبالٍ بالاختناق، الذي صرت أحسه وأجري مع الغرباء أسحب الساقطين فوقً الأرض من الرجال والنساء والأطفال، أعود مسرعًا بهم إلى شمالي الشارع بعيدًا عن النار والدخان، وصوت عربات الإسعاف يأتي من الخلف لكنها لا تتقدم من زحام السيارات التي تركها راكبوها الآن وجروا، وعلينا نحن الذين لا يعرف واحد منا الآخر أن

نحمل الموتى والمختنقين إلى سيارات الإسعاف حيث تقف، وصوت عربات الإطفاء يملأ الفضاء وتدور حول الشارع لتدخل من الشوارع الجانبية إلى موقع الحريق الذي يلتهم نصف الشارع العام الجنوبي كله، وبرزت الخراطيم الضخمة من الأزقة لكنها فجأة تفلت من أيدي الجنود تتلوى على أرض الشارع كالثعابين الضخمة المذعورة وتسقط فوقها حمم النار فتزداد تهورًا في التواءاتها ويهرب الجنود والمياه تغرق أرض الشارع ولا تتجه إلى الفضاء ولا إلى النار..

وتمر غيمة كبيرة في السماء فتظلم الأرض ويرتفع التكبير بكل اللهجات وترتفع الأذرع ضارعة أن يهطل المطر ولا مطر، فتمر الغيمة غير آبهة لنا ويرتفع في الجو هدير الطائرات المروحية الضخمة الصفراء وأقرأ على جوانبها «القوات الجوية للولايات المتحدة». أجل. حروف بارزة والطائرات قريبة تلقي فوق الشارع سحبًا من الدخان الأبيض وأنهارًا من المياه.

مضى وقت طويل حقًّا حتى وجدت نفسي وحيدًا بين الخراب الشامل. كنت مبتلًّا بالمياه من رأسي إلى قدمي لكنني لم أكن متعبًا.. أي قوة جنونية تلبستني أنا الذي لم يمضِ على خروجي من المستشفى ثمانية أيام. ولم أشعر بأي ألم في جرحي. فقط صرت أشم رائحة شواء. فحم محروق أمْ خشب أمْ حجارة أمْ بشر؟ لا أدري إلا أنني أرى عيونًا ذاهلة للرجال والنساء تبحث بين المحروقين الذين يملأ صراخهم الفضاء، والساكنين بعد أن صاروا جثثًا متفحمة. كُشِفَتْ وجوه النساء جميعًا وسقطت أغطية الرءوس من فوق الرجال وارتفع الأذان من المسجد الكبير وكل المساجد، واقتربْتُ من منطقة أم درمان التي لم تُصبْ بسوء. الجامع يحميها أم أن أهلها ليسوا من هذا الزمان؟

ووقفت أجتهد لتذكر من الذي كنت أبحث عنه بين الموتى والمصابين. كان سعيد هو الذي ينزل معي دائمًا إلى السوق. سافر سعيد حقًّا وودعته بنفسي في المطار..

***

20

صار عليّ أن أجاهد لأنسى. لا شيء هنا ينسيك شيئًا. تبوك لا تنسيك «أمك ولا أبوك».. المسألة أن الغرباء هم الذين جاءوا يبحثون عن النسيان.

ساعد انتقالنا إلى بيت جديد في انشغال ذهني بعض الوقت حيث ترك لي وجيه الأمر كله. بصعوبة استأجرت بيتًا صغيرًا من غرفتين وعلى نفس الطراز العربي في نفس الحي الذي نسكنه، الفيصلية غربي البلدة، لكن عند نهايته حين يلتقي بالصحراء. بيت جديد لا تزال فيه رائحة الملاط والدهان، وتخلصت أيضًا من الأثاث الزائد ببيعه لأحد تجار «الحِراجْ».

أحسست وأنا أدخل البيت الجديد لأول مرة أني قادم لفوري من مصر ولم يسبق لي أن عرفت أحدًا هنا. قلت لعلّ النوم يعود إلى ما خلقه الله له، ونمت بعمق حقًّا. لم يزعجني الفأر الذي كأنما على موعد معي. دخل وعشَّش في المطبخ، ولم أفكر في قتله أو مطاردته. جلستُ وكتبت خطابًا لعايدة. أغلق كتاب واضحة إلى الأبد وهو كتاب فتحته حماقتي، وكتاب روز ماري خداع كله. فتاة نُذرت للموت واضحة وما كان لي أن أخطو على دربها خطوة فأحرك في نفسي أسى كنت دفنته وأهلت فوقه التراب، وعليّ أن أتوسل لله بالحمد والعرفان، فما جئت هنا لأقتل أو أموت، ولتظل الأوقات التي أمضيتها معها مغامرة حلوة أدركت منها حيوية الجسد، وانفساح الدنيا وكذبة الأخلاق. وروز ماري طمع الريفي الذي يمضي في المدينة يومًا واحدًا ويعود لأهله وأصحابه يحدثهم عن فتوحات استقاها من تحذيراتهم السابقة له، ولا مهرب لي من عايدة. عايدة فقط تؤاسي جراحي الوهمية، وبها يمتلئ فضائي الذي اكتشفت خواءه الآن..

لم أكتب إلا «لماذا فَعلتِ ذلك؟» إجابتها إن جاءت تتم القصة.

وكتبت على المظروف «عايدة عبدالسلام. مستوصف ضبا» وكأني نفثت نفثة الارتياح. تأكد النوم صديقًا طيبًا. وكدت أكثر من مرة أقوم باحثًا عن الفأر لأبتسم في وجهه المذعور وأشجعه على البقاء. وانزاح عني كل خوف من أحد أو على أحد. وأدركت أنه قد مضى شهر لم أر فيه روز ولم أسع لرؤيتها ولا هي سعت، كنت مهيّأ للنسيان إذن وخطابي لعايدة هو قطرة البلسم الأخيرة لروحي التي اعتلّت بلا سبب. هو بداية الجهد لإنعاش ذاكرة الأنثى الجميلة بأنه لا أنثى في هذا العالم مهيأة لما هيأت نفسها له من

واجب. ما الذي يمنع حقًّا أن أكون فارسًا نبيلًا في هذه البلاد؟ كل فارس نبيل أنقذ امرأة في تاريخ هذه الدنيا أحبها وأحبته.

واليوم، وقد مضت ثلاثة أيام على خطابي لها، أقود سيارتي إلى العمل بروح أثيرية رغم السحب السوداء الخادعة غير الممطرة التي تحجب عني السماء، وتعزل الشمس عن أبنائها، وتضم البرد القارس تحتها، فأشعل السيجارة تلو السيجارة في كابينة السيارة مغلقة النوافذ.

رأيت الباكستانيين يقفون أمام الكامب وحقائبهم الكثيرة على الأرض ولا يكفون عن الحركة، وأنا أميل بسيارتي عن الطريق الرئيسي لأدخل باحة مكتب الشركة. رأوا سيارتي أيضًا ولوّحوا إليّ بأذرعهم من بعيد. عشرة سيسافرون اليوم إلى باكستان في إجازتهم السنوية. تسعة منهم أمضوا في العمل خمس سنوات متواصلة، فيهم خمسة أنهوا تعاقدهم ولن يعودوا. العاشر أرشد الذي ينتظم في القيام بإجازته كل عام، وسيعود بعد الإجازة يبدأ عامه الخامس. ودّعوني أمس وأنا أعطيهم التذاكر وجوازات السفر، وسألوني ما إذا كنت أحب شيئًا من باكستان، كلهم والذين لن يعودوا أبدوا كرمهم، لكن أرشد كان يبدو مرتبكًا. لم أشأ أن أسأله. قلت لعلها المشاعر التي تسبق السفر الطويل. بدوا لي اليوم في سراويلهم البيضاء الفضفاضة، والجاكتات الزرقاء والخضراء فوقها، وحركتهم الدائبة أمام الكامب، كأطفال يوم عيد. ودخلتُ الباحة تمرحُ في صدري النشوةُ والابتهاج.

جلست وحدي بعد أن أقبل العمال ووقعوا في دفتر الحضور،وما كدت أشرع في ترجمة بعض التقارير، حتى فكرت لِمَ حقًّا لا يأتي وجيه بإحدى زوجتيه لتعيش هنا معه؟ تجاوز وجيه الخامسة والأربعين، ودخل في منطقة الفراش الهانئ والبيت المريح، والنظرة الطيبة للزوجة الطيبة، والسعادة بما يثيره الأولاد من ذكرى وهم يعاودون ولو قليلًا، سيرة الأب في العلم والحب والآمال. نمط غريب من البشر وجيه حقًّا يشقى ليسعد زوجتين بعيدتين تزوجهما ليبقى عنهما بعيدًا!!

- شُفْت الباكستانيين؟

قال نبيل وهو يدخل الغرفة باسمًا يحمل فنجان القهوة.

- قرود. والله قرود. طوال الليل تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على حبل، تعال يا نبيل ساعدنا في العثور على كرتونة فارغة، إيش تبغي يا نبيل من باكستان. يا عم لا أبغي شيئًا اتركوني أنام، اسهر معنا يا نبيل فلن نراك مرة أخرى.. لقد ظلوا يغنون طوال الليل.

- وأرشد؟

- غريب أرشد. لم يتكلم كلمة. لماذا؟ هل تعرف؟

ولم أجد ردًّا. لا أعرف ردًّا حقًّا. وسكتنا قليلًا ثم قال نبيل:

- ماهي حكاية الأطباق الطائرة هذه الأيام؟

- أيْ أطباق طائرة؟

- ألا تقرأ الجرائد؟ ألا تسمع النشرات؟ أطباق طائرة في أستراليا وقلنا بعيد، في نيوزيلاندا وقلنا بعيد، في اليابان وقلنا أيضًا بعيد، في أمريكا أيضًا بعيد، لكن في الهند وشمالي العراق وتركيا يعني أن المسألة قريبة جدًّا.

- وماذا يعنينا من قربها يا نبيل؟

- أنت تضحك! ألا تعرف؟ أطباق طائرة يعني أن الناس الذين يعيشون بعيدًا عنا في المريخ أو زُحل يمهدون لغزو الأرض!

انطلقتُ أضحك بشراسة وهو ينظر إليّ في خجل ودهشة.. ابتسامة ذاهلة لم تنته إلّا بدخول سيارة وسماعنا صوت عم عبدالله وهو يدخل يتحدث لأحد بالإنجليزية.

- يا نهار أسود!

قام نبيل وهرع إلى البوفيه، وبعد لحظات وقف عابد على باب غرفتي يدعوني لمقابلة عم عبدالله.

***

- هل لديك مشكلات في مصر؟

سألني عم عبدالله بعد أن صافحني مستر لاري الذي وجدته معه في غرفته:

- مشكلات من أي نوع؟

- مع العمل.. مع الجيش. أنا أعرف أن كثيرين منكم يهربون من الجيش ويزوّرون أوراقهم.

- أنا لا مشكلة لي مع أحد.

قلت وأنا أطيل النظر إلى عينيه:

- إذن تسافر بعد يومين إلى القاهرة.. «لاري» يشرح لك.

وانشغل عنا بالتليفون يدق أرقامه فقام مستر لاري وهو يقول:

- يمكن أن نتحدث في مكتبك.

سبقته وتبعني،وجلسنا على مقعدين متقابلين، ولا بد أنه لاحظ شرودي قبل أن يتكلم.

مصر. والآن. نطقها عم عبدالله فاتسع صدري بالفرح. مصر.. والآن. لعل فيها الشفاء من كل شيء. مصر. من لي بالاتصال بعايدة بسرعة البرق لأعرف عنوان أهلها هناك فأقابل هاشم المتفائل الذي لم تحب من إخوتها غيره والذي ضرب حولها سورًا من الانتظار صلدًا دون أن يدري. أيّ صلة تربطني بها حتى أرسل إليها برقية يمكن أن يقرأها أيّ أحد؟ لا تليفون بين تبوك وضبا. لا تليفون؟! اللعنة على البترول والريال والدينار والدولار الذي لم يزل يوسع في المسافات!

- كيف حالك مستر إسماعيل؟

- بخير مستر لاري.

- الرحلة إلى مصر جميلة على أي حال.. لقد رشحتك أنت بالذات لهذه المهمة منذ رأتك روز. قالت إنك تجيد الإنجليزية ونحن نحتاج لها.

- حدثني عن المطلوب مستر لاري..

- في هذا المظروف بوليصة شحن بضائع قيمتها ثلاثمائة ألف دولار. عشرة صناديق من المعدات المهمة شحنتها منذ أربعة أشهر من سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا ولم تصل حتى الآن. على بوليصة الشحن كما ترى رقم الرحلة وتاريخها والشركة التي شُحِنَتْ عليها. شركة طيران لوفتهانزا

الألمانية. وهنا أيضًا خط سير الرحلة سان فرانسيسكو. نيويورك. ميونيخ. القاهرة. جدة. تبوك.

- ولماذا أذهب للقاهرة مستر لاري؟

- لأن الاحتمال الوحيد الآن هو فقدان هذه البضائع في أحد المطارات، ومطار القاهرة هو المرشح لذلك، أنت تعرف مصر أكثر مني مستر إسماعيل.

قال ذلك وابتسم، لكني لم أبتسم. عاد إليّ شعوري بالتحدي إزاءه. ذلك الشعور الذي قفز بيننا فجأة بلا سبب والذي أشعر به وقد ازداد اليوم.

- لكن ألا يمكن مخاطبة هذه المطارات بالتلكس من هنا؟

- فعلنا ولا إجابة حتى الآن. مسألة غريبة مستر إسماعيل، لكن لا تشغل بالك كثيرًا، سنجد البضائع في النهاية.

وأخرج من جيب سترته الداخلي روزمة صغيرة من الريالات وورقة وقلمًا.

- هذه خمسة آلاف ريال لك مصروف جيب بالقاهرة. أنا أعرف أن كل شيء في القاهرة تحركه النقود. وهذا إيصال أرجو أن توقع عليه.

ولم أجد طريقة لأرد إليه الإهانة. إنه على حق بالتأكيد. ارتبكت لأنني لا أعرف كيف أنتصر عليه. وَقَّعْتُ على الإيصال بسرعة فقام يقف مبتسمًا ويقول:

- عليك الآن بالاتصال بالخطوط السعودية لتحجز لك تذكرة في رحلة بعد غد، ولا تنس أن تطلب فيزة خروج وعودة لمدة شهر أو شهر ونصف الشهر حتى يكون لديك متسع من الوقت.

***

خرج «لاري» ودخل «أرشد» في نفس اللحظة شاحب الوجه لكن في عينيه غيظ شديد، وألقى بنفسه على أقرب مقعد.

- أرشد. غير معقول!

ونظرت إلى ساعة الحائط. العاشرة. الطائرة تقلع في التاسعة.

- هل تأخرت الرحلة أرشد؟

رفع عينيه إليّ وهز رأسه بالنفي. لا يزال فيهما غيظ وغضب.

- لماذا عدت إذن؟

- بوتو مستر إسماعيل.. بوتو وضياء الحق..

- هل قتلوه؟

- أيدت المحكمة العليا قرار الإعدام السابق ضده. رفضت الالتماس الذي قدمه. بوتو لم يطلب العفو. المحكمة تعمل كما يريد ضياء الحق.

- أرشد.. أنت صديقي.. أظن ذلك. هذه المسائل الكبرى لا يجب أن تعطلنا. بوتو يقتل ضياء الحق. ضياء الحق يقتل بوتو. إلى الجحيم جميعًا.

- أنا أوافقك مستر إسماعيل.. لكن - وأجهش في البكاء - لقد هيأنا أنفسنا للسفر اليوم. أرسلنا برقيات لأهلنا وهيئوا أنفسهم لاستقبالنا. كلنا نبكي الآن مستر إسماعيل. كلنا نحب أولادنا وزوجاتنا وآباءنا وأمهاتنا وأخواتنا. وهَّاج يبكي. غُلام يبكي. سرور يبكي. خورشيد وجُناح ومحمد. نحن تعساء جدًّا.

ولم أكن فهمت شيئًا بعد. أصابتني الحيرة ودخل نبيل الذي عرف بنبأ سفري للقاهرة يقول بصوت عال:

- هنيئًا لك بالسفر.

وتوقف عن الكلام إذ رأى أرشد يبكي.

- مالك أرشد؟ مالك صديق؟ لماذا تبكي؟ هل هناك مشكلة حول الكمّون؟

احتجت إلى قوة كبيرة أن لا أضحك، ولم يرفع أرشد وجهه إليه.

قلت لنبيل:

-لقد حكموا على بوتو بالإعدام مرة ثانية.

- بوتو. بوتو من؟ آه بوتو رئيس الوزراء.. هل هو قريبك أرشد؟

ومرة أخرى كتمت رغبتي في الضحك وغمزت لنبيل بعيني أن يكف عن الاسترسال في الكلام. سألت أرشد:

- أنا لا أفهم سبب عودتك من المطار حتى الآن.

- التظاهرات مستر إسماعيل اندلعت في كل باكستان. الحكومة أغلقت المطارات.

قالوا لنا ذلك هنا، وقالوا إنه من الأفضل إرجاء الرحلة بدلًا من الانتظار في جدة أو في بومباي بالهند.

وسكتنا نحن الثلاثة. كان نبيل لا يزال واقفًا. قلت لأرشد:

- لا أظن أن دولة تغلق مطاراتها أكثر من يوم أو يومين، وغدًا وبعد غد ليس بعيدًا أرشد..

ولم يرد. وعُدْنا نسكت من جديد حتى سألني:

- ماذا سنفعل الآن مستر إسماعيل.. نعود إلى العمل؟

- لا. ابقوا في الكامب. سأحسب لكم ما تمضونه من انتظار أيام عمل. لا تقلق أرشد.

وقف وقال:

- أشكرك جدًّا مستر إسماعيل. لا تلمني على بكائي.

وصافحني وظل ممسكًا بيدي لحظات. قلت:

- أنا أحبك أرشد. وأحب كل الباكستانيين.

فشد على يدي بيده في تواضع كبير وانصرف.

***

لم يعطني أحد فرصة الجلوس وحدي. جلس عابد معي كثيرًا يشرح لي عنوانه بالمطرية وأعطاني ألف دولار لأسلمها لأبيه. خرج وكان نبيل لم يتحدث معي بعد فيما يريد ولم يغادر الحجرة فحدثني عن إمبابة التي يحن إليها، إلى جلوسه في المقهى ولعب الدومينو بين السلخانية والجزارين والبشكارية الذين مهما لبسوا ملابس نظيفة تبقى بها آثار دم، ولم يطلب مني شيئًا، غير أنه سكت مرة سكوتًا طويلًا وقال إنه يحلم هذه الأيام بأنه يقف على شاطئ النيل في الكيت كات ويقذف بالأحجار لتصل إلى الشاطئ الآخر في الزمالك. حلم يتكرر كثيرًا ولا يفهمه. كان يفعل ذلك وهو صبي وكان زملاؤه يحسدونه ويندهشون من هذه القوة الهائلة في ذراعه وعجزه في الوقت نفسه عن السباحة مثلهم في النيل؛ بل وخوفه الشديد من النزول إليه. وسكت مرة أخرى طويلًا وقال لي إنه يخاف كثيرًا مسألة الأطباق الطائرة التي تتحدث عنها الصحف والإذاعات، ماذا يحدث لو سقط طبق طائر على بيتهم في إمبابة؟!

البيوت قديمة متساندة بالعافية ويمكن أن تحترق كلها. ولم يصدق أبدًا أنها خرافات حتى الآن إذ لم يأت شخص واحد بطبق طائر أو مخلوق جاء مع الطبق وعرض صورته أو عرضه إلى الناس على شاشة التليفزيون.. لماذا إذن يتحدثون عنها إذا كانت خرافة؟ قلت له أنا لا أعرف مثلك أيضًا لماذا يتحدثون عنها، ولكن أذكر أنهم في مصر قالوا بعد هزيمة «1967» إن مريم العذراء تظهر كل ليلة في كنيسة بالقاهرة. قال «بالمطرية وهذا حصل»، لقد ذهب مع أمه ونساء الشارع ورآها. قلت له: لقد وضح بعد ذلك أن هذا كان من ترتيب المخابرات المصرية لينسى الناس الهزيمة، فضرب جبهته بيده وصرخ «يا دين النبي»، وقال إنه لا يصدقني، فلم أشأ الاسترسال، فقال إن الصحف تتحدث عن أطباق طائرة في بلاد كثيرة وهذه علامات الساعة! وخرج.

ورأيت الساعة الثانية عشرة فالتفت إلى الباحة أنظر إلى اليمني فوجدته واقفًا بباب الغرفة فوقفت في ذهول.. سيكلمني. وتقدم وصافحني مبتسمًا ابتسامته الواسعة:

- تسافر إلى مصر.. ؟

- أجل. هل ترغب في شيء أحضره لك معي؟

انقبضت أسارير وجهه وتجهم وتركني وخرج يجلس مكانه يمضغ السواك. ماذا كان يريد مني؟ ولماذا سألني؟ لم أفهم. ودخل عابد إلى الغرفة وقال

إنه فكر وقرر ألا يرسل شيئًا لأحد الآن لأنه أرسل مبلغًا أكبر منذ أسبوع، فأعطيته ألف دولار وأنا في دهشة مما يفعل. لكن منصور الذي انقطع كثيرًا عن الظهور دخل الباحة بعربته فأثار زوبعة من الغبار.

***

- بلغني أنك تسأل عني؟

قال وهو يدخل من الباب والقرد فوق كتفه ولم أكن سألت عنه. فكرت فيه مرة. أردت أن أخبره بانتهاء خطوبة وداد وسعيد، ليس حبًّا فيه، ولكن كرهًا في وداد التي لم أرها، والتي دفعت سعيد للاحتفال الذي أنهى وجوده هنا. أنا لا أعرف ماذا كان منصور يُبيِّت لهما، لكني لا أظن أنه لا يبيت إلا شرًّا. هل أفعلها الآن وأخبره؟

قلت بعد أن جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، ووجه نظره نحوي ينتظر إجابة:

- لم أسأل عنك، وإن كنت أحببت أن أراك.

- لقد عرفت القصة كلها.

- أي قصة؟

- قصة رأس السنة. لقد ولّى صاحبك.

وسكتُّ. كيف عرف بسفر سعيد؟ هل يعرف صالح شيئًا عن منصور أيضًا؟ تجاهلت منصور وشرعت أترجم ما لم أبدأ فيه بعد من تقارير. لم يتحرك منصور من المكتب. رأيت القرد يقفز على المكتب ثم إلى الأرض ويقف ينظر إليّ كأنه يعرفني أو يحاول أن يتذكرني.

- تعال.

صرخ فيه منصور، وكنت أنا وقفت مذعورًا من نظرات القرد الصغير الذي احمرت عيناه، وبدأ متحفزًا لعمل ما لا أدركه. خرج منصور من خلف المكتب ووقف يمد ذراعيه أمام القرد الذي لم يتجاوب.

- تعالَ يا كلب.

ولم يتحرك القرد. فقط نظر يمينًا ويسارًا. خلع منصور العقال الأسود المجدول بإحكام وطوّح به في الفضاء فأحدث صوتًا كصوت سوط مروض الأسود، وأحنى القرد رأسه ومر السوط من فوقه. فزع القرد وقفز إلى الخلف وتشقلب في الفضاء فصار وجهه إلى الباب فأسرع يجري قافزًا إلى الضوء في الباحة الواسعة. «قف لا تتحرك يا كلب». صرخ منصور وهرول خلفه والعقال في يده فانزلقت الغترة من رأسه إلى كتفه إلى الأرض وصار في الباحة يطوِّح بالعقال خلف القرد الذي صار يصرخ بصوت رفيع متقطع ووقفت أنا عند الباب ورأيت نبيلًا يقف عند باب البوفيه، واليمني جالسًا في مكانه لا يتحرك أو يهتم، فقط توقف عن تحريك السواك واتسعت عيناه ولمعتا. ووقف منصور يصرخ تعالَ.. تعالَ. والقرد يقف بعيدًا ينظر إليه في رعب فاندفع منصور ناحيته وطوح بالعقال في الهواء بقوة جعلتني أفكر أنه لو طال القرد لشطره شطرين لكن القرد قفز أعلى السيارة الكاديلاك البيضاء لعم عبدالله الذي غادر المكتب في المرسيدس الصفراء اليوم. دار منصور حول السيارة والقرد يتحرك فوقها عاجزًا عن الهرب أو هكذا بدا لي، ولم ينقطع منصور عن فرد ذراعه اليسرى ليقفز القرد فوقها والتلويح بالعقال بهدوء في الهواء..

وكأن القرد كان يعرف نية منصور ففي اللحظة التي طوّح فيها بالعقال بقوة قفز إلى أعلى وصرخ صراخًا طويلًا رفيعًا متشنجًا وعاد يقف فوق السيارة ينظر في شراسة إلى منصور. اتركه. سينزل وحده. هتف نبيل الذي يقف بعيدًا أمام البوفيه لكن منصور لم يكن في وضع يجعله يستمع إلى أحد فقد قفز يصعد السيارة من الأمام وقفز القرد قفزة كبيرة من فوق رأس منصور وهو يصعد فانزلقت قدم منصور وسقط بوجهه فوق زجاج السيارة الأمامي وشهقتُ خوفًا لكن الزجاج لم يتهشم، ورأيت القرد يجري نحو باب الباحة لكنه لم يخرج. دار مع السور وفزع اليمني الذي لم يترك مكانه فقام لأول مرة لكنه تعثّر وانكفأ على الأرض وتجاوزه القرد المصروع حتى وصل إلى البوفيه، فدخله نبيل بسرعة وأغلق الباب.. ودار القرد مع الجدران فكاد يصطدم بي لكنني تراجعت خطوة فمر من أمامي..

وكان منصور قد استجمع نفسه ووقف بباب الباحة يسده بتلويحه بالعقال اللامع ووقف القرد قريبًا منه لا يتحرك. كل منهما ينظر إلى الآخر في تحفز ورأيت شعر منصور أسود طويلًا ناعمًا لكنه صار منكوشًا، وجحظت عيناه واحمرتا بالشرر. وأرخى منصور ذراعه تاركًا العقال فوق الأرض وتقدم ببطء فاردًا ذراعه للقرد. تعال لا تخف. تعال يا أخي. لكن القرد جرى من جديد

وبسرعة مذهلة ناحية البوفيه الذي ظهر نبيل على بابه مرة أخرى وقفز قفزة جبارة إلى أعلى تجاوز بها البوفيه وسور الشركة معًا. وخرج منصور مسرعًا من باب الباحة لكنني كنت أعرف أنه لن يلحق به.

عاد وحده ولم يتفوه بكلمة وركب سيارته ومضى،ووقفت أنا أفكر أين ذهب القرد الآن. لا بد قد لحق بالكلب الأبيض الشارد في الرمال التي لا نهاية لها.

***

21

هذه هي القاهرة.

نحن فوقها الآن. لكني لا أرى شيئًا، عاصفة ترابية تعطل هبوط الطائرة، يعلن الطيار أننا قد نضطر للهبوط في مطار الأقصر، وأنا الذي أحببت النيل والأهرامات لا أرى إلا فضاء أصفر من خلف زجاج النافذة الصغيرة التي حرصتُ على الجلوس جوارها إذ في ذهابي جلست كيفما اتفق وكنت مشغولًا بالخوف من ركوب الطائرة لأول مرة.

في إيابي اليوم خيبت العاصفة رجائي، ولم أر من مصر كلها إلا لساني البحر الأحمر منفرجين صامتين وها هي ذي الطائرة تَحُوم دائرة فوق القاهرة أكثر من مرة وأشعر بدورانها والعاصفة الترابية لا تتيح لي أن أرى شيئًا. وأفكر فجأة ألا أعود إلى المملكة فلن يسأل عني أحد ولن أضر أحدًا. والخمسة آلاف ريال التي أخذتها تركتُ في عملي أكثر منها راتبًا لم أتقاضه ومكافأة وإجازات لم أقم بها.. على السادة الركاب البقاء في مقاعدهم وربط الأحزمة استعدادًا للهبوط وأنشغلُ بالجلوس في وضع مستقيم وأسمع تمتمات بآيات قرآنية حولي وأرى الصمت الرهيب محلقًا فوق الرءوس إذ سيهبط الطيار رغم العاصفة، ورجاء إطفاء سجائركم ويطول الصمت حتى لكأن الطائرة حجرٌ ترتطم عجلاتها بالأرض بقوة ولا صوت فزع ويعلو صوت محركاتها ويشتد صراخها وهي تجري الآن فوق الأرض.. نهنئكم بسلامة الوصول والساعة الآن الثالثة بعد الظهر بتوقيت القاهرة ودرجة الحرارة في الخارج «خمسة» مئوية وأسمع صوت عربات الإسعاف والحريق، لكن المضيفات المصريات يقفن يبتسمن لنا. هي إذن مجرد استعدادات ويطول الوقت قبل أن تنفتح الأبواب وتنفتح فنجري إلى الأوتوبيسات الصغيرة تصل بنا بسرعة إلى صالة الوصول فأراها خالية تقريبًا، وما تكاد إجراءات دخولنا تنتهي حتى تصل حقائبنا وكل شيء يتم بسرعة مستر لاري ولا تقل لي إنها العاصفة الترابية ألغت رحلات كثيرة اليوم.

أخرجُ من المطار فلا أرى الفضاء الواسع أمامه بل أرى الناس تجري مخفية وجوهها في صدورها وتطير ثيابها والغبار يدخل الحلوق والأنوف ويشد فوق العيون جفونها فأدخل أول تاكسي يقابلني وأشير للسائق أن يضع حقائبي في حقيبة السيارة.

- حمد الله على السلامة.

- الله يسلمك.

- إلى أين؟

- الإسكندرية.

- في هذا الجو! الأجرة ثلاثون جنيهًا.

- موافق.

- إذن خذ سيجارة مني.

ويلتفت السائق يعطيني سيجارة ويبتسم بوجهه الأسمر النحيل المحاط بكوفية تغطي الرأس أيضًا وتلتفت حول العنق، وينطلق بالسيارة، ويدير مسجلها، فينساب صوت أم كلثوم.

- لا تخش شيئًا. سنصل بالسلامة. شريطان فقط ونصل. الأول «جددت حبك ليه» والثاني «ذكريات» يا أستاذ - وضحك - أم تحب تسمع «أروح لمين؟».

ويضحك أكثر وأبتسم أنا.. ويدير مكيف السيارة الليموزين فيسري الدفء في جسدي والاطمئنان معه ولا يطول الطريق إذ أصل وكأني ركبت منذ دقائق وتُضربُ حولي حلقة الاستقبال والابتهاج ودموع أمي ونضحك والتليفزيون يبث نشرة الأخبار: سقوط طهران في يد أنصار الخميني والغموض يحيط بمصير باختيار، والملك الحسن يعلن أن الشاه يبقى بالمغرب كمواطن عادي والشاه يشكر السادات على الأيام التي قضاها في مصر بعد خروجه، وضياء الحق يرفض الاستجابة للنداءات الدولية بالعفو عن بوتو، ويقول إنه لا حيلة له في حكم المحكمة، وأرشد يقول لي صباح أمس لا مفر من إعدام بوتو ما دام ضياء الحق أعلن كذبًا أنه لا يتدخل في عدالة المحكمة، ويبتسم وهو يعلن لي أن المطارات فُتحتْ في باكستان وأنه سيسافر اليوم في طائرة المساء. رحلة طويلة مستر إسماعيل لكنها جميلة. تبوك. جدة. بومباي. لاهور. بيشاور. آمنةزوجتي وزينب ابنتي ثم أصدقائي مستر إسماعيل..

والوجوم لا يزال على وجه أمي إذ رأتني شاحبًا وعرفت أنه أجريت لي جراحة للزائدة وأقول لها لقد حدث ذلك منذ أكثر من شهرين الآن ولا أظن

أني شاحب كما تقولين وأضحك وتضحك أختي سناء وتقول إني في أحسن صحة ويقول أخي بهاء إني في أحسن حال، وهذه ساعة رادو وزجاجة بارفان شانيل وثلاث بلوزات مونتيجو فرنسية وقطعة من الحرير الطبيعي تصلح فستانًا وقطعة من الصوف الهيلد الإنجليزي تصلح تاييرًا لك يا سناء وقبلة من أختي على خدي والفرحة تكاد تقفز من عينيها، وهذه ساعة أورينت وقطعة صوف لبدلة وطقم أقلام شيفر وابتسامة وشكرًا بلا قبلة من بهاء، وهذه طرحة من الحرير وقطعة قطيفة وبالطو أسود شيك وعباءة مغربية لك يا أمي وكتر خيرك يا بني ودموع، وهذه الحقيبة بما فيها لروحية وولديها وعليَّة وبنتيها ولا يقترب منها أحد ونضحك، والحقيبة الثالثة بها فستق ولوز وتفاح وشاي ليبتون وعصير برتقال جاف وصابون لوكس وفلفل أسود وهي وأشياء كثيرة تستطيعين يا أمي تقسيمها بالعدل، ولا تضحكوا! هكذا يفعل المصريون جميعًا وأنا تعلمت منهم..

وأنت ماذا أحضرت لنفسك؟ الكثير يا أمي تركته هناك.. هناك هناك. إذن سأعود. ليس لأني اشتريت شيئًا تركته ولكني أحس بالحنين للعودة ويزداد الحنين كلما مر يوم بعد يوم وأمشي في شوارع الإسكندرية فكأني أرى مدينة لا أعرفها، فالزحام خانق والمواصلات بطيئة والأرض طينية والمباني باهتة الطلاء والتليفزيون يبث برامج غريبة ليس فيها الألفة التي ربطت بيني وبين «مجلة التليفزيون» ولا «من كل بحر قطرة» أو «أبجد هوز» ولا «تيلي ماتش» و«الرجل الأخضر» ولا «الشيخ الطنطاوي» وصوت الأذان ليس جريحًا ولا ذبيحًا ولا فيه رنة حزن قادم من فوق جبل بعيد ولا يصحبه دعاء شجي ينقل الروح إلى بحار الوداعة، وليس هنا هواء جبل أحد الجاف ولون الجبل الأحمر القاني الوديع.

أريد أن أعود حقًّا فأنا أنتظر رسالة من عايدة التي تمضي الليل وحدها على سطح بناء مخيف في بلدة يسكنها الصمت والأشباح ولا يكفيها أبدًا صوت عبدالحليم. ما لك يا إسماعيل؟ كل يوم تقول لي أمي ذلك وتراني دائمًا متلبسًا بابتسامة لا تعرف أني أرد بها على اليمني غريب الأطوار، أو متلبسًا بضحكة ولا تدري أني أستمع لنبيل، أو ترتسم الحيرة على وجهي ولا تدري أن أمامي يجلس منصور متجهمًا والقرد على كتفه، أو يعلو الضيق سحنتي ولا ترى عابدًا يعطيني خطابًا من واضحة عرف أنه من الرياض. خطاب واضحة؟! أين هذا الخطاب الذي لم أفتحه؟.. أخذته إلى البيت، أم تركته في العمل؟ كيف مضى كل هذا الوقت من دون أن أفتحه.. وأعصر ذهني لأتذكر أين خبأته وينتابني القلق من عابد الذي يمكن أن يجده في المكتب فيفتحه ويقرؤه.. وأمنّي النفس بأني أخذت الخطاب معي إلى البيت ولابد أنه بين

أوراقي هناك وأعود وأقول ولو وجده عابد وقرأه ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما جرى؟ راحت واضحة وانتهت قصتها إلى الأبد..!

ولماذا أنت صامت يا ولدي ولا تسأل أختك عن أحوالها الدراسية ولا أخاك؟ ويا لها من أم!.. أمي لا تريدني أن أنسى مؤامرة أبي عليّ. وينتهي أسبوع وأقول هذا يكفي بينكم وعندي عمل بالقاهرة ويسكت الجميع وتأخذني أمي إلى غرفتي التي حرصوا على نظافتها في غيابي كما قالوا وتقول إن علاء بن عباس الحلواني تقدم لخطبة سناء وينتظر عودتي. ولا تنتظر أن أبتلع دهشتي «علاء تخرج في كلية الحقوق العام الماضي كما تعرف». وأتذكره الولد الهادئ الوديع الذي أقام أبوه وليمة كبيرة للفقراء يوم نجاحه «علاء طموح يفكر في فتح مكتب للمحاماة» وتغلق أمي كل الطرق..

ويمضي أسبوع آخر يحضر فيه علاء وأبوه ويشكو لي الرجل من غلاء السكر والدقيق والسمن والزيت والشربات والألوان الصناعية والألبان والسمسم والشيكولاتة وكل شيء يدخل في صناعة الحلوى وأنه لا يكسب إلا بائعو الفول والفلافل والمقاولون واللصوص والتجار الكبار. وتزغرد أمي وأختاي الكبيرتان ويمتلئ البيت بالضيوف ويُقام فرح بسيط وتتم الخطبة وأزهو بجمال سناء جوار علاء وتفر من عينيّ دمعة الآباء والأمهات.. وإلى محل مصطفى درويش أصحبهم للعشاء وتبهرني الأضواء البيضاء والمناضد البيضاء والمفارش البيضاء وثياب العاملين البيضاء،ويتحدث علاء عن مشروعه في امتلاك الشقة والمكتب فهو جاهز لهما إلى حد ما. إلى حد ما؟! وتقول سناء إن علاء يحبك جدًّا وكيف قال إنه لن يتحدث في الخطبة مع أحد إلا أنت حتى لو أتيت بعد عشرة أعوام. لم يكن ممكنًا البقاء عشرة أعوام يا سناء، ولا أتكلم وأرى البحر مظلمًا واسع الظلام ونوبة البرد شديدة حقًّا غير كل عام فوق الإسكندرية المشهورة بالدفء.

وفي البيت تقول أمي لا يجب أن تنتظر سناء أكثر من عام فسترة البنت الزواج.. ما رأيك؟ رأيي؟! لقد رتبتم كل شيء. ولا أتكلم وأقوم لأنام فتأتي خلفي. ألم تفكر بعد في بنت الحلال؟ أبتسم ولا أرد وأسعى للنوم الذي لا يسعى إليّ وأدخل تحت الغطاء فعليّ أن أعود وأكمل عامي الأول وأعطيه لعلاء وسناء. في أيّ ركن من الظلام كان علاء هذا يقبع وينتظرني. ليكن لكل مؤامرة نهاية ولا أظن أن عايدة ستنصاع للفارس النبيل قبل أقل من عام.

أنام وأصحو مبكرًا جدًّا أسأل أمي عن فاروق الذي أتذكره فجأة فتسكت قليلًا وتقول إنها لم تعد تعرف عنه شيئًا إذ تقدم إليها يخطب سناء فرفضت.

كيف تُزوجها له وله من زوجته السابقة ولدٌ. أندهش وتستمر تقول إنها عرفت منه أنه يعمل في شركة لتقسيم الأراضي بالساحل الشمالي ويكسب أكثر مما كان يكسبه في السعودية، ولكن سناء قرأت في الصحف أن شركته قد استولت على أراضي الدولة وقسمتها وباعتها للناس بملايين الجنيهات وعجز الناس عن استغلال ما اشتروه من أرض وهناك قضايا كثيرة مرفوعة على الشركة الآن. وأقول لأمي إني عقدت العزم على السفر إلى القاهرة،وتبكي لكن لا بد أن أسافر وتفرّ دمعة من عين سناء،ويشد بهاء على يدي وأخرج دامعًا. لا يوجد حقًّا وداع طيب في هذه الدنيا فما بالي أريد الرحيل في أسرع وقت؟

أصل إلى القاهرة في الحادية عشرة صباحًا. ينزلني الأوتوبيس أمام فندق هيلتون وأرى ميدان التحرير أمامي مخيفًا وأصعد الكوبري العالي أدور فوقه وأنزل عند أول شارع سليمان كما وصف لي عابد قبل سفري، وأحس فجأة بالارتياح فالشارع رطب وارتفاع العمارات على الجانبين واتساعها يعطيني الإحساس بأني أمشي في قبو لو أردت فمن الممكن أن أنام فيه.

لا أمشي كثيرًا حتى أجد مكتب لوفتهانزا على يميني فأدفع الباب الزجاجي الثقيل وأخاطب واحدة من الفتيات الثلاث الجميلات فتصحبني إلى الدور الأعلى لأقف أمام رجل باسم أنيق متوسط العمر. تفضل بالجلوس. أجلسُ وأتكلمُ. أين بوليصة الشحن؟ ها هي ذي. يتأملها ويبتسم بوليصة مزورة.. نعم؟ مزورة انظر إلى هذه. ويعطيني واحدة أمامه. هل تجد فرقًا؟لا أجد. نحن نعرف كيف نميز بينهما.. للأسف الشديد هناك عصابات دولية كثيرة تعمل في هذا المجال وفي أمريكا بالذات. مالك ترتجف؟ أنا لا أفهم شيئًا يا سيدي. هل أنت صاحب الشركة؟أنا أعمل فيها. إذن عد وأخبرهم بما قلته وأستطيع أن أعطيك خطابًا بذلك. مالك ترتجف؟ ولم أقل إن أحدًا لن يصدقني أنا ويصدقون لاري. فلاري يكسب. اطلب مني أي شيء أفعله. أشكرك يا سيدي. أريد إرسال تلكس لكل هذه المطارات وآخذ ردود التلكس معي. هذا سهل وحتى تطمئن أكثر اذهب إلى صالة شحن لوفتهانزا بالمطار وهناك ستقابل المهندس «مجدي» سيبحث معك عن البضائع وسيرسل ما تشاء من تلكس. ولا أستطيع القيام ويشرح لي هو ما كنت في غنى عن شرحه.

- تخيل أنك ذهبت تشتري بضائع بمليون جنيه وقابلك أحد رجال العصابات وأغراك بأن يعطيك بوليصة شحن مزورة نظير عشرة بالمائة من ثمن البضاعة التي لم تشترها ووافقت وأخذت البوليصة. ستفوز بتسعمائة ألف ويفوز هو بمائة ألف وكل منكما لم يتعب في شيء. كثير من المندوبين

الذين ترسلهم دول الخليج لشراء بضائع من أمريكا يفعلون ذلك. لا يهم ما يحدث. سيهرب بالمبلغ وتدخل الدولة أو الشركة التي أرسلته في قضايا خاسرة مع شركات الشحن وشركات التأمين. لا أحد حتى الآن يستطيع القضاء على هذه العصابات الأمريكية. تفضل هذا تصريح لدخول المطار وصالة شحن لوفتهانزا.

وقمت أمشي غير مصدق. خمسة آلاف ريال مستر لاري أنهى بها العمل في القاهرة وأنت ثلاثمائة ألف دولار. كل دولة لها ما تستحقه حقًّا. لقد نجحْت لاري في اختياري وأحكمت أنت وروز خطتكما. مصري فقير ذكي يعرف أن عم عبدالله لن يستمع إليه.. ليكن. إلى الجحيم بكل الناس وكل البلاد وكل أموال النفط فها هو ذا شارع سليمان ينتهي ولا أستطيع عبور الشارع المقابل فأقف. في الجو لفحة من برودة، والأتوبيسات الحمراء الضخمة تجري في الشارع الواسع تنفث دخانًا أسود وتزمجر وحولها تجري الميكروباصات الصغيرة وسيارات الأجرة والملاكي والناس تتكاثف مزدحمة على الرصيف وتعبر الشارع مسرعة من كل نقطة، وعند تقاطع الشارعين يقف عدد من ضباط المرور والجنود لا حيلة لهم في هذه الفوضى المرعبة. هل أعود مرة أخرى إلى شارع سليمان الذي تمشي فيه السيارات بطيئة من زحامها لكن لا تجري فيه الأتوبيسات ويمشي الناس متزاحمين فيه لكن على الرصيف؟ لقد لمحت أكثر من سينما فيه فهل أعود وأدخل إحداها حتى ينتهي هذا الزحام؟ لا أظن أنه ينتهي إلا بالليل. إذن أقفز السور الحديدي الذي يحد الرصيف وأجري أعبر الشارع، فهأنذا أقرأ لافتة «جراند أوتيل». هذا المبنى الضخم المقابل ليس سوى فندق.

- أريد غرفة بسرعة.

أقول لموظف الاستقبال وأنا ألهث بعد عبوري الشارع، وأقف أمامه أحاول تنظيم أنفاسي. وقد صار يتأملني بإمعان فأقول:

- آسف. هل لديكم غرفة لشخص؟

وأتلفت حولي دون قصد ولا أزال مرتبكًا فأعود أقول:

- آسف جدًّا. أنا خائف من مدينتكم. أنا من الإسكندرية ولم أتعود هذه الفوضى وهذا الزحام. أنا أيضًا جائع جدًّا. هل يوجد طعام في هذا الفندق؟

- لدينا كل شيء.

وأرى الابتسامة التي يتكلفها موظفو الفنادق تأخذ مكانها أخيرًا، وأعطيه جواز السفر وخمسين جنيهًا تحت الحساب. وفي الغرفة التي يصحبني إليها الرجل النوبي العجوز، أستلقي فوق السرير ناسيًا جوعي وهلعي. يا إلهي! كم مرة أتيت القاهرة؟ ثلاث مرات. الأخيرة كانت يوم سفري، فلم أدخل المدينة. والثانية كانت اعتماد أوراقي، فلم أبتعد عن ميدان التحرير إلا إلى القنصلية السعودية بجاردن سيتي. والأولى كانت من زمان.

عام 1968 جئنا في رحلة مدرسية معتادة لطلبة الثانوية العامة يزورون فيها أسوان والقاهرة. في القاهرة أمضينا يومين نزلنا خلالهما لوكاندة كئيبة جدًّا بشارع كلوت بك. زار زملائي والمدرسون الأزهر والحسين والقلعة والمتحف الإسلامي والمتحف الحربي والأهرامات. هربت منهم في الأزهر والحسين مشيت كثيرًا في شوارع الجمالية وجلست بمقهى رخيص في شارع بين القصرين. مقهى يكاد يكون تحت الأرض.. لم أر وجهًا واحدًا ذكرني بأحمد عبدالجواد ولا فهمي ولا كمال الصغير ولا ياسين الطائش ولا عائشة التي ترصَّد لها القدر ولا أمينة ولا خديجة ولا الأحفاد. رأيت نساء ذوات أعجاز ضخمة ونساء شديدات التبرج وسمعت ألفاظًا قليلة الحياء من الرجال والنساء، وتساءلت: كيف ومن أين كتب نجيب محفوظ ذلك كله. وكانت هذه أول مرة أدرك أن الكتابة ليست كما يحدث لي. شعور جميل وزهو بما أكتب، إنها مشقة كبرى تساءلت بعدها:هل يعطيني الزمان القدرة على ذلك الشقاء الجميل؟ ولما رأيت زقاق المدق القصير جدّا الضيق الأسود الرطب تعجبت كيف عاش فيه كل أولئك الذين عشت معهم وضحكت وبكيت..!

ولم يدهشني إلا شكل البواكي على جانبي شارع كلوت بك ومحلات الأحذية والشنط الكثيرة والمقاهي الصغيرة الضيقة والنساء العجائز يجلسن فيها غير قادرات على الحركة ويدخن النارجيلة وتعلو وجوههن مساحيق مضحكة. بدت لي القاهرة في ذلك الوقت مدينة أقدم من الإسكندرية.. أقدم من الزمان. وكانت السواتر الحجرية قد أقيمت أمام مداخل البيوت والنور ينطفئ في الشوارع مع المساء ودخان الهزيمة لا يزال في الفضاء!

القاهرة الآن مدينة سافرة بالجهامة لا تدري بشيء ولا تحب أن يزورها أحد.. مركباتها تطحن أقوى العظام فلن أبقى فيها طويلًا، وهأنذا يمر بي يوم بعد يوم كئيب طويل ممل. أخبرني الخادم النوبي أني أستطيع أن أتناول طعامًا أحسن من طعام الفندق في المطاعم المجاورة بالتوفيقية وأشرب الشاي في مقاهيها. وأول ما قابلني كان مطعم الشامي فدخلته ووجدته واسعًا أنيقًا لكني كل يوم أتناول الطعام فيه وحدي.. ورأيت على الجهة الأخرى كافيتريا «كازابلانكا» الصغيرة فصرت أشرب فيها الشاي مع واحد أو اثنين جالسين

في صمت، ومن بائع الجرائد الذي يقف أمام الفندق أشتري كل الصحف والمجلات وأدخل الفندق أقرأ وأتمرغ فوق السرير.

لم أذهب للمطار غير مرتين. في كل مرة آخذ تاكسيًا من أمام باب الفندق وفي الأولى أخبرت المهندس مجدي بقصتي، وفي الثانية بعد خمسة أيام سلمني ردود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو ولا بضائع وصلت إلى نيويورك أو ميونيخ أو القاهرة. هل كان يجب أن تأتي إلى القاهرة لتفعل ذلك؟ وابتسم.

يا مستر لاري لقد رفض أن يأخذ رشوة مليمًا واحدًا، وأنا الآن أمضي النهار في الفندق أنتظر مرور الأيام الخمسة وأقرأ الصحف والمجلات التي تتحدث عن اقتراب سفر الوفد المصري وعلى رأسه مصطفى خليل رئيس الوزراء إلى أمريكا للتحضير للتوقيع النهائي على معاهدة كامب ديفيد، وعن جرائم الاغتصاب الكبرى والشقق المفروشة للدعارة، وصورة السادات في كل صفحة تضحك بالبايب الشهير. أنا لا أخرج إلا بالليل أعبر الشارع بثبات الآن، وأدخل سينما مترو لأرى فيلم «الزلزال» لأني أحب آفا جاردنر وأدخل في اليوم الثاني سينما ميامي لأشاهد «رجب فوق صفيح ساخن» ولا أضحك مع عادل إمام إلا قليلًا. وفي الليلة الثالثة أدخل سينما كايرو بالاس وأشاهد ممثلة جديدة اسمها ماري فرانس بيزيه لأن معها راف فالون ذا الوجه الحاضر ولا يدهشني تدخل الرقابة كل لحظة في الفيلم الجميل الذي أسموه «الرغبة المدمرة» واسمه «الجانب الآخر من الليل»، والوقت أيضًا لا يمر فأبدأ بعد التاسعة مسيرة على الأقدام إلى الحسين. لماذا أفعل ذلك؟ أريد التعب. تعب الليل يعني نوم النهار وانقضاء الأيام الخمسة رغم برودة الليل هنا في القاهرة.

كل ليلة أرى أشجار حديقة الأزبكية كأنها قردة سوداء والظلام يلفها وتبدو لمبات الكافتيريات التي أقيمت شيئًا مشوهًا بتعدد ألوانها الخضراء والحمراء. وأقطع الحديقة مع الصمت وأنظر وكثيرًا ما أجد نيامًا يلتفون بالخيش. وأدخل شارع الأزهر فأجده خاليًا أغلقت محلاته ولا أحد يمشي معي غير سيارات قليلة تسبقني ولا أفتأ أفكر كيف كانت حديقة الأزبكية حين أجرى الفرنسيون فيها تجاربهم على المنطاد بين عيون المصريين المدهوشة الخائفة ولا أجلس في حي الحسين بأي مقهى ولا آكل في أي مطعم إذ يحدد لي رجال البوليس الذين انتشروا طرق السير فأدور خلفه أشم رائحة نتنة في الأزقة وأعود وأحاول أن أتذكر ما كنت قررت أن أفعله في القاهرة.

الليلة، وهي الأخيرة، تذكرت. غدًا في الصباح أزور سعيدًا. لقد ترك لي عنوانه قبل رحيله. كم يكون رائعًا أن أفاجئه باكرًا بزيارة، أقول لنفسي وأنا عائد إلى الفندق والساعة قد تجاوزت الواحدة بالليل وأنا أمشي وحدي في شارع 26 يوليو وأقترب كثيرًا من الفندق، وإذ بيد تمسك بي من كتفي تشدني بعنف إلى زقاق جانبي مظلم وتدفعني إلى الحائط. اثنان هما. رجلان، ماردان في عيونهما شرر مخيف. واحد يحمل سيفًا والثاني يمسك بسلسلة طويلة سميكة من الحديد.

- طلع اللي في جيبك يا بن القحبة.

أسمع صاحب السلسلة، وأرى عينيه فيهما نذير الموت، وصاحب السيف يبتعد للوراء ويرفع سيفه إلى أعلى. وأتلكأ ذعرًا، أتلكأ موتًا. فيتراجع صاحب السلسلة ويصوب لي ضربة قاصمة على ذراعي، تُشعل النار في رأسي، فيناولني الأخرى على جانب قدمي اليسرى، فأسقط فوق الأرض، أزحف رعبًا فينهالان على ظهري ركلًا ثم يحملني صاحب السلسلة الجبار ويسندني إلى الحائط وصاحب السيف يصرخ بصوت مكتوم: «اتركه لأذبحه».

- أرجوك.

أتوسل بصوت لا يخرج إلا بالكاد.

- ترجوني.. با بن.. الـ..

- خذ ما تشاء..

فيتركني وأسقط على الأرض ممددًا ويقلبان جيوبي يأخذان ما فيها.

- معه ريالات ودولارات. إنت منين ياواد؟

- إسكندرية.

- حرامي في المينا يعني.

ويركلني كل منهما في ضلوعي ويسرعان بالاختفاء.

ملمس الأرض بارد وأنا عاجز عن النهوض يداهمني التعب فأكاد أنام وأتذكر أن بقية نقودي في الفندق، وفي الفندق جواز السفر، فأشعر ببعض القوة وأتحامل على ذِراعِي، وأزحف حتى الشارع. ومستندًا إلى الجدرانِ أقف

وأمشي مرهقًا أكاد أقع في كل خطوة. كان من الممكن أن يقتلاني حقًّا. ولا أرى حولي إلا أعمدة النور تضيء خلاءً من الظلام ولا توجد حتى النسمة الباردة.

***

22

لا عايدة ولا واضحة ولا روز ماري ولا أرشد ولا منذر ولا نبيل. لا عابد ولا منصور ولا وجيه ولا صالح سنيور الثقيفي. لا شيء يشدني للعودة، ولا شيء يشدني للبقاء إنما هو شعور غامض يدفعني للأمام وشعور غامض آخر يشدني للخلف. مسافر أنا من مصر إلى تبوك الآن وجئت منذ عشرين يومًا من تبوك إلى مصر فمن أي البلاد أنا؟ وفي أي بلد ثالث ولدت ونشأت؟

أقلعت الطائرة في الخامسة بالتوقيت المحلي ووصلنا في السابعة والنصف بالتوقيت المحلي!.. الرحلة تستغرق ساعة ونصف الساعة لكنهم يسبقوننا بساعة من الزمان.

وصلت إلى البيت في الثامنة والنصف، فوجدته مظلمًا. سأمضي الليل وحدي، فوجيه لا يزال يعمل بالليل.

دخلته وبدّلت ثيابي وبحثت عن طعام فلم أجد، فأعددت كوبًا من الشاي، وتمددت فوق السرير وتحت الغطاء، ورحت آكل بسكويتًا تركته في الغرفة من قبل، وأحتفظ به دائمًا لإفطاري، ورحت أبتلعه بالشاي الساخن وأدهشني ضيق الغرفة. هذه غرفتي، وهذا بيتنا فتحت بابه بمفتاحي. قفزت وفتحت التليفزيون فاتسعت ولما سمعت حركة الفأر في المطبخ ابتسمتُ، لكني قررت أن أبدأ من الغد في مكافحة الفئران.

***

- ألم تحضر لي خطابًا من أمي؟

- سألني نبيل وهو يدخل إليّ بقهوة الصباح. لا يزال الصباح هنا مكرسًا للبرد القارس رغم انتهاء شهر فبراير. استيقظت اليوم ولم يكن وجيه قد عاد من المستشفى، فكتبت له ورقة تركتها في المطبخ، أعلمته فيها بحضوري، وطلبت أن يعد لنا غداء.

كان عابد أول من قابلني ولم يسألني عن المهمة ولم أشأ أن أخبره بشيء. فقط أعطاني خطابين قال إن أحدهما من الرياض والثاني من ضبا، وسألني:

هل تعرف أحدًا في ضبا أيضًا؟

ولم أرد. رحت أبحث في مكتبي عن خطاب واضحة السابق فلم أجده. لا أستطيع أن أسأله عنه، ولأبحث جيدًا في البيت اليوم.

- أنت لم تطلب مني ذلك يا نبيل، ولم تعطني العنوان.

وتأملت لحيته التي أطلقها وبسمة الحزن التي لم أعهدها على وجهه، وقبل أن أسأله عما ألمّ به في غيابي، قال:

- ربما فعلًا لم أطلب ذلك منك، لكن كان عليك أن تذهب.

وانصرف وترك الوجوم معي في الغرفة، ولولا أني انتبهت للخطابين في يدي لنسيت أمرهما أيضًا، وضعتهما في جيب سترتي وبدأت أستعد لاستقبال العمال الذين أقبلوا يوقعون في دفتر الحضور ويبتسمون لي، ووقف منذر وحده يكلمني بعد أن أخذني في صدره وربت على ظهري بقوة وقبَّل وجنتيّ بشكل حميم.

- لقد تركت البيت يا أستاذ.

- أي بيت يا منذر؟

- البيت الذي أسكن فيه، قلت لك عندي حكايات ولم تعطني الفرصة.

- أما زلت تذكر يا منذر؟

- أنا والله أريد أن أنسى، لكنها أخت القحبة لا تتركني. لقد استأجرتُ بيتًا عربيًّا. تصور من كان يعارضني. زوجتي. بلهاء يا أستاذ.

- لو حكيت لها القصة ما عارضتك.

- إيه يا أستاذ. يا مصري. أحكي لزوجتي. مجنون أنا. النساء صغيرات العقول. إنها لن تصدقني أبدًا وستقول أنّ لي علاقة بالمرأة وتتحول حياتي إلى جحيم. إن أخيب الرجال هم الذين يحدثون زوجاتهم بصدق. المرأة يا أستاذ لا ترى إلا ما في رأسها..

وتركني أضحك ورحت أخرج التقارير المركونة التي لم يستطع عابد ترجمتها في غيابي، لكن وَصلَ عم عبدالله وسمعته يسأل عابد عني فأدركت أنه

سيطلبني.

***

- إيش سويت يا إسماعيل؟

سألني بعد أن دخلت مكتبه ورأيت مستر لاري معه. صافحني لاري بحرارة، صافحني عم عبدالله بلا مبالاة. لم أرد على سؤاله وقدمت له ردود التلكس.

- إيش هذا؟

تعمدت ألا أنظر إلى لاري، وقلت:

- هذه ردود التلكس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو، ولا بضائع وصلت إلى مطار من مطارات الرحلة.

امتعض عم عبدالله، ونظر إلى لاري الذي رأيته بيتسم جامد الأعصاب.

- ماذا نفعل يا لاري؟

سأله عم عبدالله بالإنجليزية. أجاب لاري؟

- من الأفضل الآن أن يسافر أحد إلى سان فرانسيسكو.

ازداد عم عبدالله امتعاضًا، وقال:

- إذن جهز نفسك للسفر.

وقام ليغادر المكتب، لكنه ابتسم فجأة وقال:

-لا تنس أن تأخذ روز معك، لا تتركها وحدها في الكامب.

وضحك عم عبدالله، فضحك لاري وخرج يغادر المكان خلفه.

***

لم يمض نصف ساعة على انصراف عم عبدالله ولاري إلّا ودقّ التليفون. وجدت لاري على الناحية الأخرى يطلب إليّ أن أقبل دعوة جديدة إلى الغداء اليوم.

- لا أعتقد أني أستطيع اليوم مستر لاري.

- هذه رغبة روز مستر إسماعيل وعليك تلبيتها.

- لكني بالفعل مشغول اليوم مستر لاري.

- إذن ننتظرك على العشاء مستر إسماعيل.

وقبل أن أتكلم قال:

- لا تحاول الاعتذار مستر إسماعيل.

لم يترك لي أي فرصة، وأنا أيضًا لم أندهش من كذبه. متى عرفت روز بحضوري حتى يقول إن هذه رغبتها. أنا أعرف خاتمة القصة وسأذهب فقط ليعرف أني أعرف.

وتحسست سترتي أتأكد من وجود الخطابين اللذين لا أستطيع قراءتهما في الغرفة، ليس خوفًا من أحد، ولكن أخشى لو أخرجت أحدهما يضيع. من اليوم عليّ ترتيب مكان في البيت للرسائل التي لا أظن أنها ستنقطع.. مَنْ؟ منصور؟! هتفت وأنا آراه يقف بالباب على كتفه قرد صغير. نسخة من القرد السابق إلا أن الهالة التي حول رقبته رمادية.

- كيفك إسماعيل؟ كيف حال مصر؟

قال وهو يدخل ليجلس خلف المكتب الثاني كعادته.

- بخير منصور.

- لعلك رأيت الأسرة ووجدتها بخير.

- كل شيء طيب في مصر يا منصور.

- أعرف أخي إسماعيل. لقد كنت هناك أيضًا.

- في مصر؟

- طبعًا. سافرت إليها أولًا وأمضيت أسبوعًا، ثم سافرت إلى السودان. أما رأيت سعيدًا في مصر؟

- كنت أود أن أزوره لكن الوقت لم يساعدني.

لم أشأ أن أحكي ما حدث لي في الليلة الأخيرة، وكيف عجزت في الصباح عن الاستيقاظ إلا عند الظهر، فكدت أتأخر على موعد الطائرة.

- أنا زرته أخي إسماعيل.. مسكين سعيد. صارت له لحية ومسبحة ولا يتحدث إلى أحد.

ولم يتركني منصور أفكر. قال:

- حصّلتُ عنوانه من وداد.. تعرفها؟

لم أرد.. ولا كنت قادرًا على الرد. واستمر هو:

- وداد الآن تستعد لإنهاء عملها هنا وستسافر قريبًا للكويت.

- سوف تتزوج قريبًا لها.

- لا. لن تتزوج أحدًا. ما رأيك في هذا القرد؟

ابتسمت. بدا لي منصور مهرجًا شديد الحماقة!

- سافرت من مصر إلى السودان، واشتريت عشرة قرود شحنتها إلى تبوك. هل تبغي قردًا؟

- لا أبغي شيئًا يا منصور. فقط لديّ عمل أريد أن أنهيه.

- ارتاح أخي إسماعيل. أتركك في أمان الله.

خرج وتركني أكاد أختنق. لم تعد بي رغبة في العمل، ولا في الحديث إلى أحد، ولا أظن أن هذا اليوم سيمر بسلام.

أمضيت الوقت أفكر في الأحاجي التي ألقاها أمامي، ولم أصل إلى شيء مفهوم، وفي الساعة الثانية عشرة نظرت إلى الباحة فلم أجد اليمني العجوز.

***

ماذا يحدث لو ذهبت إلى «روز» و«لاري» في موعد الغداء؟ سترتبك كل خططهما وسأفضي لهما بما أعرف وينتهي الأمر، وأعود إلى بيتي وقد تخلصت من روز إلى الأبد، وأقرأ خطابيّ واضحة وعايدة على مهل. خطاب واضحة لن يزيد على كلمة وداع طيبة. كيف بالله تكتمل القصة إلا بذلك. وليأخذ بعد ذلك خطاب عايدة الليل كله. ترى ماذا فكرت فيّ وقد تأخر ردّي عليها كل هذا الوقت الذي أمضيته بمصر، يا لمصر التي تضيِّع منا كل شيء. على يقين أنا إن عايدة لن تغلق الباب إلى الأبد. يا بؤس هذا العمل الذي يقذف إليّ اليوم كل لحظة بمجنون. آه كم أود أن أقرأ خطاب عايدة الآن ولا أستطيع!. ها هو ذا نبيل يدخل صامتًا يحمل القهوة.

- لم أطلب قهوة.

- لم تكن تطلبها من قبل. هل أعود بها؟

تأملته وجهه الحزين ولحيته الطويلة.

- اجلس.

جلس مطرقًا إلى الأرض.

- ماذا حدث لك في غيابي. هل ضايقك هنا أحد؟

- إطلاقًا.

- لماذا تبدو شاحبًا وتطلق لحيتك؟

ولم يرد. تأملني بعينين كسيرتين.

- ألا تقرأ الصحف؟ ألا تسمع الإذاعات؟

ولم أرد. ماذا في الصحف يزعج نبيل كل هذا الإزعاج؟ دانت إيران للخميني واختفى شهبور باختيار، وكارتر يستعد لاستدعاء بيغن والسادات للتوقيع على معاهدة السلام، وأمس افتتحوا كوبري السادس من أكتوبر في مصر،وملكة بريطانيا تزور المملكة ويقيمون لها سباق الهِجْن، ولا أظن أن شيئًا في هذا كله يخص نبيل.

- لا تريد أن تصدقني حين أقول لك إن الأطباق الطائرة ليست خرافة.

- أما زلت تذكر يا نبيل؟ لم تعد الصحف تتحدث في ذلك.

- لكنها ستعود وستعود الصحف تتحدث عنها وأنا خائف!

ابتسمت مشجعًا وقلت:

- مم تخاف يا نبيل؟

- لو سقط واحد منها هنا لاحترقنا جميعًا. هل تظن غير ذلك؟

لم أرد، لا أصدق أبدًا أن ما يقوله هو سبب حزنه وإطلاق لحيته. لن يصرّح لي بشيء ولا حاجة لاستمرار الحديث. هناك تقارير كثيرة متأخرة لم أبدأ فيها بعد فلأبدأ ولا أظن أحدًا سيشغلني في الوقت القليل الباقي.

***

- مستر إسماعيل.. غير معقول؟!

هتفت روز التي فتحت الباب غير مصدقة. ابتسمت ابتسامة واسعة باهرة ودعتني للدخول.

- لاري ليس هنا الآن لكن لا بأس. سيصل حالًا. لا بد أنه تأخر لأمر ما مع مستر عبدالله. لقد أخبرني بحضورك على العشاء. تفضل واختر أي مكان للجلوس. أعطني دقائق أصلح من شأني.

كانت تتكلم بسرعة غريبة وارتباك واضح، وتركتني فتقدمتُ وجلستُ تقريبًا في المقعد نفسه الذي جلست فيه المرة السابقة، واختفتْ وسمِعْتها تتحدث هامسة مع شخص لم أتبين صوته، فابتسمتُ. لا أحد يمكن أن يكون هنا غير

لاري وهي امرأة ذكية أحسنت التصرف، لكني أدركت فجأة حماقة ما فعلت. إذا كنت أعرف سرهما فلماذا جئت؟ لا يكفي أبدًا أن آتي لأقول لهما ذلك. ما جدواه الآن؟ لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس إلا عداوة تأصلت في نفسي منذ صباي وأول شبابي، وأنا لم أصدق أبدًا ما يردده السادات عن الصديق الأمريكي، ولم أكره رؤية أحد مثل رؤيتهم يوم نزلوا الإسكندرية بعد زيارة نيكسون ومشوا في شوارعها في زي البحرية طوالا عراضا يتأملون الناس والمحلات ويلوحون بالتحية لكل من يقابلهم ورءوسهم محلوقة على الطريقة الإنجليزية الشهيرة. تذكرت يومها أفلام البحرية الأمريكية،وجين كيلي وتوني كيرتس، حين كان الواحد منهما يترك سفينته وينزل المدينة فيثير معركة في أحد باراتها. كانوا كثيرين جدًّا في الإسكندرية بعد زيارة نيكسون يمشون على الكورنيش يمرحون ويركبون الحنطور ويغنون وصاروا قليلين الآن لا تكاد تراهم.

أدركت أن زيارتي لا معنى لها. وفكرت في القيام، لكني رأيت روز تقبل نحوي متألقة يسبقها عطر يتغلغل إلى الحواس يكاد يهدمها هدمًا، وترتدي فستانًا أزرق له فتحة صدر كبيرة يكشف عن أول النهر بين ثدييها ويكشف عن ذراعيها البضتين. واستدارت روز إلى الثلاجة فرأيت جزءًا كبيرًا من ظهرها وشعرها الأصفر الغزير ملمومًا في رباط أزرق رفيع، وتقدّمتْ بكأسين من النبيذ وجلستْ أمامي بعد أن وضعتهما على المنضدة المنخفضة بيننا وقالت:

- لم أكن أستطيع السفر دون أن أراك.

- أشكرك.

- لا بد أنك جائع مستر إسماعيل. نأكل معًا أو ننتظر لاري.

- لست جائعًا تمامًا.. وأنا كما تعرفين لا أشرب الخمر.

- إذن دعني أريكَ شيئًا جميلًا.

وأخذت بيدي، فنهضت ممتثلًا، ووجدت نفسي أقف في غرفة النوم.

- لا تظن بي شيئًا مستر إسماعيل. ليست هذه الطريقة التي أغريك بها.

وابتَسَمْتُ. هذه روز التي بهرتني أول مرة،وهي نفسها التي شاركتني النوم في الأحلام، وهزأت مني في الكوابيس. راقت لي مرة. اشتقت إليها مرة.

أعترف. لكني الآن أراها مثل قطعة لحم فاسد!

- ما هو الشيء الجميل الذي ستريني إياه؟

- اجلس.

وأشارت إلى السرير، فجلست على حافته، وجلست هي على حافته أيضًا جواري.

- أنت ذكية للغاية يا روز.

- أنا لم أوافق لاري فيما فعل. أنا في النهاية زوجته ولا بد أن أحميه.

- كنت أحب فقط أن تختارا غيري. ما الذي أوحى إليكما بي؟

اقتربتْ مني وهمست.

- لن تصدقني إسماعيل. أنا كنت سأفعل ذلك مع غيرك، لكنني أعجبت بك وأحببت أن أجد سببًا للوصول إليك.

- ليس لي في الأمر حيلة يا روز. أنا مصري فلن يصدقني الناس هنا ويكذبوكما. ما كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الترتيب. هل تعرفين ما يضايقني حقًّا؟ أتذكرين لقاءنا الأول هنا في بيتكم؟ لقد كنت فظًّا إلى حد كبير لكن لاري أيضًا كان أكثر فظاظة. كان يريد أن يبدو متفوقًا عليّ. ما كان عليه أن يفعل ذلك. هل يحق له أن يفعل ذلك وهو.. ؟

ولم أكمل. وصمتنا كثيرًا.

- أرجوك دعني أقبلك.

وتركتها تأخذ وجهي بين يديها وتلثم شفتيّ وخديّ وأنفي وتعود إلى شفتيّ وتضغطهما ولم تحاول الاقتراب مني بجسمها أكثر ولا أنا حاولت. كنت مشغولًا بالنظر إلى عينيها اللتين أغْلقتْهما وحين فتحتْهما كانت النشوة تملؤهما فقمتُ واقفًا.

- وداعًا يا روز.

- وداعًا إسماعيل.

ورأيت في عينيها ألمًا فأسرعت بالخروج. لم تأتِ خلفي وعند الباب الخارجي سمعتها تصرخ!

- أنت أغبى رجل في العالم يا لاري، ولن أتركك تفوز بكل شيء!

***

23

إسماعيل:

«لماذا تركتهم يفعلون بي ذلك؟ أنا أحبك. لا تنسني».

«واضحة».

***

ليتني لم أبدأ برسالتك: لقد عدت من عند روز أسابق سيارتي حتى أخلو إلى نفسي وأفض الرسائل. هل تعرفين أني بدأت برسالتك إهمالًا وإدراكًا بأن القصة تمت فصولها وما حدث لا يعدو نزوة أو جنونًا؟ واضحة بنت سليمان بن سبيل صغيرة كعصفور أنت، فماذا تريدين أن تصنعي بي أنا القادم من بلاد النيل تمتد ورائي آلاف السنين؟ أم لهذا السبب تتعلقين بي؟ لماذا تختارينني أنا؟تدور بك الشرطة يوم وصولي ويختلج جسدك أمام عيني ويختارني صديقي لأخيك لألقاك وجهًا لوجه ولا أستطيع الفرار. لقد تقدمت غير هيّاب. هل تنسين؟ شانئي منكم وعازلي منكم. صالح سنيور الثقيفي أقوى منا جميعًا. مسلح هو بالحماقة، بالبراءة الخائبة. يا واضحة. أنا لم أتركك. تتركينني قليلًا أقرأ الرسالة الأخرى؟ ليست رسالتك الأولى. لا أعرف كيف وأين ضاعت مني؟ لم يكن ذلك بالفأل الحسن.

***

وأدركت فجأة أني حين عدت إلى المنزل لم أجد وجيهًا. رغم أنه لا يخرج إلى المستشفى قبل الساعة السادسة. لم أجد غداءً كما كتبت له في الصباح. لم أقابله حتى الآن، ولا تناولت غدائي.

فتحت الثلاجة، فوجدتها فارغة إلّا من علب العصير. دخلت غرفته، فوجدت على منضدة صغيرة علبة تونة أخذتها وأكلتها بسرعة، وتمددت فوق السرير أقرأ.

«لم يكن أمامي يا عزيزي إسماعيل إلا القبول. القدر يساعدني دائمًا. أنا لم أسْعَ إلى ضبا، طلبوا واحدة منا فأصاب الجميع الرعب، وتطوعت أنا في لحظة أدركت فيما بعد أن واحدة غيري هي التي أبدت استعدادها وليس أنا. واحدة غيري هي التي تكلمت ووافقت لكن غير نادمة. ضبا ليست الجحيم، على العكس، إنها بلدة صغيرة جميلة قريبة من البحر، البحر الأحمر، والناس هنا طيبون. الصيادون يَمُرُّون على المستوصف كل يوم يقدمون لي أفضل ما عندهم من سمك بالمجان. لديّ هنا سمك يكفي تبوك الآن. هل تراني أستطيع أن آكل هذا السمك كله؟ لا أحد يقبله مني. لا أحد إلا وعنده أكثر مما عندي من سمك، شيء غريب أن أحدثك عن هذه الأشياء. لا تلمني. فقط أحببت أن أطمئنك عَلَيّ، فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك. رأيتك أول مرة يوم جئت تسهر مع الدكتور وجيه وأنا أعرف أني سأراك مرة أخرى. لكن.. كل الناس هنا يحبونني، والنساء يعرفن بوحدتي فيأتين بعد العمل ليجلسن معي فيمضي الوقت سهلًا. بعضهن يرسلن بناتهن ليبتن معي. شجاعة غريبة على نساء المملكة. ربما ليست غريبة فالكرم شيمة العرب، عرفنا ذلك في كتب المدرسة. كيف يكون كرم النساء للنساء إلا على هذا النحو. لا تلمني على ركاكة أسلوبي.

كثيرًا ما أتذكر زميلاتي وأضحك. ماذا يصيبهن من هذا المكان الهادئ الجميل؟ حقيقة لو فكر الواحد في هذا الاتساع حوله، وفي بلدة ضبا القديمة التي هجرها أهلها إلى ضبا الجديدة لربما يصاب بالجنون. ضبا القديمة ليست بعيدة. أرى بيوتها القديمة المهدمة بالليل من فوق السطح كالمقابر المليئة بالأشباح، لكني لا أحاول النظر ناحيتها. وبالنهار أراها كالمناطق الأثرية تستحق الزيارة ولا أزورها.

أنا باختصار أستطيع أن أنجو من الشعور بالوحدة بأعمال كثيرة. أعيد ترتيب الغرفة، أعيد ترتيب الأدوية بالصيدلية. أنا هنا أفعل كل شيء بعد مواعيد العمل. المستوصف كبير جدًّا لكني أغلقه بقفل من الداخل. المرضى بعد مواعيد العمل يذهبون للأطباء في بيوتهم ويأتون إليّ فأعطيهم الدواء من فتحة صغيرة بالباب. لا يضايقني إلا المرضى الذين يأتون في منتصف الليل. لكن النور هنا يملأ كل الغرف. أنا أتركه مضاء فيها كلها. بالنهار يكون ضوء النهار أكبر من كل ضوء. أنا لا أفزع من طارق الليل أبدًا. لا يضايقني إلا البرد وأنا أترك الغرفة وأنزل لألبّي طلب أحد. هل لا يزال البرد شديدًا في تبوك؟ هاشم أخي كان يقول دائمًا قل لمن يحمل همًّا إنّ همًّا لا يدوم، مثلما يفنى السرور، هكذا تفنى الهموم.

كان يقول لي ذلك فجأة فيخرجني من شرودي. أحيانًا كان يغنيها لي. لماذا كنت أشرد بذهني كثيرًا وأنا تلميذة صغيرة؟ كل الناس كانت تتعجب من ذلك. أهلي وإخوتي وزميلاتي والمدرسون والمدرسات.

أنت تعرف أني لا أحب في الدنيا هذه مثل هاشم. كنت دائمًا أصدقه. وما زلت!».

وأعدت قراءة الرسالة وكدت أصرخ. أي جنون خبيث يتسلل إلى ذهن عايدة ولا تدري. كل كلمة في الرسالة تقول ذلك. وأعدت قراءة الرسالة لأرد على كل كلمة فيها، لأعيد ترتيبها وأكشف لها أنها تمضي في طريق الهلاك، إنها تركب فرس العناد. لكنها لن تستمع لي. لن تستمع لأحد. لا يُجديها نُبل الفرسان، وليست في حاجة إليه.

وضعت الرسالتين أمامي فوق السرير، ورحت أنظر إليهما.. أصاب عقلي شلل، وامَّحى خيالي.. وسمعت المفتاح يدور بالباب الخارجي، فأسرعت بإخفائهما تحت وسادتي.

دخل وجيه ومعه الطبيب الشاب الذي رأيته في المستشفى يوم ترحيل المرأة اللبنانية الصغيرة. أذكره جيدًا رغم ما يبدو على وجهه من شحوب وحزن. ربما لذلك أذكره.

صافحني وجيه، واحتضنني يقبلني، وارتفع صوته دهشة بحضوري المفاجئ، وبدا الطبيب الشاب ذاهلًا عنا إذ راح يقضم أظافره بأسنانه، بدا مرهقًا للغاية حتى أنه استند إلى الحائط.

- تفضل يا دكتور أحمد.

قال وجيه. وأشار إلى مقعد في غرفتي، فجلس أحمد، وظل يقضم أظافره ذاهلًا عنا وسألني وجيه:

- متى أتيت؟

- أمس.

- أنا لم أعد اليوم من المستشفى في الصباح.

كان يبدو مرهقًا للغاية أيضًا. لم أنتبه لذلك إلّا الآن. وقفز يتمدد على سريري وقال:

- تستطيع أن تدخل غرفتي. ستجد تحت السرير كرتونة صغيرة بها بيض ومعلبات اشتريتها منذ يومين، ولم أجد الوقت لأضعها في المطبخ. نحن في حاجة إلى عشاء ثقيل.

وراح ينظر إلى السقف بعد أن عقد ذراعيه تحت رأسه، وخرجت أنا إلى غرفته مندهشًا كيف لا يجد الوقت لوضع الأطعمة في المطبخ، مع أن الذي يأتي من الخارج يمكن أن يتجه إلى المطبخ مباشرة.

أعددت عشاء من البيض المسلوق وشرائح الجبن واللانشون والزيتون، ودخلت إلى الغرفة أحمله على صينية كبيرة ففوجئت بأحمد يقف.

- لا بد أن تأكل شيئًا.

قال وجيه. لكن أحمد ظل يقضم أظافره.

- تريد أن تنام؟

هزّ أحمد رأسه، فقام وجيه وأخذه إلى غرفته، وعاد يقول قبل أن يجلس:

- يوم لا يمكن أن يُنسى. هيا نأكل.

وضعت الصينية فوق الأرض، وجلسنا حولها، والتقط وجيه بيضة وضعها في فمه كاملة، وتكلم:

- هل تذكر الدكتور رأفت؟

- طبيب المسالك البولية الذي عاد إلى مصر منذ شهور؟

- أجل.

وانشغل ببيضة جديدة وضعها في فمه أيضًا ثم تكلم:

- ذهب إلى أمريكا، واشترى معدات العيادة كاملة، ومات قبل أن يفتتح العيادة.

سكتُّ ولم أرد. رحت آكل على مهل، وعاد هو يلتقط البيض بيضة فبيضة يضعها في فمه كاملة، وقال:

- شيء غريب. أليس كذلك؟

ولم أرد. سعيد الذي قرر العودة النهائية آخر العام يُجبر على العودة قبل الموعد. رأفت الذي كان سعيدًا بقدرته على حسم موعد عودته يعود ليموت. لماذا لم أقابل وجيهًا أمس؟ لو قابلته أمس لتحدثنا في شيء آخر. أنا أريد أن أقرأ رسالة عايدة مرة رابعة. أريد الكتابة إليها. لماذا يؤكد الجميع لي درس هذه البلاد؟ هنا أرض تأبى إلا أن تمسك بما يسقط فيها ولا تتركه. إذا تمرد تقتله. بضربة قدر أو حظ عاثر أو خطأ ساذج تقتله. تقتله في كل الأحوال. القتل هو الغاية. وعايدة تعرف وتذهب إلى حتفها بيدها. وصالح سنيور الثقيفي ابن بار لهذه البلاد، يحب وهو الصغير الهش، أن تكون له اليد الطولى حتى في الإحسان. لقد امتلك البدوي الثروة، ولا يفطن إلى أنها ليست من صنع يده، فالويل كل الويل لأبناء الحواضر والمدن!

كيف أكتب رسالة إلى عايدة الآن ووجيه ينام على سريري الضيِّق يشخر ولا يترك لي إلا مساحة ضئيلة لا أستطيع فيها الحركة. قال إنه أخذ اليوم راحة لأنه كان من المستحيل أن يستمر في العمل ليلتين بلا نوم بالنهار. انشغل بالنهار مضطرًّا مع أحمد الذي لم يكن مناسبًا له أن يترك مصر. وجيه قال ذلك. وقال إنه يعرف أسرة أحمد، وبينه وبينها صداقة قديمة، وفرح جدًّا بمجيئه إلى المملكة، لكن أحمد شخص رقيق مثل الدانتيللا لم يتحمل. لم يمض أسبوع على مجيئه هنا إلّا وكلفه مدير المستشفى بمصاحبة المرأة اللبنانية الصغيرة إلى المطار. واليوم كلفه المدير بالذهاب إلى القاعدة العسكرية لحضور إعدام جندي سبق له أن أطلق النار على ضابطه. لم يكن الإعدام بالسيف؛ بل بالرصاص على الطريقة العسكرية، وكان على أحمد أن يذهب ليضع علامة بالدهان الأبيض حول قلب الجندي ليقوم فريق الإعدام من الجنود بالتصويب إليها ثم يكشف على الجثة بعد ذلك ويثبت موتها. رفض أحمد كثيرًا، لكن المدير صمم، فذهب المسكين، ووضع العلامة حول القلب، وانطلق الرصاص، فأصاب كل جزء في الجسم إلا القلب. لقد حملوا الجندي وأحمد في سيارة إسعاف واحدة إلى المستشفى. الجندي إلى الثلاجة وأحمد منهارًا إلى غرفة الأطباء. سيسافر أحمد إلى القاهرة بعد أيام. طلب إنهاء تعاقده بمجرد أن أفاق من الانهيار الذي أصابه.. وأمضى وجيه اليوم كله معه، وعجز عن إثنائه عن عزمه على الرحيل فاصطحبه معه أخيرًا إلى البيت خوفًا عليه.

***

24

لا رسائل من أحد.

«لا تلوميني إذا تأخرت عليكِ. كنت سافرت إلى مصر. عشرون يومًا قضيتها هناك. مهمة عاجلة لم أستطع الاعتذار عنها. هل كنت محتاجًا لذلك ولا أدري؟ هناك أحسست بحاجتي إلى العودة. والآن أريد أن أسافر، ليس إلى مصر. إذا كان هناك شيء له شأن في عودتي إلى هنا مرة ثانية فهو أنت.. لا أستطيع الاستطراد.

أود أن أزورك وأخاف. ما معنى أن تستقبليني بحفاوة ثم أعود؟ أخاف أن أطيل فأفسد الأمر كله.

النهار هنا مثل النهار عندك. الليل هنا مثل الليل عندك. السماء فوق هذه البلاد واحدة، وريح العجاج تضربنا جميعًا لكن ليس لي قوتك، خلقت أنت للبذل والعطاء. خلقت أنا للمعرفة المتأخرة. أريد أن أفوز مرة واحدة باليقين في موعده. رأيتك كثيرًا في يقظتي ومنامي تأخذين يدي بعيدًا عن الموت. أريد أن آخذ يدك بعيدًا عن اختيارك المستحيل. هل تقبلينني يا عايدة زوجًا أم تراك تلومينني؟».

ولا رسائل..

كل يوم أنظر في عيني عابد. هو الذي ينزل البلدة أكثر من مرة في النهار ويمر بالبريد، وعابد لا يحمل إلا أوامر بالانتظار حتى يعود مرة أخرى.

مضينا قُدمًا في شهر مارس،وطرد وجه الربيع كثيرًا من برودة الصباح بما جاء به من ضوء، ولم يمنع هبوب ريح العجاج.

***

- أين أرشد؟

سألت الباكستانيين الذين عادوا من إجازاتهم ودخلوا مكتبي مبتهجين في صباح هذا اليوم الجميل.

- «سَرْور». يعرف. إنه يسكن بالقرب منه في بيشاور.

ودخل «سَرْور» بعد لحظات، قصير يكاد يقفز في مشيته، وبارق العينين، مبتسم دائمًا.

- أرشد مسكين مستر إسماعيل.. في السجن الآن.

- سجن؟

- أجل مستر إسماعيل. قبضوا عليه لحظة وصولنا. لن يعود هنا مستر إسماعيل.

- ....

- أرشد يعمل مع المعارضة مستر إسماعيل. المعارضة ترسل رجالها إلى بلاد كثيرة في الخليج لجمع الأموال. هكذا تقول الصحافة مستر إسماعيل.

- ....

- أنا آسف مستر إسماعيل.. أنا أعرف أنه كان خير صديق.

وخرج «سَرْور». إذن لن يعود أرشد أبدًا. يا إلهي! ماذا يفعلون به الآن؟ «العسكريون أغبياء مستر إسماعيل». قال لي ذلك فهل سمعه العسكريون؟

ورأيت عابدًا يقف عند الباب مبتسمًا، ويسألني:

- شفت منذر؟

- لم يأتِ حتى الآن.

- لن يأتي.

- ....

قُبض عليه أمس بتهمة محاولة اغتصاب، ولا يزال في الشرطة.

- أنا لن أعمل اليوم.

وقمت مسرعًا إلى سيارتي، وانطلقت بها غير مبال بنداءات عابد المتكررة لي بالعودة، ولا بالدهشة المروعة التي علت وجهه حين قلت ذلك.

***

الضوء أمامي يوسع في الدنيا، والرمال مترامية في جلال باهر، وفوقي ندف متفرقة من سحب واهنة، وفوقنا كلنا سماء شديدة الزرقة والصفاء. لماذا يا ربي منذ أتيت إلى هذه البلدة لم أر طيرًا واحدًا في السماء؟حتى العصافير التي كنت أسمع شقشقاتها في المستشفى خارج النافذة لم أرها، ولم تدخل واحدة لتقف لحظة على إفريز النافذة تنظر إلينا وتفرّ عائدة. بلد بلا طيور. كيف ذلك؟ أم أني لم أعد أرفع بصري إلى أعلى؟

بالقرب من الموقع الذي رأيت فيه الكلب مرة جاهدت ألا أنظر. لماذا تجتاحني الرغبة اليوم في النظر؟ نظرت، ورأيته. لم يتغير الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد.

وظللت أقود سيارتي بجنون حتى انتهى الشارع، وهدّأتُ من سرعتي استعدادًا للانحراف إلى الشارع العام. الآن فقط أدركت أني ذاهب إلى الشرطة لأقابل منذرًا. والآن فقط سألت نفسي: هل هذا ممكن؟ ولم أنتظر الإجابة. ولم تنتظر السيارة الكابريس التي انحرفت نحوي فاندفعْتُ بسيارتي بعيدًا، لكنني تركت نهر الطريق وصعدت الرصيف الصغير الذي يتوسط الشارع، ودخلت في النهر الآخر، وطق، اصطدمتُ بسيارة أخرى، واصطدم صدري بمقود سيارتي وأنا أندفع برأسي في الزجاج الأمامي، ولم أشعر إلا والناس تشدني من فوق مقدمة السيارة ومن بين زجاجها الأمامي الذي تهشم تمامًا والألم في رأسي ووجهي يشويني وفي صدري يكاد يخنقني.

- خيرًا. خيرًا.

يقول الوجه المصري البشوش للشاب الصغير الذي لا أعرفه، والزحام حولي شديد، وأنا ممدد جالسًا فوق الرصيف أغالب الشعور بالإغماء، وأشعر

بالدم الساخن على وجهي، ورأيت ضابطًا سعوديًّا شابًّا يصرخ صائحًا بلا انقطاع:

- أنت؟! ماذا فعلت؟

أطلّ وجه وجيه من بين الزحام.

- هيا إلى المستشفى. ضعوه في سيارتي.

- خيرًا. خيرًا إن شاء الله.

يقول الشاب المصري البشوش، الصغير السن وهو يأخذني من ذراعي، أستند إليه، ويمشي بي إلى سيارة وجيه.

- لن يذهب إلى المستشفى. الشرطة أولًا.

صرخ الضابط بوجيه، فصرخ به وجيه أيضًا:

- أنا الدكتور وجيه رئيس قسم الجراحة بالمستشفى. هذا الشاب سينزف حتى الموت هنا أو في الشرطة. هل تتحمل ذلك؟

- إذن أنت مسئول عن تسليمه.

- أنا مسئول عن تسليمه.

وأخذني وجيه من ذراعي الثانية، وركبنا سيارته أنا والشاب المصري البشوش، الصغير السن الذي لا يزال يردد:

- خيرًا. خيرًا إن شاء الله. لا تقلق.

ولم يكف عن الابتسام في وجهي، فابتسمتُ له. رأيت ابتسامته شديدة العذوبة.

قلت:

- ماذا حدث؟

- حادث بسيط.

قال الشاب، لكن وجيه قال لي:

- ليس بسيطًا. لقد صدمت بسيارتك سيارة شرطة يا أستاذ. احمد ربك أنني كنت عائدًا من المستشفى الآن ورأيتك.

سأل الشاب:

- هل تعرفه يا دكتور؟

- طبعًا. نسكن معًا.

- الحمد لله. إذن أنزلني أنا هنا. لا أظن أنكما ستحتاجاني في شيء. هل تحتاجاني في شيء؟

- لا. نشكرك جدًّا.

قال وجيه وابتسمت أنا ومددتُ يدي بصعوبة أصافحه، فربَّت عليها بيديه ونزل.

لم يأخذني وجيه إلى المستشفى. أخذني إلى العيادة الرئيسية بالشارع العام. هناك تمددتُ فوق طاولة الكشف وراح هو وممرضة مصرية سمراء ينقّيان جروح رأسي الصغيرة من شظايا الزجاج الذي لم يكن كثيرًا، لكنه احتاج إلى أن يحلق لي شعر رأسي كله.

كان يضحك وهو ينظر إلى رأسي بعد الحلاقة، ولم يجد في وجهي إلا شظيتين صغيرتين في جبهتي، وارتاح كثيرًا حين وجد ضلوعي سليمة.

وقال:

- لا بد أن أكتب تقريرًا كبيرًا حتى أعزز موقفك أمام الشرطة.

- هل يحتاج الأمر لذلك؟

- طبعًا. لقد انحرفت عن الطريق إلى طريق آخر وصدمت سيارة شرطة. في الحالات العادية يمكن أن تدفع للمتضرر ثمن الخسائر، لكن مع الشرطة لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث. ألم تجد غير سيارة الشرطة تصدمها؟!

- أنا لم أصدم أحدًا. رأيت كأن سيارة كابريس تهاجمني فانحرفت ولم أدر كيف صعدت على الفاصل بين نهري الطريق.

وضحك.

- يمكن أن ترى شكلك في المرآة وتضحك على كل حال. سألف رأسك بالشاش رغم عدم حاجتك إليه حتى تبدو أمام الشرطة شخصًا يستحق الشفقة.

لفّ رأسي ونظر في ساعته وقال:

- لم يأت أحد. يمكن أن نذهب إلى البيت الآن.

- لكني أريد الذهاب إلى الشرطة.

- نعم؟!!

- أنا تركت العمل للذهاب إلى الشرطة.

- لماذا؟!

ولم أرُدّ إذ دخل الضابط الذي كان يصرخ وقت الحادثة وطلب أن أصحبه، وقبل أن يقول وجيه شيئًا قلت:

- أستطيع الذهاب معك.

ورأيت وجيهًا ينظر إليّ بغيظ ودهشة، وقال:

- سأذهب أنا أيضًا معكما.

***

كانت خطة وجيه أن يتصل تليفونيًّا بأبي حكيم قبل ذهابنا. لقد حاول مرتين فلم يجده. كان يخشى أن يتحول الأمر إلى المحكمة في غياب أبي حكيم، وفي هذه الحالة لا أقل من شهر حبس، لذلك أراد أن يماطل الضابط ولم

يدر أني أود الذهاب بأسرع وقت حتى أرى منذرًا قبل ترحيله أو نقله إلى السجن. لماذا حقًّا أريد أن أرى منذرا؟

ووصلنا واستقبلنا أبو حكيم، ورأيت وجيهًا يتنفس بارتياح.

- أزعجناكم يا إخوان يا مصريين. لا تؤاخذونا. سوف نعطيك الدِّيَة يا أستاذ إسماعيل لو تنازلت للكلب المخبل ابن المخبّل.

قال أبو حكيم فجأة بعد أن جلسنا، ومر علينا الشيخ المسن بإبريق الشاي. ونظر إليّ وجيه في دهشة، وداس على قدمي، ففهمت أنه يطلب مني الصمت، وعاد أبو حكيم يقول:

- أمسكنا بسائق الكابريس. دلّنا عليه الناس. ماذا بينكم وبين هذا الولد يا دكتور؟ هذا الفاسق لن ينجو من يدي. سأوقعه، لكن فيه مسألة تستحق. إيش يبغي منك يا أخ إسماعيل؟

- أنا لا أعرف عمن تتحدث.

- صالح الثقيفي. أظن أنكم تركتم بيته.

ردّ وجيه بعد أن نظر إليّ يحذرني من الكلام:

- تركناه بسلام وعلاقتنا معه طيبة ولا أظن أن صالحًا يقصد شيئًا..

كنت أنا أفكر في كلام أبي حكيم. هل كان صالح الثقيفي هو سائق الكابريس حقًّا؟ ماذا كان يريد مني؟ هل أراد قتلي أم توريطي في حادث كبير؟ لا أستطيع أن أصدق. من يضمن بقاء الشعرة بين توريطي وموتي؟ قلت في استسلام:

- أنا أيضًا لا أظن أنه كان يقصد شيئًا.

ضحك أبو حكيم وقال:

- أنت يا دكتور صرت تعرفنا لكن صاحبك ما يعرفنا بعد. اتركه يا أخي يتحدث بحرية (وخاطبني) لا تخشَ شيئًا يا أخ إسماعيل. هنا قانون وشرطة يمكن أن تحميك.

- أشكرك. لكن هذه هي الحقيقة.

- والدية هل تتنازل عنها أيضًا؟

- أتنازل عنها.

- أحوالكم أحوال يا مصريين!

ومر بنا الشيخ المسن يحمل إبريق القهوة مرة ثانية، فشربت فنجانًا منها لأول مرة، وأحسست بالمرارة التي لا أطيقها في حلقي، فشربت فنجانًا ثانيًا وقلت:

- لي مشكلة صغيرة هنا يا أبا حكيم.

***

جاء منذر منكسر الوجه، شديد الشحوب. رآني، ورأيت عينيه حمراوين بينما يبتسم ساخرًا. «تركت العمارة يا أستاذ إلى بيت عربي. بيت قديم جميل به شجر نخيل وشجر ليمون. زوجتي حامل وقلت الحديقة للولد. جهاد. سأسميه جهادًا. ماذا جرى يا أستاذ؟ منذر لا ينسى. منذر لا يكل ولا يتعب. كل شيء بلا منذر يتوقف. جاءني الملعون زوجها. تلك التي تركت سكني بسببها. الشيخ المسن الذي يمشي ويتكلم ويفعل أي شيء بصعوبة بالغة. بالكاد يمشي ويتكلم وبالكاد يفعل أي شيء، وطلب أن أذهب معه لأصلح تكييف العمارة. من شقة لشقة تنقلت حتى وصلت شقته. دخلت ودخل معي وخرج وأنا لا أشعر تاركًا زوجته وجاءت الشرطة وأنا أقف فوق السلم أعالج الكابلات. فيلم سينمائي يا أستاذ. سترى. لن يحاكموني ولن أدخل السجن. سأرَحّل من البلاد». ترحيلك صعب يا منذر. الفلسطينيون يحاكمون ويسجنون ويعاقبون ولا يرحلون. «يا أستاذ! الآن أنا غير حزين. ترحيلي يعني أن لي وطنًا أعود إليه. وجدوا لي وطنًا يا أستاذ، ولا أحد يرفض الوطن».

«هيا يا ولد». أشار أبو حكيم للشرطي أن يأخذ منذرًا، وأنا لم أستطع إلا أن أحتضنه وأقبّله. «سامحني يا أستاذ. أنا أحبك. أحب المصريين جدًّا. لا أكره إلّا السادات يا أستاذ. أنا أحد جدودي مصري.. مصري رفض أن يحفر في القناة وهرب إلى الشام». لكن الشرطي جذبه وترك منذر نفسه له.

- لا تحزن يا مصري. هذا حال الدنيا كما تقولون في مصر. لا تصدق رواية هذا الولد.

كيف سمعه أبو حكيم وهو يتحدث إليّ بصوت خفيض؟!

- حيّاك الله.

- في أمان الله.

مدّ وجيه يده يصافح أبا حكيم. لم أمد يدي أصافحه ولم يفعل هو أيضًا. خرجت غير مصدق أنه كان لبيت منذر الجديد حديقة بها نخيل وشجر ليمون. لا أعرف هنا إلّا بيتًا واحدًا فيه ذلك، وفيه سيد الغريب ينتظر.

***

مُرهقًا عدت إلى البيت. دخل وجيه إلى غرفته لينام. في غرفتي استلقيت فوق السرير. «كمين منصوب لي يا أستاذ وأنا أعرف». ذهب منذر للكمين بقدميه وبكامل الوعي. وتناولت إحدى المجلات الملقاة جوار السرير فوق الأرض أقرأ عنوانها. لماذا فتحتها على الصفحات الأخيرة أتأمل رسائل القراء؟

«جاءنا من الصديقة واضحة بنت سليمان بن سبيل بالرياض رسالة تقول فيها: إنها تحب مصر جدًّا وإنها كانت تتمنى لو لم يذهب الرئيس المصري إلى إسرائيل حتى لا تستمر هذه القطيعة بين البلدين، وتسأل هل تقبل الجامعة المصرية الشباب السعودي الآن؟هل توافق الحكومة السعودية على التحاق شبابها بالجامعة المصرية؟»..

وللصديقة واضحة نقول: إننا كنا نتمنى معك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه كما يقول المتنبي، وبالنسبة للالتحاق بالجامعة المصرية، ففي بلادنا الآن جامعات على أعلى مستوى، لذلك لا أظن أن هناك معنى لاستكمال شبابنا تعليمه في مصر.

تطلّ عليّ واضحة إذن في رسائل غير مباشرة. من قال لها إني أقرأ المجلات المحلية؟ تعرف أن الوقت لا يمر رغم سرقة الأعمار.. لا بد!

***

25

جميلة هي الدنيا والحياة جديرة حقًّا بأن تعاش فنحن لا نحياها إلّا مرة واحدة.. يا أله. هنا، والآن، ينشقُّ رأسي شيئًا فشيئًا وتنسكب فيه حيوية الصبا واندفاعته وأتذكر كل كتاب قرأته. من قال ذلك يا إسماعيل؟ إستروفسكي وهو يشق صفوف الجيش الأبيض بسيفه ورصاصه والتفاؤل بالمستقبل يسبقه. لكنني خبير قديم بأكاذيب الكتّاب ولا يجب أن أنخدع الآن فيبدو الأمر مضحكًا، وأنا بحق لست في حاجة إلى آلام جديدة. هأنذا أرى الفضاء حولي أنثى تخلع كل يوم عن جسمها رداء فتزداد سحرًا، ونتقدم في شهر مارس فأتخفف كل يوم في ثيابي، وحارس الريح حبس «العجاج» في كهفه، وقتل ديكه الأغبر إذا اكتشف أنه بعد أن مزّق جناحيه راح ينفث التراب من منقاره. لكن لم يأتني رد من عايدة حتى الآن، وكل يوم أقرر السفر إليها، وكل يوم أنتظر!

رتبت للفئران مقتلة، وصنعت لوحًا خشبيًّا تحت حوض المطبخ يصنع مع الجدار زاوية حادة، ورحت أطاردها حتى تدخل بين اللوح والحائط، وأدوس اللوح بقدمي فأدهسها بينه وبين الجدار. قتلت ثلاثة حتى الآن، واليوم فكرت أن أبدأ في إحصاء قتلاي.

في حجرتي وقفت وكراسة الخطابات في يدي لأسجّل فيها عدد القتلى الذين لا أعرف أسماءهم. اليوم هو السادس والعشرون من مارس عام 1979. واتسعت الغرفة بي كأنما انسكب في صدري ماء منعش بارد. لماذا لا أبدأ من اليوم كتابة المذكرات؟ كتابة المذكرات تجعلني شخصًا ثالثًا أرى بعين لا تثقل القلب بالأوجاع. مَنَ ذلك الخبيث الذي قرأت له ذلك مرة؟ لا أذكر ولا يهمني ذلك الآن، ولأذهب مسرعًا إلى العمل.

***

ولم أكتب المذكرات أبدًا. لم يكن سهلًا أن أصبح شخصًا ثالثًا. اخترت وقتًا غير مناسب لادعاء القوة. دَخلتْ سيارة عم عبدالله إلى الباحة فأثارت زوبعة التراب. دائمًا يدخل عم عبدالله مسرعًا، وحتى الآن لا ينتهي التراب من فوق الأرض. الذي يطير من فوقها بالنهار، تعود الشياطين وتفرشه فوقها بالليل!

دخل عابدغرفتي والهلع يكاد يقفز من عينيه:

- هل أخطأت في شيء؟

- لا.

- عم عبدالله غاضب جدًّا، يطلبك فاذهب ولا ترد عليه.

نهضتُ تاركًا مكتبي في دهشة، وأفكر أيضًا في الرقة التي تفيض من عابد فجأة.

- إيش سويت في مصر؟

- ....

- إيش سويت في مسألة البضائع؟

- لا شيء. لم أجدها في أيْ مكان. أخبرتك بذلك.

- خذ.

وألقى عم عبدالله بورقة صغيرة لم تصل إليّ ولم تستقر على مكتبه، فانحنيت والتقطتها من فوق الأرض. وصرخ فيّ:

- اقرأ.

«معذرة مستر عبدالله. لن أعود إلى المملكة. وداعًا. لاري».

- أتدري معنى هذا؟

- لن يعود مستر لاري.

- لاري لص سرق ثلاثمائة ألف دولار، وأنت مصري فرعون خبيث ذهبت إلى بيته أكلت وشربت خمرًا ونمت مع زوجته. نمت مع روز أم لا؟

- لا.

وسكَتنا وسكتت الدنياحولنا. قلت لا بصوت لا يكاد يسمع. وكدت أقول إنك أنت الذي تنام مع روز، وإن حجرة عابد ونبيل هي فراشكما، وإنك أنت الذي تخالف قوانين المملكة فتسهل لها العمل في حضانتك، وتسهل لزوجها نهب الأموال فالشركة ليست شركتك، وما أنت إلا مدير لا ترعى إلا مصالحك التي تستخدم فيها عابدًا أكثر مما تستخدمه في العمل.. لكنني وقفت صامتًا لا أدري من أين يأتي الانفجار بعد هذا الصمت!

- امشِ امشِ من أمامي.

قال بألم واضح، وخرجت غير مستاء. ضايقني فقط أنني لم أنم حقًّا مع روز.

***

لم يظهر اليمني اليوم أيضًا. نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة، ونظرت إلى الباحة فلم أجده. نسيت أنه لم يظهر منذ أيام، كما نسيت أن أسأل عن السبب.

ودخل نبيل الغرفة يحمل القهوة وتبدو لحيته التي لا يزال يطلقها وقد ازداد طولها، وبدا أنه يريد أن يتحدث معي. وقف قليلًا مترددًا ثم جلس وهو يسألني:

- ماذا سيحدث الآن؟

- فيم؟

- مكوك الفضاء الأمريكي.

- ذلك الذي تعطل في الفضاء؟

- أجل.

- سيسقط في أيِّ مكان. الإذاعات تقول ذلك.

- وهل أنت راضٍ عن ذلك؟

أربكني نبيل. قلتُ مبتسمًا ومُتَحَيّرًا:

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

سَكت قليلًا وقال:

- لم يقل أحد أين سيسقط بالضبط.

- لقد قالوا إن أستراليا هي أكثر الأماكن احتمالًا لسقوطه.

- لكنه لم يسقط حتى الآن. انتحر ثلاثة في أستراليا فزعًا ولم يسقط!

وسكتنا وأنا لا أستطيع أن أضحك. أفكر بجد في طريقة أعالج بها ما يسيطر على ذهنه من أفكار، وأعجز، ولا أدري سرّ هذا التحول في عقله. قلت:

- لقد انتهت ظاهرة الأطباق الطائرة ولم يحدث شيء. سينتهي المكوك أيضًا بسلام.

- لا أظن. هذا مكوك حقيقي له أصحاب معروفون.

- نبيل حَدِّثني عن نفسك أفضل. كيف حالك هذه الأيام، ألا تصلك رسائل من مصر؟

- وصلتني رسالة من أمي تقول فيها إن خطيبتي تزوجت من سائق التاكسي.

وعدنا إلى الصمت. رأيت دمعًا يكاد يترقرق في عينيه.

- اعتن بنفسك يا نبيل، الإنسان يمكن أن ينسى كل شيء مع الوقت. يمكن دائمًا أن يبدأ من جديد.

- لا أظن أن أمي صادقة.

قال ذلك وتركني.

***

عدت إلى البيت وتناولت الغداء مع وجيه. لم نتحدث كثيرًا. كنت أود الانتهاء من الطعام بسرعة لأنفرد بنفسي في الغرفة. لقد أحضر لي عابد اليوم رسالتين. أعطاهما لي واستدار يغادر المكتب، لكنه بعد خطوة أو خطوتين عاد يلتفت لي ويبتسم. كان اسم عايدة ظاهرًا خلف مظروف إحدى الرسالتين، واسم أخي على الأخرى. أفقدني فرحتي بالرسالتين، وتوقعت أن يعود إلى المكتب مرة أخرى ليراني أقرأ فيهما. لا أدري لماذا فكرت في «يورياه هيب» في رواية ديفيد كوبر فيلد التي شرعت يومًا في ترجمتها ولم أتمها.. لم أصدق أن اليوم انتهى، وأنه يمكن أن أعود إلى البيت وأنفرد بنفسي أقرأ أسراري.

«وصلتني رسالتك وأنا أستعد للسفر. يبدو أنك لم تمض وقتًا طيبًا في مصر. أنت لم تفصح عن شيء، لكن كل الذين يذهبون إلى مصر يأتون ويقولون ذلك. لماذا؟ ويذهبون هناك فيشكون من هنا أيضًا.

طبعًا كان يمكن أن تزورني. لا أجد حرجًا في ذلك. المهم أن تأتي في وقت مبكر. لم يكن صعبًا أن أقدمك لزميلاتي وزملائي كصديق عزيز. الآن لا تستطيع أن تزورني لأنني سأسافر في الصباح. كم كان بودي أن أستقبلك حقًّا. لا أستطيع أن أفعل شيئًا الآن. زار المستوصف وزير الصحة وسمع عن امتيازي. ضحك كثيرًا حين عرف أني أبيت وحدي في المستوصف. تعجب كيف لا يصيبني خوف أو جنون. وقال لابد من تكريمي، وأمر بنقلي إلى «أبها» في الجنوب. «أبها» مدينة جميلة بحق. يقولون إنها أوروبية المناخ.

جاءت زيارة الوزير في وقت دقيق. كنت بدأت أفقد شيئًا من قوتي، وبدأ الخوف يجد مسالك إلى قلبي. ما أبشع المستوصف بالليل. السماء فوقي جميلة لكن هل يمكن أن أمضي الليل أنظر إلى أعلى. لا تليفزيون هنا فالإرسال لم يدخل البلدة بعد. الراديو هو صديقي والراديو لا يبث إلا الألم. صارت حركة الأشياء تحت الريح فوق السطح تصيبني بالرعب، وكل طارق للباب من أجل دواء أظنه رجل أمن جاء للقبض على هاشم، كانوا يأتون بالليل دائمًا. هل تعرف ما شغل ذهني في الأيام السابقة؟ سؤال غريب. ضبا بلدتان: بلدة قديمة وبلدة جديدة بالقرب منها. هجر الناس القديمة، لكن الجديدة لا تختلف عن القديمة في شيء. كيف تفسر هذا الأمر؟ حتى أرسل لك عنواني الجديد لك السلام والأمان».

ولا إجابة عن سؤالي. سمعت خشخشة فأر في المطبخ، فقمت وطاردته وأخرجته من خلف دولاب الأواني وأدخلته بين اللوح الخشبي والحائط ودهسته!

***

لم يخرج وجيه اليوم إلى العمل.

- هناك شيء أخفيته عنك يا إسماعيل.

- ....

- أنا سأنتقل إلى مستشفى «الملك» بالمدينة المنورة.

- ....

- يمكن أن أرشح أحد المصريين يعيش معك.

- ستنتقل نهائيًّا؟

- تقريبًا.. وسأسافر غدًا.

- لا حاجة بي لأحد.

- ستعيش في البيت وحدك؟

لم أرد. كأنه لا يعرف أني أعيش وحدي منذ أتيت. وهو أيضًا لا يعرف أن رسالة أخي حملت خبرًا بمرض أمي وأنهم بحاجة إلى مائتي جنيه. لم يوضح لي أخي أي مرض أصاب أمي. أنساني لدقائق خطاب عايدة، وأنساني حديث وجيه الخطابين معًا، وأنساني المذيع الذي يتحدث أمامنا الآن كل شيء. قال إنّ الإرسال سينتقل إلى إذاعة خارجية لينقل مراسم التوقيع على معاهدة كامب ديفيد في البيت الأبيض الأمريكي. «نحن لا ننقلها على الهواء تأييدًا ولا تيمنًا، إنما ليرى الشعب الخيانة بعينيه».

كارتر يقف مبتسمًا وسط مائدة بيضاء طويلة وجواره على اليمين يقف السادات وعلى اليسار يقف بيجن والأزهار فوق المائدة تكاد تخفيها وعلى الناحيتين الحديقة الواسعة وحشود من رجال السياسة وعشرات من الصحفيين يترقبون ويلتقطون الصور التذكارية. كارتر يتحدث عن الجهود المضنية التي بذلها الزعماء الثلاثة للوصول إلى هذه الاتفاقية، والآمال الكبيرة لإنهاء الصراع في الشرق الأوسط ويتحدث عن السلام في العهد

القديم وفي القرآن: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(1)، يقولها بالعربية، ويضيع صوت كارتر ويبرز صوت المذيع المحلي:والقرآن أيضًا يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (2) صدق الله العظيم

***

في الفجر قمت وجلست فوق السرير، وأضأت نور الغرفة وقلت لن أنام بعد اليوم في هذا البلد. دخلت مسرحًا كبيرًا بلا مقاعد. كُلّه خشبة مربعة، والمتفرج الوحيد هو أنا الجالس على المقعد الوحيد عند الباب، وفوق الخشبة تسعة عشر رجلًا وامرأة وطفلًا وطفلة، يقفون على الناحيتين، وفي قلب الخشبة البعيد امرأة مربوطة من ذراعيها إلى ظهر سرير، مثنية ساقيها عند الركبتين وغطت نصفها الأسفل ملاءة بيضاء،وتصرخ وترتفع بنصفها الأعلى فيظهر العرق غامرًا وجهها وتجحظ عيناها بألم رهيب،وتجحظ عيون الرجال والنساء والأطفال بالخوف والهلع،وأعلى المرأة جلس الشيطان في مقعد معلق، وله قرنان أزرقان ووجهه ملطخ بالألوان الحمراء والزرقاء والصفراء، ويزداد الضوء على وجهه.

الشيطان: (صارخًا بالضحك) يمكن أن أزيل خوفكم.

الرجال: (في ضراعة) كيف يا سيد النار والظلام؟

الشيطان: (يفحّ) تختارون واحدًا يموت.

(يتبادل الرجال والنساء النظرات في ألم، وتمسك النساء بأيدي الأطفال في خوف).

الرجال: ما أصعب الاختيار. (يرتكزون بسيقانهم على الأرض ويرفعون أيديهم في ضراعة) لماذا تفعل ذلك بنا نحن الذين اخترناك معلمًا لنا وهاديًا؟

الشيطان: (ضاحكًا) من أعمالكم سُلِّطَ عليكم.

النساء: (في جرأة للرجال) لا تستمعوا إليه. هذا مخاتل خدع آباءنا وسبب لنا كل هذا الشقاء.

الشيطان: (ضاحكًا بصوت مجسم) إذن انتظروا حتى تلد. هاهو ذا المخاض يشتد.

تسقط أضواء زرقاء وحمراء على المرأة المربوطة بالسرير، ويختلط صراخها بموجات الضوء السريعة، فلا يعرف أحد ما إذا كان يرى أو يسمع، ويقفز شاب في حوالي الثلاثين إلى الخشبة فجأة. أراه فأدرك أنه أنا. كيف قمت من مقعدي وقفزت دون أن أدري؟

أنا: (صارخًا في الرجال).. لن يموت منكم أحد. هذا ليس بشيطان. ما الذي يجعل الشيطان يعذبكم هكذا؟ هذا ضميركم يستيقظ أمامكم بعد مئات السنين، هذا أول الغيث. ستلد المرأة ولن يموت منكم أحد. هل عشتم في عصر محمد؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: هل رآه أحدكم؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: لو جاء إليكم الآن هل تمنعونه ماءكم؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: (للرجال) إذن قفوا وانصرفوا حتى تلد المرأة، المرأة تتعثر لأنه لم نسمع عن امرأة ولدت وسط الرجال! (يقف الرجال لكنهم لا يتحركون).

الرجال: أقدامنا مقيدة بالأرض.

الشيطان: (يضحك بشراسة ويحدثني) هل تعرف حقيقة هذا البلد؟

أنا: (أتقدم نحوه وأتطلع عاليًا إليه والضوء الأزرق يغمرني) أعرف.

الشيطان: هل جئت تنقذها من لعنتها؟

أنا: أجل.

الشيطان: كان عليك أن تضحي من أجلهم (يخاطبهم) اسألوه إذا كان مستعدًّا لأن يفعل ذلك.

(ينظر الجميع نحوي. يتقدم الأطفال يتعلقون بساقيَّ باكين. لا أحد يتكلم. يُسمع صوت بكاء طفل وليد).

الشيطان: (ضاحكًا) ها هي ذي المرأة وضعت. سيموت منكم واحد الآن إن لم تقدّموا واحدًا طواعية واختيارًا.

ويسقط الرجال يتقلبون على الأرض في ألم، وتُهرع النساء إلى الأطفال، تحتضن كل واحدة طفلها في صدرها. أتراجع أنا إلى الخلف شيئًا فشيئًا. وقبل أن أسقط من فوق الخشبة يقف الرجال وبسرعة يهجمون عليّ ويرفعونني في الهواء يقذفون بي إلى الشيطان الجالس عاليًا. فيحملني من ذراعي، ويقذف بي إلى هاوية سحيقة بين جبلين عاليين ووسط بخار أبيض وأزرق وأحمر يحاصرني ويدخل ساخنًا إلى صدري يكاد يخنقني وأنا أتقلب ساقطًا ولا تلحق بي الذراعان اللتان ميزت بينهما وجه أمي فزعًا ولا أصل إلى قرار الهاوية.

***

(1) الأنفال: 61.

(2) الأنفال: 60.

26

ازداد هجوم الفئران وازداد هجومي. وحدي أنا الآن وقد مضى أسبوعان على سفر وجيه إلى المدينة، وأرسل الحر لنا لفحة من نيرانه استغرقت خمسة أيام تشوي البلدة، ثم تراجعت مفسحة الطريق لريح العجاج تهب كل ساعة وفي القلب من كل ساعة، ولا رسالة تأتي من عايدة تخبرني فيها بعنوانها الجديد، ولا تفسير للرسائل المتكررة باسم و. س. س. في المجلات المحلية والعربية التي صرت أحرص على شرائها.

«أرسلت لنا الأخت و. س. س من الطائف تسأل هل يمكن أن تصدر فتوى في المملكة تمنع الزواج إذا تجاوز الفارق في العمر بين الرجل والمرأة عشرين سنة؟..

بالطبع يا أخت و. س. س لا يمكن أن تصدر فتوى ولا تشريع بذلك». «أرسلت لنا الأخت و. س. س من الدمام تسأل ما الحكمة في سفور المرأة في الأماكن المقدسة، وحجابها في بقية البلدان؟، والحكمة يا أخت و. س. س أن الناس في الأماكن المقدسة تتوجه إلى الخالق عز وجل، والمفترض أن يغض الجميع البصر كما أمرنا الدين الحنيف. أما في بقية البلدان فالناس أصحاب مصالح وتجارة وعمل وعلاقات متداخلة، ويجب أن يستعينوا بكل الطرق على خمد نيران الشهوة».

«أرسلت لنا الأخت واضحة بنت سليمان بن سبيل من الرياض تسأل عن قائل هذا البيت من الشعر وما هو البيت الذي يليه».

«مغاني الشعب طيبا في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان»

«وقائل هذا البيت هو أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر حين زار شِعْب بوان في فارس، والبيت الذي يليه هو:

«ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسان»

«والأخت واضحة تتحفنا دائمًا برسائلها التي تتضمن كثيرًا من الأبيات الراقية، فلدينا رسالة أخرى منها تأخرنا في الرد عليها تسأل عن معنى هذا البيت:

«والأسى قبل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعد الفراق»

«وهذا أيضًا لأبي الطيب المتنبي الذي اشتهر بالحكمة البالغة، فهو هنا لا يدعو إلى الصبر على موت الأحباء كما قد يتصور سذج الشارحين، ولكنه يوضح إلى أي مدى يقف الإنسان عاجزًا أمام حقيقة الموت المعلّق على رءوس العباد. كم هو بائس وتعيس هذا الإنسان الذي لا يستطيع أن يواجه حقيقة الموت إلّا بالصمت».

تقتلني واضحة بالشعر الذي تسأل عنه وهي تعرفه. واضحة ذات الاسم الواضح، فمن تكون و. س. س التي تراسل كل هذه المجلات من كل هذه البلاد؟ أمس الجمعة قال الشيخ علي طنطاوي:

«وصلتنا رسالة مكتوبة بخط جميل على ورق جميل أيضًا من المعذبة و. س. س. «والمعذبة» هذه بتأثير المجلات المصرية، ما علينا، المصريون بلهجتهم الحلوة يدخلون كل البيوت. تسأل المعذبة و. س. س هل يبيح الإسلام زواج رجل في السبعين من فتاة في الثامنة عشرة؟ وأنا أقول للمعذبة إن هذا شر أنواع التعذيب، ولكن الإسلام يسمح لحكمة، فالله لم يخلق الإنسان إلا وضع فيه العقل وميزه عن البهائم، وكل صاحب عقل لا يفعل ذلك. لكن المال أفسد كثيرًا من الرءوس الآن، وعلى أهل الفتاة أن يرفضوا مثل هذه الزيجات ولا جناح عليهم. البعض قد يحتج عليّ ببعض الصحابة والتابعين،

لكن كان هذا عصرًا وكانت تلك أخلاقًا وكان في الرجال مروءة وفحولة. أستغفر الله العظيم...».

كم واضحة بنت سليمان بن سبيل ترسل إلى المجلات رسائلها الآن، وكلها رموز شفرية لي أنا العاجز لا أستطيع أن أفعل شيئًا ولا رسالة من عايدة تسليني ولا خطاب من أخي يطمئنني على أمي ويشرح لي مسألة مرضها.

***

ضحكت حتى كدت أقع من فوق المقعد وأنا أقرأ رسالة وجيه التي أحضرها لي عابد.. وقال:

- هذه رسالة من الدكتور وجيه الذي كان يسكن معك.

قرأ اسم المرسل كعادته ولم أهتم. أستطيع أن أقرأ هذه الرسالة في العمل. لقد تزوج وجيه في المدينة بامرأة لبنانية فاحشة الجمال كما يقول، أهلها كثيرو الثراء، لهم في المدينة تجارة عظيمة «هذه هي الثالثة يا إسماعيل وتبقي واحدة. لا أظن أني سأفعلها، هذه المرأة بمئات النساء جمالًا وغنًى».

ودخل نبيل إلى مكتبي مندهشًا من ضحكاتي التي وصلت إلى البوفيه وابتسم يقول:

- ألا تخشى أن يسمعك عم عبدالله؟

- أخيرًا ابتسمت يا نبيل. عم عبدالله غير موجود. اجلس معي قليلًا.

جلس وزاغت ابتسامته وقال:

- لقد صليت ركعتين منذ يومين، وطلبت أن يسقط مكوك الفضاء بعيدًا عن رأسي، واستجاب الله لدعائي،وسقط المكوك في المحيط قرب أستراليا..

- يبقى تحلق ذقنك!

- لن أحلقها إلّا بعد سفري إلى مصر.

ً

- ستسافر حقًّا.

- آخر الشهر القادم. مايو. أنا لا أصدق أن خطيبتي تزوجت. لا بد أنها مريضة أو أفسدت أمي كل شيء. المشكلة أن هذا ليس موعد إجازتي السنوية. سأرسل لأخي يرسل لي برقية يقول فيها أمي ماتت. ما رأيك؟

- لا داعي لذلك أستطيع أن أقنع عم عبدالله أن يوافق على إجازتك. سأشرح له ظروفك وسيوافق.

- لقد رفض عابد أن يفعل ذلك. كلب.

***

دخل منصور المكتب باسمًا.

- حيّاك الله أخي إسماعيل.

- حيّاك الله يا منصور.. أين كنت؟

- في الكويت.. عدت أمس.

- ....

- طبعًا تندهش. تقول إني مجنون؟

- لا.

- إذن تعرف لماذا ذهبت.

- لا.

- إلى وداد.. لقد فَسَختْ خطبتها من سعيد تمامًا.

- لقد حدث ذلك منذ وقت طويل.

- لا. كانت هناك شعرة. كانت ترتدي الخاتم.

- ....

- واتفقت معها على الزواج.

- لكنني أعرف أنها سافرت لتلحق بقريب لها.

- لا. هذه قصة لفقناها لصاحبك. أنا الذي أحضرت لها فيزة عمل بالكويت، وأنا الذي اخترعت لها حكاية قريبها المحاسب.

- ....

- ما رأيك في هذا الحل؟ بوليسي. مثل الأفلام المصرية.

وقام واتجه نحو الباب وقال:

- استعد يوم الجمعة القادم سأسوّي كبسة كبيرة هنا. تعرف الكبسة؟

- أعرفها ولم أتذوقها.

- حتى الآن؟!

- حتى الآن.

- سأسوّي ذبائح كثيرة وسيحضر كل العمال. هنا في الباحة ستذوقها.

ومضى مسرعًا والقرد ينظر إليّ من خلف ظهره.

***

تجاوزت في القتل الخمسين فأرًا، وصرت أصطادها في الليل أيضًا، صوت أذان الفجر يملأ فضاء البلدة التي فرَّغها الحر من الهواء، فصار الصوت طبلًا فأصحو وأقطع الساعتين الباقيتين في مطاردة الفئران.. أمارس القتل في النهار وفي الليل وألقي بالموتى من فوق الباب، وأسمع صوت شجار القطط التي أعرف أنها في حجم النمور. لقد ذهبت إلى المستشفى لأقابل وردة وقابلتها. لم تضحك ولم تبتسم. غاض الدم من وجهها وغطاه الأسف.

- جئت تسأل عن عايدة؟

- أجل. أريد عنوانها في «أبها».

- عايدة انتقلت إلى المنطقة الشرقية. إلى الدمام.

وسكتنا وأقسمت في نفسي أن أقتل أول من يكلمني في الطريق.

ولم أقتل أحدًا ولا كلّمني أحد.. رحت أقتل الفئران، لكني لا أصطاد إلَّا الفئران الصغيرة - السيسي - البلهاء عديمة الخبرة. هي التي تتسلل إلى حقل القتل الذي أعددته لها. لم يعد اللوح الخشبي يوضع منفصلًا. ثَبَّتُّه بالحائط بمفصلات بحيث إذا ضغطت عليه بقدمي عاد إلى الحائط ولا تكون هناك أي إمكانية أن ينقلب اللوح فيهرب الفأر. فئران صغيرة وبيضاء أيضًا لها بطون حمراء لم ينبت بها شعر بعد ولها أصوات صراصير. أين الفئران التي تلدها؟ وكيف تتركها تأتي إليَّ؟ وكيف لا تدرك أن أطفالها يقتلون كل يوم؟!

الليلة داهمتني الفئران الكبار.. أنت إسماعيل خضر موسى.. أنا.. لماذا تقتل أبناءنا وإخوتنا الصغار كل يوم دون وجه حق؟! أنا لا أقتل جزافًا، أناهنا غريب في بلد غريب، أحب أن يستأذن ضيوفي في الدخول عليَّ وإخوتكم وأبناؤكم يقلقون نومي في الليل والنهار. أنت كاذب لأنك تكره النوم. لكن النوم لا يكرهني ويغلبني في كل نزال فتقلقني فئرانكم، هل تريدونني آكلها؟ لقد سددت أسفل الباب وكل الفتحات التي يمكن أن تدخل منها لكنها تدخل.. أنت لا تقتل الفئران فقط ولكن أيضًا تستخدم وسيلة بشعة. وأنا أدفع للبشاعة ثمنًا من التقزز. أنت خائن للطير والحيوان معًا، فنحن الفئران لسنا من عالمكم لكن بيننا وبين الطير والحيوان مودة وصلة. الحيوانات تكرهكم والطيور. القط مثلًا يأكلكم والحدأة أيضًا. ليس القط ولا الحدأة، إنه الجوع الذي يفسد الأخلاق، انظر إلى الحمامة كيف لا تأكلنا، الحمامة وديعة، وأصدقاؤنا من هذا الصنف كثير منذ أنقذ أبونا الحمامة المطوقة من شبكة الصياد. هذه خرافة كتب. هذه حقيقة وأنت لا تدري ولا بد أنك لا تعرف أيضًا أن الأسود تحبنا. الأسود المفترسة ذات الهيبة والكبرياء. هذه أفكاركم فلا هيبة ولا كبرياء للذي يعيش على ما تجمعه له زوجته من طعام، هذه واحدة، والثانية أن أبانا الفأر خلّص الأسد يومًا من شبكة الصياد أيضًا.. إننا معشر الفئران قد نكون تافهين لكننا مثل كل شيء صغير في هذا الكون لنا فائدة، وأنت جاهل لا تعرف أن الله خلق الكون متوازنًا لا يحق لأحد أن يفسد توازنه. هذا كلام فارغ لأن الجراثيم مخلوقات أيضًا لكننا نطاردها ونقتلها قبل

أن تقتلنا، وأنتم جبناء تحملون القمل فتنشرون الطاعون الذي قتل «أبا عبيدة بن الجراح» في الشام وأهلك جيوش نابليون في فلسطين ودمّر نصف المصريين أيام المماليك، والآن تتلفون الزرع في مصر وتقتلون الأطفال في الريف وتنشرون الأمراض في مدن القناة التي ترعرعتم في خرائبها قبل انتصارنا وكأنكم بالفعل لا تريدون أن يكتمل انتصارنا.. أنتم عدوٌّ لي وأنا عدوٌّ لكم إلى يوم الدين. إذن لا فائدة في الحوار معك!

وقفزت فوقي الفئران السوداء فغطت جسمي كله، فقمت فزعًا إلى المطبخ، ووجدت واحدًا منها بين اللوح الخشبي والحائط فدهسته بوحشية فائقة!

***

27

فجأة فكرت أن مرض أمي ليس عاديًّا. لا أظن أن هناك حاجة إلى ذكر المرض العادي في خطاب، وحينما وصلتني رسالة من أخي يطلب فيها ألف جنيه في أسرع وقت، قطع الشك اليقين. لكنه لم يذكر نوع المرض ولا الخطوات التي اتخذوها للعلاج. كنت بالقاهرة منذ شهرين،وكانت أمي في أحسن حال. صحيح أنها تجاوزت الخمسين، لكن هذه ليست السن التي تغتال فيها الأمراض صاحبها. صغيرة أمي على أمراض العجز والشيخوخة. كانت صغيرة دائمًا على أبي. هل كان ذلك سبب الشجار الكثير بينهما في الأعياد؟!

كتبت إلى أخي ليعلمني بما يحدث، وأرسلت إليه من الجنيهات ألفين. وانتبهت إلى حديث البلدة الذي وصل إلى مكاتب الشركة ويضحك الباكستانيون منه،ويضحك عابد، ويضرب نبيل كفيه في بعضهما دهشة.

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟

- ليس غريبًا على كل حال.

- يعني لو ضربتني أوضربتك على رأسك يفقد أحدنا الوعي ويستطيع الآخر أن يفعل به ما يشاء!

- قديمًا قبل اكتشاف البنج، كان المريض يدخل عيادة الطبيب فيخرج له واحد من خلف الباب يضربه بمطرقة خشبية على رأسه وبعدها يُجري الطبيب العملية.

تحسس نبيل رأسه وضحك.

- لكنها ضربته بالحلة البرستول؟

- الحلة أثقل من المطرقة.

- وخصته!

- هذا ما يقال.

- هل يمكن أن تفعل امرأة ذلك؟

- الغيرة قاتلة.

وضحك نبيل.

- لقد ذهب المسكين إلى المستشفى فوجدوا إحدى خصيتيه معلقة في بنطلونه.

وسكتنا.. وقام وهو يقول فجأة:

- لقد سافر منصور أمس إلى الكويت،وهرب من عزومة الكبسة. بخيل. أنا أعرفه جيدًا.

***

لم يعد إذن في العمل أحد أتحدث معه غير نبيل. «وهَّاج» الذي صار مسئولًا عن التغذية في الكامب يأتي، وينصاع عابد لكل طلباته بسلاسة. وأتذكر دائمًا أرشد وهو يسأل:

«لماذا يفعل عابد بي ذلك؟» تمنيت لو مَاطَل عابد وهّاجا. لو خالفه وعصى له مطلبًا. يبدو أنه يعرف ما أريد. ودائمًا أتذكر حيرة أرشد وضيقه وقلة حيلته. وتمنيت أكثر من مرة أن أرى أرشد داخلًا فجأة. فيزة أرشد تنتهي بعد ثلاثة أشهر. تبقى له الآن أيام قليلة. هل يفعلها أرشد ويعود؟ لا أظن. أشاع «سرْور» خبر القبض عليه لأسباب سياسية، ولا أظن أن له فرصة في العودة أبدًا. يستطيع أرشد أن يسافر بعد سجنه إلى أي بلد إلَّا المملكة. ويستطيع أرشد أن يحلم في سجنه بأي بلد إلَّا المملكة. لا بد أنه نسي الوقت الذي أمضاه هنا. ولا بد أن سعيد يفعل الآن نفس الشيء. ومنذر أيضًا والمرأة اللبنانية الصغيرة والدكتور أحمد، ورأفت وفيليب المسكينين اللذين لا حاجة لهما الآن إلى التذكر أو النسيان.

قطيعة غريبة تحدث بين العائدين إلى بلادهم وبين هذا البلد. منذ البداية تبدأ القطيعة فلا أحد يأتي هنا إلّا ليعود. هل يعرف اليمني العجوز ذلك؟ أتراه يبتسم لي لهذا السبب؟ يسخر من الأمر كله ويرى الدنيا حوله مهزلة؟ ما باله لا يظهر الآن؟

سألت عابدًا عنه أمس، فابتسم وسألني:

- هل يهمك أمره؟

- فقط أسأل!

وهز كتفه بلا مبالاة.

***

- أليس هناك طريقة للاتصال بها في الدمام. أليس لديكم رقم التليفون أو العنوان؟ سألتُ وردة التي ذهبْتُ إليها في المستشفى بعد خروجي من العمل.

- من الصعب عليك أن تتصل بها في الدمام، نحن لا نعرف بالضبط في أي مستشفى تعمل هناك.

- ....

- ألم تكن تكتب لها؟

- كنت أكتب ...

- ألم ترد عليك؟

ولم أرد عليها.قمت وصافحتها ومشيت.

***

كرهت العودة إلى البيت.. كرهت صيد الفئران. إنني أغسل اللوح الخشبي كل يوم بالصابون والسافلون. لا رائحة نتنة في المطبخ حقًّا لكنني أشمها في الفضاء. فكرت جديًّا أن أبحث عن شقة صغيرة في عمارة. ستكون فرصة الفئران أقل. البيوت العربية الطراز لا تزيد على أحجار في طريقها تتسلقها أو تمر من تحتها. ودخلت الشارع العام بسيارتي. أحسست أنني بحاجة إلى أن أرى عربة الشرطة تطوف بأحد.. أي أحد.

ورأيت نفسي أركب حمارًا ووجهي إلى الخلف وهو يمشي إلى الأمام، ويضحك الناس عليّ رجالًا ونساءً، ويقذفني الأطفال بالأحجار، ولولا أنني سمعت نفير السيارات لاصطدمت بالسيارات أمامي.

سمعت أن أوامر صدرت بإلغاء التشهير بعباد الله في الأسواق.. من الذي فعل ذلك رغم حاجتي إليه الآن.تركت سيارتي ومشيت. ذاهب أنا إلى بيت سيد الغريب. لا بد أن أتحدث مع أحد.

- امشِ.

هتف الشرطي في وجهي.

- امشِ.

أشار إليّ سيد الغريب بيده من الشرفة التي يجلس فيها.

- ليش واقف؟

- هل يضايقك وقوفي؟

- يضايقني. قلت لك أن تمشي.

- أين أذهب؟

سألتُ الشرطي فجأة مندهشًا ومرتبكًا.

- لو لم تمش وضعتك معه في البيت لا تخرج منه!

مشيت. عدت إلى الشارع العام، واشتريت الصحف والمجلات. قابلت صالح في الطريق فتجاهلته وتجاهلني. ما كاد يصبح خلفي حتى وقف وناداني. وقفت، وعاد إليّ:

- أريد أن أعطيك هدية يا أستاذ.

لم أرد.

- اعذرني إذ لم آت لأعتذر إليك بعد تنازلك عن الشكوى بالشرطة.

ولم أرد.

- تبغي بطانية جلد نمر؟ أستطيع أن أوصلها إلى بيتك الجديد. مرتاح يا أستاذ في البيت الجديد؟

- الحمد لله.

- حيّاك الله يا أستاذ.

وتركني، وعادت الشمس فوقي شديدة الوهج تكاد تحرق البشرة، والشارع العام صار مزدحمًا بالبضائع، ومكتبة خالد أخو واضحة مغلقة، خالد شبيه واضحة لولا الشارب الصغير والغترة البيضاء والعقال ولا أثر في الشارع للحريق الآن.

ركبت سيارتي ورأيت الأشياء تجري إلى الخلف. كل شيء يبتعد عني إذن وليس لي الآن إلا انتظار خطاب واحد من أخي يعلن فيه شفاء أمي. ورأيتها تجلس جواري بالسيارة تربِّت على كتفي.

- لا تبك يا إسماعيل.

ومسحت دموعي بيدها الباردة وحملتني وخرجت بي من زجاج السيارة ووضعتني فوق السرير الصغير الأبيض وغطتني بالغطاء الأبيض وجلست جوار رأسي تضع فوق جبهتي مناديل مبللة بالماء البارد وسمعت أذان الفجر. الحمد لله راحت الحرارة يا إسماعيل. الحمد لله. وانحنى أبي يُقبّلُني. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) ﴾(1). ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾(2).

اللهم خذ مني لصحته وعافيته وارزقني برزقه وأعطني العمر لأرى ذريته. اللهم إني شكوت لك همي بالليل وتعبي بالنهار فاستمع لي وقرّبني منك وخذ بيدي في ابني يا عالمًا بحالي يا غفور يا تواب يا رحيم، اللهم إني نذرت أن أذبح على باب مقام سيدي إبراهيم الدسوقي كبشًا وأعود وأذبح على باب بيتي كبشًا فاشف لي ولدي إسماعيل. اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا ولا تجعلنا مع القوم الظالمين.

- والبنتين يا أم إسماعيل؟

- بخير.

- شفتيهم؟

- شفتهم، نايمين وكويسين.

- شقَّري عليهم يا أم إسماعيل.

- شقَّرتُ قلت لك.

- خلاص ما تزعليش حقك عليّ.

ويعلو نفير السيارات من كل جهة.

- ليش تقف وتعطِّل الطريق؟

- آسف.

- مُر بسرعة.

ومررت بسرعة وكل ما أخذته من البنتين الأكبر مني صار عليّ أن أدفعه لسناء وبهاء الأصغر مني. صدرُ الفرخة كان لي واللحم الأحمر والبيضة ذات الصفارين وزجاجة الكوكا كولا كاملة وفطائر السمن وأفخاذ الأرانب وكبد الطيور وعناقيد البيض الذي لم يكتمل في بطنها والماء الساخن في الشتاء والصابون أبو ريحة والملابس الناعمة ورحلات المدارس وزيارة الحدائق. لماذا كنت أحب دائمًا من أبي أن يذهب بي إلى محطة سكة الحديد أتفرج على القطارات الداخلة والخارجة وحركة الناس وفرق الموسيقى في الميدان أمام المحطة؟

ورأيت صالح سنيور الثقيفي يقف أمام الباب ومعه صاحب البيت.

- السلام عليكم.

- يا هلا.

رد عليّ صالح بصوت بارز وابتسامة واسعة وألقٍ شديد في عينيه بينما غمغم المالك العجوز بصوت لم أسمعه.

- خيرًا.

- خيرًا إن شاء الله. افتح لنا ندخل يا أستاذ.

رد صالح بثقة غريبة. كيف وصل إلى هنا قبلي وقد رأيته منذ قليل في الشارع العام، وكلمني دون أن يشير لذلك.

فتحت الباب، واتجهنا إلى غرفتي. ولم أشأ أن أطلب منهما الجلوس، لكن صالحًا جلس على حافة السرير، وجذب صاحب البيت من ذراعه يُجلسه جواره، وظللت أنا واقفًا.

- لا تسوِّ لنا شايًا ولا قهوة يا أستاذ. سنخرج بسرعة.

- .....

- طبعًا أنت استأجرت البيت من الشيبة هذا. الآن أنا أريد البيت.

- أي بيت؟

- هذا.

- لكنني أسكنه.

أعرف يا أستاذ. أنا اشتريته من الشيبة، واشتريت الذي يجاوره. سأتزوج في هذا وأهدم الثاني وأجعله حديقة، سأزرع أشجارًا مصرية، سأعطيك مهلة شهرًا يا أستاذ تبحث عن سكن آخر. تكفي هذه المدة؟

- تكفي.

ولم أشأ النظر إلى أحدهما بعد ذلك. لا معنى أن أسأل المالك الأول عن صحة ما سمعت. لم يصحبه صالح ليتآمر أو يكذب. لقد اشترى صالح البيت بحق وعليّ أن أتركه، سواء تزوج فيه وهدم الذي يجاوره، أو تزوج في الذي يجاوره وهدمه، أو هدم الاثنين معًا ولم يتزوج!

***

أكلت بشهية لا أذكر أني أكلت بمثلها منذ أن أتيت. شويت كمية هائلة من لحم الضأن والكبد، ورحت ألتهمها وأنا واقف في المطبخ ودون خبز. أستطيع اليوم أن آكل خروفًا كاملًا..جَملًا لو أردت. وربما خرجت إلى الطريق هائجًا أذبح كل من يقابلني وأشويه وآكله. أحتاج الآن إلى نوم كبير.

تمددت فوق السرير، وامتدت يدي تمسك بمجلة مما ألقيته من قبل على الأرض قريبًا من رأسي.

«جريمة تهتز لها المملكة. ثاني حادث من نوعه خلال شهر.. فتاة في السابعة عشرة تضرب زوجها على رأسه بآنية الطبخ البريستول الثقيلة ثم تخصيه، الزوج المسكين مات من الصدمة حين أفاق وعرف ما حدث له. الزوج هو ع. ص. ص البالغ من العمر سبعين سنة، والزوجة القاتلة الصغيرة هي و. س. س من الرياض،وهي تلميذة في المدرسة المتوسطة».

وقلّبت المجلة مجنونًا إلى بريد القراء:

«وصلتنا أكثر من رسالة عاجلة بالتليفون تسأل هل و. س. س صاحبة الرسائل المتكررة إلينا هي القاتلة. والإجابة بالنفي. ونحن نطمئن قراءنا الأعزاء إلى أن صديقتنا و. س. س حدثتنا بالتليفون بعد الحادث تسأل: هل صحيح ستقوم حكومة الخميني في طهران بإغلاق المدارس والجامعات وتعود إلى التدريس في المساجد؟ والحقيقة أنه لا إجابة واضحة لدينا حتى الآن، ونحن مثل صديقتنا نستمع لكثير من الإشاعات عن حكومة طهران الجديدة، لكن المؤكد أنها مشغولة بتخليص الحكم لنفسها من المعارضة وأعوان الشاه المندسين في البلاد، والمؤكد أيضًا أن الحجاب عاد يظهر فوق وجوه النساء في سائر بلدان إيران، وهذه خلة محمودة للحكومة الجديدة نرجو أن تتبعها خطوات أخرى في طريق الدين الرشيد».

وأنا الذي رأيت دكانة خالد مغلقة منذ ساعات بالسوق قفزت من فوق السرير، ودخلت في ثيابي، واندفعت أركب سيارتي أسرع بها على الطريق القادم من الشمال.واضحة. واضحة ولا أحد غيرها. ورحت أنهب الطريق غير مبال بالفراغ الواسع الرهيب حولي، ولا بالظلام الزاحف ضاربًا قلب الفضاء. وهناك، بعيدًا بعيدًا وأنا أقترب من «حالّة عمار»، بوابة الحدود مع الأردن، أدركت أنه لا بحر قابلني في طريقي لألقي بنفسي فيه!

***

(1) الإخلاص: 4-1.

(2) البقرة: 255.

28

﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(1).

عائد إلى حيث جئت لا محالة وكل شيء اقتربت منه ابتعد. كيف نسيت أن أكون مرآة لامعة تنزلق فوقها حبات المطر؟ الليل والنهار ورجل واحد بينهما هو أنا. الليل والنهار سمّاهما العرب المِلْوين لأنهما يملآن الآفاق نورًا وظلمة. كيف ترى حقًّا في النور الساطع وكيف ترى في الظلمة القاتمة؟

الليل والنهار سماهما العرب بالجديدين لتجددهما بالضياء والإظلام على الدوام، لا شأن لهما بأحد. لم يقف النهار معي مرة يحدثني ولا الليل فعل. سمّي النهار نهارًا لظهور ضوء الفجر يجري كالنهر من المشرق إلى المغرب معترضًا حتى يأتي على الظلام. معركة يخوضها كل منهما مع الآخر ولا شأن لهما بأحد يقف تحتهما أو بينهما. يطل عليّ النهار الآن فأسرع إلى العمل غير مصدق أني نمت وصحوت وأن الليل انقضى، وأعود أردد في نفسي: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾(2)، خوفًا من شدة ظلام الليل، ودخوله كاسحًا بلا هلال ولا بدر ولا نجوم.. اختلطت عليّ أيام الشهر، ورأيت أبي يخرج قبل المغرب يبحث عني في الشارع لأدخل البيت قبل الظلام، ويقول عن الرسول: «جنبوا صبيانكم فحمة العشاء».

سَمَّى العرب الليل بالكافر لأنه يستر الناس، فالكُفر هو الستر، والكافر يجحد نعمة الله ويسترها، والكُفُور هي القرى النائية عن المدن، لأن ساكنها يغيب عن جمهور الناس ويستتر عنهم، والرسول قال: «لا تسكنوا الكفور فساكنو الكفور كساكني القبور».. وتبوك بعيدة عن حواضر المُدُن، وفي مصر آلاف الكفور.

أرى الليل الآن: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(3). وأخرج يدي فلا أكاد أراها، وكل ليلة أنتظر النهار، وأنتظر معه شيئًا يحملني إلى مكان آخر، شيء لا أدرك كنهه، وإن كنت أعرف أنه ليس رسالة من أحد.

***

عاد منصور من الكويت ولم أقابله. أخبرني نبيل أن يوم الجمعة ستتم وليمة الكبسة التي وعدنا بها منصور من قبل ولم يتمها. ستكون وليمة ضخمة، قال نبيل، وسيرانا منصور لآخر مرة إذ سيسافر مرة ثالثة إلى الكويت ويبقى هناك، سيتزوج المصرية التي دوخته. مسكين منصور وُلِدَ ليهوى المصريات، وضحك نبيل وسألني: لماذا أنا مندهش؟!

كنت أفكر كيف يتكرر سفر منصور هكذا وفي وقت قصير. لا بد أن مسألة زواجه من وداد لم تكن منتهية كما حاول أن يقنعني آخر مرة. لكن لماذا لا يأتي العمل بالنهار لأراه؟ لماذا يرسل إليّ نبأ الوليمة مع نبيل؟

فكرت أن أتخلف عن الحضور، ووجدت أنه لا معنى لذلك. الآن انتهت كل آصرة لي بشيء أو أحد. ضاعت عايدة في الرمال البعيدة، وواضحة هي القاتلة، وسينفذ فيها القصاص بالسيف لا محالة، ولا يعنيني أن و. س. س لا تزال ترسل أسئلتها للصحف من كل المدن، فمنذ أيام لا أشتري الصحف، والبيت الذي سيأخذه صالح ليهدمه أو يعمِّره بامرأة وأطفال ليس فيه ذكريات، وفي الذاكرة البعيدة الآن ينام كل من عرفتهم رغم قرب الزمان. ها هو ذا «إله تبوك» السحري يعود إلى جعبته يطلق منها على روحي سهام النسيان، وها هو ذا «العج» يثور كل وقت صارخًا أن البلاد غير البلاد، وبهاء أخي أرسل يقول إن أمي صارت بخير. لم يطلب نقودًا أخرى ولم يحدثني عن تفاصيل المرض. لقد شفيت والسلام. سأحضر إذن وليمة الجمعة.

***

دائمًا كنت أعتذر عن عدم تلبية دعوات وجيه وسعيد لي بمصاحبتهما لمثل هذه الولائم. الآن أشتاق إلى حضور واحدة منها. لم أشتق إليها يومًا والآن أستعد لاستقبالها فَرِحًا. هدأت روحي بعد يقيني بانقطاع كل الحبال. ربما، وربما لأن صاحبها منصور.

أحس، ويا لغرابة هذا الإحساس المفاجئ، أني أقف على باب الطائرة وهواء المكيف في ظهري، ووجهي وصدري يواجهان الشمس، وأخطو أول خطوة دون أن يدفعني إليها أحد.. هل سأعود مرآة لامعة؟ عليّ أنا أن أعرف جيدًا كل ما أراه. أدقق في تفاصيله كمشتر حصيف، وأشرع في كتابة المذكرات التي تجعل ما يحدث لي لا يحدث معي. المذكرات تعني الوعي. الوعي يعني هزيمة الوجدان، ولا يأتيني الحزن بعد ذلك. لو أتذكر الكاتب الخبيث الذي قال هذا الكلام. آه. كل الكتّاب خبثاء، وكل القراء أغبياء يصدقونهم فيعيشون

حياة غير حياتهم، سرقة مع سبق الإصرار للوقت والعمر الجميل ولا يشكو أحد!

لقد قيل إنه حين نشر غوته آلام فرتر انتحر مئات الشباب في ألمانيا الرومانتيكية التي هتك نابليون عرضها بقوة. قتل غوته شباب أمته بكتاب صغير بكى في كتابته مرة أو مرتين، واحتاج نابليون إلى جيوش لقتلهم. ولم تنقذ أشعار لوركا جنود الجمهورية الذين حملوها في جيوب ستراتهم جوار قلوبهم. وفي زيارتي الأخيرة للقاهرة مات الممثل «صلاح منصور» صاحب العينين النافذتين. ترك فراشه ووقف جواره يلقي مونولج هاملت الشهير، وما إن قال أكون أو لا أكون حتى عاد لينام فوق الفراش نوم الأبدية. ترى كم قتل شكسبير بأميره الوسيم طوال القرون الماضية!

ولماذا أذهب بعيدًا هكذا أنا إسماعيل خضر موسى الذي يفطن دائمًا للحقائق بعد فوات الأوان؟ ضيعني أحمد عاكف ونجيب محفوظ. صدقتهما فقتلت «آمال». أجل قتل عمد هو. عرفت ما لم يعرفه أحمد عاكف مبكرًا، أنا لن أفوز بشيء، فلم أشأ إرهاق قلبي وتحطيم قلوب العباد. نجحت في الأولى وأخفقت في الثانية فقتلت من حيث أردت الحياة.. حتى الكتابة قرأت من أجلها مئات الكتب إلا أدب الكاتب والكامل والبيان والتبيين، ثم تركت الكتابة أيضًا تتسلل في قلبي إلى قدميّ إلى الطريق يدوسها النسيان ويعلوها الصدأ!

هل كنت أعرف أني سأصل إلى هذه النهاية، أم جئت هنا، على هذا البعد، لأتقصى الأسباب؟ يا أللهِ، هنا، على بعد مئات الأميال من كل ما هزّ القلب أو تحجَّر أمامه، هنا، والآن، أكتشف أني أستطيع العودة وأكتب. لكنني لا أريد أن أدمي قلبي، أنا كاتبي وأنا قارئي فأنا قاتلي لا محالة إذ ستصل الخدعة إلى الغاية رغم أني الكاتب المخادع الخبيث. إذن فلأشرع في كتابة المذكرات حيث يطغى العقل على الوجدان فلا يندفع الدم بين القلب وبقية الجسد.

***

ولم أكتب المذكرات، ولا يبدو أني سأكتبها يومًا، وعاد الليل أثقل.

في الحزن يطول الليل، فلماذا يطول الآن وقد تقطعت بيني وبين كل شيء هنا كل آصرة؟ ليلي ثقيل من السخف نَشَأ. ليلي مقيت في تكراره لكنني

وصلت إلى صباح الجمعة، وانتظرت في البيت حتى انتهت الصلاة، وتغديت، واستلقيت فوق السرير أتابع برامج التليفزيون لينتابني قلق مفاجئ، فأنا أريد بحق حضور الوليمة. وكان التليفزيون كريمًا معي. بث فيلمًا مثيرًا عن غرق السفينة بوزايدون. أنا لا أعرف شيئًا عن هذه السفينة، وما إذا كانت قصة غرقها حقيقة أم لا، لكن من منا لا ينجذب إلى هذا النوع من الأفلام الذي يصور الناس في مأزق كبير، ويجلي أمامنا الإرادة الإنسانية في أقوى صورها، ويعرض صور الصراع بين النفوس في لحظات الضعف والقوة. كل هذه الأفلام يعرف المشاهد نهايتها التي لا تخذله فتنتهي دائمًا بالنجاة. أعرف ذلك أنا أيضًا، ولكني أمام السينما أتحول إلى طفل بريء مأخوذ ومفتون. وكان النوم أيضًا كريمًا معي، ما كاد الفيلم ينتهي حتى ثقل رأسي، وانفصل عن جسمي، ورأيت مرة أخرى «جين هاكمان» القسيس الورع الذي يعظ راكبي السفينة أن لا ينسوا رحمة الله ولم يضعف رغم سخريتهم به حتى إذا بدا أنه لا فرصة للنجاة بعد أن بذلوا، وبذل معهم، جهدًا خارقًا، يهتف في غضب وخيبة أمل: نحن لا نريد رحمتك، فقط نريدك أن تكف عنا، أن تتركنا نواجه ما يحدث دون تدخل منك لأجلنا أو علينا! فجعلني أضحك من يأسه وحيرته. ولما صحوت وجدت التليفزيون يبث برنامج «مجلة الأسبوع» والدنيا ظلام، فأسرعت كالملدوغ بالخروج، وركبت سيارتي منطلقًا إلى الشركة خائفًا خوف الموت أن تكون الوليمة قد فاتتني.

***

اقتربت فوجدت عددًا كبيرًا من السيارات تقف أمام باب الشركة من الخارج. سيارات كابريس ومرسيدس وكاديلاك وبيجو، وبينها تبرز سيارة عم عبدالله الكاديلاك البيضاء، وجوارها سيارة مرسيدس سوداء ذات ستائر داخلية خلف زجاجها، ويرتفع وسط سقفها، تماما كسيارة عم عبدالله إيريال إرسال واستقبال.

تركت سيارتي نصف النقل القديمة بالخارج، ودخلت على مهل أفكر من يا ترى دعاه منصور إلى الوليمة الليلة.

كانت الأضواء تكاد تُشعل المكان وسط فضاء واسع من الظلام، وكانت لمبات إضافية قد وضِعَتْ حول سور الشركة، فبدا الأمر كأنه عرس يقام وسط الصحراء.

دخلتُ إلى الباحة، فشد عيني مشهد الجالسين في صفين متقابلين من أهل البلدة، يتصدرهم عم عبدالله الذي رفع لي وجهه ثم تغافلني كعادته، وإلى جواره شخص أسود الوجه، يرتدي فوق الجلباب عباءة سوداء مطرزة بقصب الذهب، وفوق رأسه غترة خضراء متقاطعة خطوطها الحمراء. رفع لي هذا أيضًا وجهه وانشغل عني، وأنا ترددت في الاقتراب منهما. كانا يتكلمان ويضحكان. وظهر نبيل قادمًا من ناحية البوفيه يحمل إبريقًا وكأسًا ويتوجه في صمت ناحيتهما.

لمحت عابدًا يتحدث في التليفون في غرفته، فتقدمت إليه أشعر بالارتباك في خطواتي وعلى وجهي. ما إن دخلت حتى ابتسم لي وهو يضع السماعة وقال:

- مفاجأة! أليس كذلك؟

- مَن كل هؤلاء؟

- هؤلاء شيوخ البلدة، وكبار موظفي الإمارة، يتوسطهم عم عبدالله والأمير.

- هل هذا هو أمير تبوك؟

- ألم يسبق لك أن رأيته؟

- أجل.

- إنه شخص مهذب جدًّا. تعال سلم عليه.

وقبل أن أتكلم أخذني من يدي، ولم أجد الفرصة لأقاوم خوفًا غريبًا استبد بي، فتركت له نفسي، ثم سحبت يدي من يده بعد خروجنا من باب المكتب. لا يصح أن يبدو أمامهم أنه هو الذي يدفعني لمصافحتهم.

لم يقدمني عابد إلى أحد بالطبع. اقتربنا من الأمير فتركني، واشتبك بالحوار الضاحك مع أحد الشيوخ، واندفعت أنا تخلصًا من الموقف كله أصافح عم عبدالله أولًا. «هلا» قال في اقتضاب. وصافحني الأمير. مد إليّ يده وهو جالس، وقال عم عبدالله:

- هذا إسماعيل. يعرف الإنجليزية جيدًا. يمكن أن تستفيد منه في الإمارة.

- حقًّا؟

تساءل الأمير من دون أن يبدو أنه تكلم أوحرك شفتيه. وما كدت أرد بالإيجاب، حتى هز رأسه مرتين مغمضًا عينيه، وبدا أنه انصرف عني بذهنه، ووجدت نفسي أسرع بالاتجاه إلى البوفيه من دون أن أستمر في مصافحة بقية الجالسين. جلست على المقعد الوحيد أرتجف. شملني الخوف الذي لا أعرف مصدره. كيف حقًّا أرسل أخي يقول إن أمي شفيت من المرض دون أن يذكر لي مرضها وطبيعته التي استدعت أن أرسل إليهم كل ما أرسلت من نقود؟! وفكرت كيف أن البساط الأحمر الممتد بين الصفين من الشيوخ، يمتد أيضًا إلى ما بعدهما من الجهة المقابلة للأمير وأدركت أن العمال الباكستانيين قادمون أيضًا للحفل وربما دعا منصور الأمريكان. أين إذن سيكون مكاني؟ ليس أمامي إلا انتظار بقية المدعوين لأجلس بينهم، لا أستطيع الجلوس بين الشيوخ وكبار البلدة. لا شيء لديّ أقوله لأي منهم، ولا سابق معرفة لي بأحدهم، ولم آت للصمت والأكل، لا بد أن يحدثني أحد، وعابد سيجدها فرصة ليتحدث مع كل الشيوخ أمامي، ويتبادل معهم الضحك وكلامًا لا أفهمه. لن يتحدث عابد لي بكلمة منذ الآن، ونبيل مشغول عني بتقديم الشاي والقهوة العربية حتى يأتي منصور وطعامه.

ودخل نبيل البوفيه وقد احمرّ وجهه بشكل مثير.

- ربك يستر.

قال هامسًا. وسألته:

- أين منصور؟

- سيأتي بعد قليل ومعه عربة محملة بالطعام. سيطهوه في البلدة. في بيته. هكذا قال. لماذا لا تخرج وتجلس معهم؟! فرصة أن تتعرف عليهم؟

ابتسمتُ. تركني وحمل إبريقًا آخر من الشاي وخرج. هل أستطيع أن أتعرف الليلة على كل هذا العدد من الشيوخ والكبراء ذوي الغُتر المدرجة، والعباءات الفضفاضة، والوجوه النضرة ذوات اللحى الصغيرة اللامعة؟! وبقيت جالسًا في مكاني، إلا أنني حركت المقعد بحيث أراهم من خلف الباب المفتوح ولا يروننني، ورأيت عابدًا لا يكف عن المرور حولهم، يقف يتحدث مع واحد لحظة،ويضحك مع الثاني، وينحني يقبل رأس الثالث، وأحيانًا كتفيه، وترتفع أصواتهم بكلام لا أفهمه، وكثيرًا ما يضحك بعضهم، وأرى الأمير من الخلف لا يهتز ولا يبدو أنه يتحدث.

كثيرًا ما تحدث وجيه وسعيد أمامي عن «الكبسة». قالا إن الأكل فيها يكون بالأيدي. باليد اليمنى فقط. لا يصح استخدام اليدين. اليد اليمنى تنهش من لحم الخروف الصغير المشوي، الموضوع كله فوق صينية الأرز الكبيرة التي قد يصل قطرها إلى المتر، والأرز كوم عال، أرز غارق في السمن، مخلوط باللوز والزبيب والصنوبر والفستق، وعلى الواحد أن يأخذ بيده الأرز الساخن، ويضغطه في كفه قبل أن يقذف به إلى فمه، وكلما نَزَّ من يده السمن، كان دليلًا على كرم صاحب الوليمة، وحذار إذا وجدت ملاعق أن تستخدمها. الملاعق لا تظهر إلا في حالة تقديم «السلاطة» مع الأكل. يكون عليك أن تحمل السلاطة بالملعقة، وتلقي بها فوق الأرز، ثم تترك المعلقة، وبيدك تعود تأخذ الأرز والسلاطة معًا وتكورها لتأكلها. ومن مراسم الكبسة أن لا تبدأ تناولها إلا بعد أن يبدأ كبير الجلسة، وكبير الجلسة اليوم هو الأمير صاحب العينين الصغيرتين المدفونتين تحت جفنين عاليين. عليّ إذن أن أراعي كل هذه الآداب.

وسمعت ضجة عالية خارج الباحة، ثم اندفع العمال الباكستانيون إلى الداخل يجرون ضاحكين، وفجأة توقفوا مصعوقين من رؤيتهم للشيوخ والكبراء. صار بعضهم يُحذِّر القادمين مندفعين بعده، وبعضهم خرج بسرعة يحذر القادمين من الخارج وتوقفوا حائرين لا يعرفون ما يفعلون، فتقدم عابد إليهم وأشار إلى الناحية الخالية حول البساط الأحمر، فراحوا يجلسون في صمت، لكني أرى على البعد وجوههم التي اشتعلت احمرارًا.

عاد نبيل إلى البوفيه أحمر الوجه أيضًا.

- لقد تأخر منصور كثيرًا.

لم أرد. كنت أتابع الصمت الذي ران على الجميع. الشيوخ أيضًا وعابد الذي خرج يقف عند باب الباحة قلقًا. وكان الضوء في الباحة شديدًا ونسمة من هواء منعش هبت علينا، وبدا لي كل شيء طيبًا نديًّا، لكن أخذني القلق. قلت لنبيل:

- هل تراه لا يأتي؟

- لا أظن. لقد دعا الأمير كما ترى شيوخًا كبارًا. أبوه أيضًا يجلس هنا. ألا تعرفه؟

هززت رأسي بالنفي فقال:

- صاحب العباءة البنية.

دققت النظر حتى رأيته في الصف المواجه لي. شيخ هرم أغمض عينيه وأغلق فمه، ويكاد رأسه الذي يهتز يسقط على صدره من النعاس.

وقال نبيل:

- يجب أن تأخذ مكانك الآن، سيفطن الناس إلى غيابك وهذا عيب كبير، ما دمت حضرت فعليك بالجلوس معهم.

***

لم يكن هناك مكان لي إلا الصدارة من الناحية الأخرى المقابلة للأمير وعم عبدالله. على جانبي وأمامي صفا العمال الباكستانيين يلتحمان بصفي الشيوخ.

من الممكن أن يجلس عابد إلى جواري، ومن الممكن أيضًا أن يتسع المكان لمنصور. لا بد أن يجلس منصور في الصدارة حين يأتي، فأكون أنا على يمينه وعابد على يساره، أما نبيل الذي لم يجلس حتى الآن، فلن يجلس. سيكون عليه إعداد الشاي والقهوة لتقديمها بسرعة بعد الأكل لكل هذا العدد. ربما يأكل نبيل مما يتبقى. يتبقى دائمًا الكثير يُلْقى به للقطط فتصير نمورًا وتحسدها الكلاب الطريدة الممنوعة من دخول الحواضر. الليلة ستحسد القطط الكلاب إذ سيُلقى بما تبقى في الصحراء.

جاء عابد مسرعًا من ناحية الباب. وجلس جواري وهو يقول:

- وصل الطعام.

كان يهتز ارتعاشًا لا أعرف لماذا، وكان يبتسم، وأنا راحت عيناي تتأملان الأمير الذي بدا لي قصيرًا سمينًا لا يكاد رأسه يرتفع إلى أحد.

- بالخارج الآن سيارة نصف نقل تحمل صواني الطعام لكن منصورًا لم يأت معها.

قال عابد لي والخوف يكاد يقفز من عينيه. وشممت حقًّا رائحة السمن تتسلل إلينا في الفضاء، ثم دخل من الباب يمنيان يحمل كل منهما صينية

مغطاة بقطعة شاش بيضاء،ووقفا حائرين فتقدم نبيل منهما، وأخذهما ناحية الأمير، فوضعا الأولى أمامه والثانية بعدها بقليل، وعادا مسرعين إلى السيارة بالخارج. وجذب نبيل ثلاثة من الباكستانيين فقاموا على الفور، وراحوا مع اليمنيين يحملون الصواني المغطاة بالشاش الأبيض، وامتلأ الفضاء برائحة الإدام، وخرجت أطراف الألسن تمر بين الشفاه، وتحركت الحناجر صاعدة هابطة بابتلاع اللعاب، وراح الشيوخ يتحدثون عن عدم حضور منصور ويضحكون، وترتفع أصواتهم ثم تنخفض، ويشيرون إلى أبيه الذي يفتح عينيه ويتكلم بصوت لا يسمعه أحد، ثم يعود يغالب النعاس.. وتململ الأمير، لكنني أدركت من الحوار الذي تبادله معه عم عبدالله، ومن ضحكهما الهامس، أنهما لن ينتظرا حضور منصور.

رحت أعد الصواني فاكتملت عشرين، ووقف اليمنيان حائرين بعد أن عاد الباكستانيون الثلاثة إلى أماكنهم، لكن نبيلا أشار إليهما أن يقفا عند البوفيه فامتثلا، وحط على الدنيا صمت. ينتظر الجميع الآن أن يبدأ الأمير،وأنا أنتظر أن يقع فوق رأسي حجر من السماء، وأكاد أنكمش وأتلاشى، وتمنيت بحق أن أرى منصورًا.

رفع الأمير قطعة الشاش، فامتدت الأيدي ترفع الشاش فوق الصواني التي أمامها، وامتلأ الفضاء بالأصوات الغاضبة. ضِباب! ضِباب! إيش سوى هذا المعتوه؟! ضِباب يا أبا محمد. ضباب يا منصور. ضباب يا عبدالله..؟!

لم تكن فوق الصواني خراف. حيوان غريب قصير مثل تمساح صغير له ذيل كثير الفقرات!

- هذا ضَب.

قال لي عابد هامسًا. ولم يكن مهمًّا أن أعرف. كنت أتابع الغضب على وجه الأمير وفي عينيه، والدهشة على وجوه الباكستانيين، الذين قام واحد منهم مفزوعًا يصرخ، وخرج جاريًا مغادرًا الباحة كلها، وعاد الصمت يحط.. وبدا الارتباك على وجه عبدالله، وما زال أبو منصور يغالب النعاس.. ولم يفطن أحد لما فطنت أنا إليه. لم يكن فوق كل صينية «ضَبٌّ» ولكن كان فوق ثلاث أو أربع منها حيوان آخر له أربع أرجل كبيرة وبلا رأس، لكن أليته الضخمة المرتكزة الممتلئة توضّحه أشد توضيح! ورفع عابد قطعة الشاش التي فوق الصينية التي أمامنا، فوجدت نفس الحيوان، وشعرت بمعدتي تكاد تقفز، كأنما قفزتْ من بطني إلى فمي ضفدعة.. هكذا أحسست بالضبط، فأمسكت بطني بيديَّ، ونهضت جاريًا إلى دورة المياه. لكنني لم أنجح في أن

أمنع نفسي عن التقيؤ قبل بابها. ولحق بي نبيل بسرعة، وأخذني من إبطي من الخلف، ومشى بي إلى البوفيه أكاد أسقط مغشيًّا عليّ، وسمعت صراخًا وهرجًا.. ووقف نبيل بالباب يرى ما يحدث..!

الله. الله. ما هذا؟ ووقفت متحاملًا جواره فرأيت شخصًا لم تسبق لي رؤيته، يطارد بالباحة اليمنيَّين، ويشبع كل من تصل إليه يده منهما ضربًا حتى استطاعا الهروب من باب الباحة، فوقف هو يرفع غترته التي انزلقت إلى الأرض، ويتقدم نحو الأمير الذي قام في غضب ومضى بسرعة خارجًا لا يتوقف له، وهو يحاول الاقتراب منه، ولم يفلح إلا عند باب الباحة في تقبيل رأسه وأنفه وكتفيه..

وملأ الشيوخ الباحة بالحوار والصيحات والضحكات أيضًا. وصرخ عبدالله في الباكستانيين أن يحملوا الأكل ويلقوا به في الخارج، ورأيت أبا منصور يمشي منحنيًا ولا يكف عن هز رأسه.

***

(1) يس: 40.

(2) الفلق: 3.

(3) النور: 40.

29

أدهشني ظهور اليمني العجوز من جديد.. اليوم جاء مبكرًا في حوالي التاسعة. ظهر جالسًا في مكانه والسواك في فمه ولا يكف عن النظر إليَّ ولا عن الابتسام!

يزداد ابتسام اليمني العجوز منذ ظهوره. لا بد أنه عرف حكاية منصور كلها. مسكين منصور! في اللحظة الأخيرة عرف أخوه الأكبر بأمر الوليمة. قيل إن أمه أخبرته وهو يدخل البيت عائدًا من الدكان، أن منصور ذبح القرود التي اشتراها من السودان، وأنه استجلب يمنيين ليطهو له هذا كله، لكن اليمنيين كانا قد حملا كل شيء في السيارة ومضيا. ولحق الأخ الأكبر بمنصور، وهو يركب سيارته الكابريس فمنعه من الحضور. هاجمه وضربه. وضربه منصور أيضًا، لكن الأخ الأكبر نجح في النهاية في ربط منصور إلى نخلة كبيرة بباحة البيت، وأسرع يحضر إلى الشركة. إنه هو الذي رأيته يضرب اليمنيين بجنون، ويحاول بعد ذلك استرضاء الأمير.

في البداية لم أصدق القصة، لكن خبر نقل منصور إلى مصحة الأمراض العقلية بالطائف أكدها لي عابد، هو الذي أخبرنا، ثم تحدث فيها الباكستانيون الذين عرفوا ذلك من زملائهم بالشركات الأخرى. عرفت تبوك كلها القصة والنهاية، فلم يعد هناك شك في الخبر.

لقد ذهب منصور إلى الكويت للمرة الثانية فوجد وداد تزوجت قريبها. لم يساعدها منصور في أي شيء، وكل ما قاله لي خيال اصطنعه هو وصدَّقه.

عاد منصور من الكويت يلعن النفط واليوم الذي تفجرت به الأرض. من قبل كان الناس يأكلون سباع الصحراء، والضب حيوان لذيذ اللحم شهير أكله في البادية. لا بد أن منصورًا الذي لم يحضر الوليمة أعد القرود لنا نحن الغرباء، ولم يكن ليوافق أن توضع الصواني التي تحملها كيفما اتفق.

***

- لماذا لا تضحك هذه الأيام؟

سألني نبيل الذي سيسافر بعد غد إلى القاهرة. لم أشأ أن أسأله لماذا عاد اليمني للظهور ولماذا يحضر اليوم مبكرًا ولم أشأ أن أخبره أنني أشعر وكأني مسئول عما حدث لمنصور. ثم ماذا يفيد أن أحدثه عن وحدتي وتفكيري كل يوم في أنه لا أحد حولي أتحدث معه. مضى أسبوعان الآن من الشهر الذي حدده لي صالح لأترك البيت. ولم أسع للبحث عن مسكن آخر. دائمًا أنسى ودائمًا لا أتحمس إذا تذكرت.

قلت:

- اجلس معي قليلًا.

جلس وقد عاد الإشراق القديم إلى وجهه. نظر إليَّ طويلًا، ثم أغمض عينيه وقال:

- لا أعرف لماذا أتذكر هذه الأيام قول أمي لي دائمًا إنّ فيّ شيئًا لله. من زمان وهي تقول لي ذلك! دائمًا تذكرني بخالي الذي كان يأخذ مني فلوس الإذاعة ويعطيني الشيكولاتة وكيف غرق في النيل،وكان يُعدُّ من أشهر السباحين في إمبابة.. والمدرس الذي كان يضربني في المدرسة الابتدائية حتى كرهت المدارس، وكيف سقطت فوق رأسه «قُلَّة» من إحدى البلكونات فمات في الحال.. والضابط الذي أخذني من المقهى إلى القسم مع غيري من الصبيان وتسبب في قضائي سنتين في إصلاحية الأحداث، وكيف سقطت به بلكونة في مديرية أمن الجيزة فمات رغم أنها بلكونة الدور الأول.. أيضًا خطيبتي التي تركتني من أجل سائق تاكسي، تقول أمي إنه سيطلقها، لأنه عدَّها شؤمًا عليه إذ دهست سيارة جيش كبيرة التاكسي الذي يملكه وسوَّته بالأرض ليلًا رغم أنه ركنه تحت شباك بيته. لماذا أفكر في ذلك كثيرًا هذه الأيام؟!

ولم أجد إجابة. كنت محتاجًا إلى حديثه الحلو يُفرِّج همي ففاجأني بألغازه. سألته:

- هل اقتنعت أخيرًا بزواج خطيبتك من سائق التاكسي؟

- لا أظن أن أمي تكذب طول الوقت.

- لماذا تصرّ على السفر إذن؟

- لا أعرف.

أجاب وعاد إلى الصمت قليلًا، ثم قال:

- هل تظن أنّ فيّ شيئًا لله حقًّا؟ هل أنا طيب إلى هذه الدرجة ولا أدري؟ هل يحبني الله إلى هذا الحد؟!

تأملته قليلًا. وقلت وأنا أشعر بعطف غامر نحوه:

- لا أظن أن الله يكرهك يا نبيل.

هز رأسه وابتسم وقال:

- ليت خالي أعطاني الفلوس ولم يمت، وليت المدرس تركني فتعلّمت ولم يمت، وليت الضابط لم يدفع بي إلى إصلاحية الأحداث وعاش، وليت خطيبتي لم تهجرني.

وأجهش يبكي فجأة.. ثم قام وتركني!

***

جلست وحدي بقية اليوم. انهمكت في ترجمة تقارير لا أعرف أحدًا ممن يكتبونها من الفنيين الأمريكان، عن مواقع عمل لم أزرها رغم كل هذا الوقت، ولا أستطيع بين حين وآخر أن أمنع نفسي عن النظر ناحية اليمني، فأجده ينظر إليّ ولا يكف عن الابتسام.

من قبل، حين كنت أنظر إليه كان يحس بنظراتي فيبادلني النظر ويبتسم. اليوم والأيام القليلة السابقة منذ وليمة منصور، لا يبعد عينيه عني. وحين عاد عابد من البلد يحمل خطابًا لي قرأت اسم علاء خلف المظروف فأهملت قراءته حتى أعود إلى البيت. لم أحب أن أضايق نفسي بشيء يطلبه علاء مني، أو بمشكلة ثارت بينه وبين أختي ويريد رأيي فيها. هناك أستطيع أن أفتح التليفزيون أو أترك البيت نفسه وأمشي في البلدة بحرّية.

***

30

«لم أحب أن ألقاك يومًا فتلومني. لقد آثر الجميع إخفاء الخبر عنك حتى لا ترتبك في عملك. لكني أدرك شجاعتك وقدرتك على تحمل الصعاب. لذلك شئت أن أخبرك رغم ما في ذلك من ألم. ألمٌ لك لأنها والدتك الحبيبة، وألمٌ لي لأنني خالفت ما أجمعت أسرتك عليه. لقد توفيت الوالدة منذ أسابيع وقمنا بدفنها وعمل ما يليق لها من جنازة، وأرجو من الله أن يقوي عزيمتك، وأن تكون كما قدرت تمامًا الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله، وأن تستمر في عملك واثقًا بأننا هنا، أنا والأسرة، نرعى إخوتك كإخوة لنا».

ولم أنم الليل أمس ولا أحسب أني سأنام الليلة أيضًا. لم أستطع العودة إلى العمل لأخبر أحدًا، ولم أستطع البقاء في البيت إلا بعد أن درت في البلدة قاطعًا كل شوارعها وكأنني وحدي أمشي بين أطلال لا صوت فيها لأحد.

أتى الصباح عليّ وأنا أدق رأسي إذ كيف ضاعت مني صورة وجه أمي إلى الحد الذي لم أنجح ولو مرة في استحضاره. هل يلحق الموت بالخيال أيضًا؟

أذهلني الجمود الذي حط فجأة عليّ فصرت مثل حجر. لقد درت في البلدة غير واع حقًّا بما حولي، لكن ذهني لا يعمل، مضى عليّ الليل طويلًا، شديد الطول حقًّا، لكن ذهني لا يعمل. هل كنت أتوقع هذه النهاية لأمي ولا أدري؟ ويريدني أن أكون كما قدر هو، الإنسان القوي الذي يدرك حكمة الله وأن أستمر في عملي. علاء الذي لا أعرف في أي ركن كان قابعًا وقفز منه ليستولي على حصاد شقائي يريدني أن أستمر، وهُم، إخوتي، لعبة أبي المقيتة، أخفوا عني الخبر كي أستمر في عملي. لا يريدون تعطيلي عن إعداد نفسي بما يجب وبما يسعى كل شباب هذا الزمان لإعداد أنفسهم به، المال الذي يتفوق على ما قذفتنا به مصر من شرور. لقد اشتقت كثيرًا إلى فأر. فأر واحد يخطئ ويدخل البيت بعد هذا الانقطاع. لن أقتله. مشتاق إلى سماع صوت خربشاته وقفزاته وهو يمرح لاهيًا واثقًا من براءة الدنيا حوله!

بالطبع لم يصدق عابد ولا نبيل الخبر، لقد رأوني أعمل هادئًا، لكنني أظهرت الخطاب لعابد الذي ارتبك.

- هل ستسافر؟

- غدًا!

- لكن..

- سيوافق عم عبدالله.. لن يرفض شيئًا كهذا.

قلت له حاسمًا. وبعد قليل جاء عم عبدالله إلى المكتب، وقبل أن أذهب إليه جاء هو إليّ. لقد أخبره عابد. صافحني وقدم إليّ عزاءه، وسألني ما إذا كنت محتاجًا إلى أي شيء فشكرته، وأمرَ عابد أن يذهب إلى الجوازات لاستخراج فيزة لمدة شهر، وأن يشتري لي تذكرة في عودته لأسافر غدًا مع نبيل. لم يقل هو مع نبيل، فكرت أنا بسرعة وهو يصدر لعابد أوامره. ولم يضايقني ظهور اليمني اليوم مبكرًا أيضًا ولا ابتسامته التي لا تختفي. فقط في طريق عودتي اشتقت إلى الذهاب إلى المستشفى، لأرى عايدة وأقول لها لقد انقطع كل ما بيني وبين الناس في مصر. وأدركت أنني لن أجدها. تذكرت القصة كلها.

والآن في غرفتي. في البيت الذي عليّ أن أتركه نهائيًّا لصالح، أود لو آخذ سيارتي وأسرع إلى بيت واضحة أبكي في صدرها. يا إلهي! أتذكر الآن أنني وأنا أدور في البلدة مساء أمس صامتًا غير مدرك لما حولي، رأيت دكانة أخيها خالد مغلقة لا تزال. وفكرت فجأة أنهما توءمان. تذكرت شدة الشبه بينهما. ثم تذكرت أن خالدًا أكبر بكثير وكما حدث أمس اشتقت اليوم إلى فأر يخطئ ويدخل! وكما لم يحدث أمس أشعلت التليفزيون، لكن الإرسال كان قد انتهى منذ وقت طويل حتى إنني أرى الصباح يجاهد للانعتاق من ظلام هذه الليلة الحارة الخانقة، وكان عليّ أن أظل أجاهد النوم الذي بدأ يغتالني الآن. لو نمت ما استيقظت إلا في المساء، ولا أحسب أن طرقات عابد الذي سيأتي ليحملني إلى المطار ستوقظني أبدًا!

***

- أراك اليوم أفضل من الأمس.

قال عابد الذي جاء في الثامنة صباحًا ووجدني في انتظاره، لم أرد. لا أظن أنني كذلك. وحملت حقيبة كبيرة فحملها عني وترك لي الصغيرة أحملها. بانت الدهشة على وجهه وأحسسته به يكاد يسألني كيف اشتريت ما في الحقائب رغم ما يبدو عليّ من حزن، ولم أشأ أن أخبره بأنه ليس في

الحقائب إلّا كل متاعي الخاص الذي جئت به من القاهرة، وأشياء قليلة كنت اشتريتها من قبل. لم يعد لي في البيت شيء. حتى التليفزيون الذي تركه فاروق، ثم تركه سعيد، ثم تركه وجيه، تركته أنا.

وقاد السيارة على مهل. ليس لأن الطائرة ستقلع في العاشرة لكن لجلال الموقف.هكذا فكرت. كنت محتاجًا إلى أن أرى البلدة مرة أخيرة بانتباه، ولم يكن ممكنًا طلب شيء هكذا منه، والمسافة من بيتي إلى طريق المطار قليلة لا تمر من وسط البلدة.

- لقد ذهبت بنبيل منذ قليل.

قال ولم أرد.

- نبيل سيسلّيك في السفر.

ولم أرد.

- أرجوك أن تعود لنا بسرعة. الموت معلق على رقاب العباد.

ولم أرد. وأحسست به خجلان إذ صمت ولم يتكلم بعد ذلك، وأنا فكرت في هذه الروح المعادية له تقفز من جديد.

***

دَخَلَتْ السيارة إلى طريق المطار ذي الأسفلت الأسود اللامع الذي تنعكس فوقه أشعة الشمس متماوجة تذكرني بعدم استوائه. لقد صعدت الشمس اليوم بسرعة إلى السماء، وتملّكت الدنيا في وقت مبكر، ولم يكن حول الطريق إلا رمال وكثبان.

هذا طريق أعرفه، لكنني أراه اليوم وكأنني أراه لأول مرة، ولا أستطيع أن أكف عن النظر إلى الناحيتين لأرى شيئًا حولي غير الكثبان. رأيت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد يجري بسرعة وفوق ظهره شيء أسود اتضحت صورته وأنا أفتح عيني على اتساعها. إنه قرد، ذلك الذي يركب الكلب المسكين الذي لا يتوقف عن الجري بسرعة مذهلة.. لم ينتبه عابد إلى المشهد، وكدت أهتف له أن ينظر إليه، لكني ابتلعت ريقي الذي أحسست به جافًّا، والتفتّ ألوي عنقي لأنظر من الزجاج الخلفي، فأرى

الكلب لا يزال يجري والقرد لا يزال فوقه. لكن الطريق ينحني، وسيارتنا هي الأسرع. والمشهد كله يغيب عني، وتأخذ مكاتب الشركة مكان الكلب والقرد فالتفت أنظر أمامي. هذا قرد منصور لا بد، قلت لنفسي هامسًا.

***

- كُلُّ من عليها فان يا إسماعيل. نحن سنركب طائرة وتمضي ساعة ونصفًا بين السماء والأرض ويمكن جدًّا أن تسقط بنا!

كان نبيل يحدثني وأنا لا أنظر إليه.

في البداية، حين وصلنا إلى المطار، وبعد أن تركني عابد ودخلت إلى الصالة، أحسست بالبهجة تشع من كل شيء حولي، عدد كبير من أهل البلدة وعدد أكبر من المصريين لا يكفون عن الحركة والكلام، وقد ارتدوا جميعًا ملابس زاهية نظيفة، وكثير من الأطفال يتحركون في عفوية ويدورون ضاحكين حول الحقائب الملونة، وشعور طيب يبعثه مكيف الهواء، ووجوه الشباب الصغار خلف الميزان ومكتب الجوازات نضرة هادئة. وشملني حقًّا شعور بالراحة والرضا، وبدا أنني نسيت تمامًا موت أمي، وأشعلت سيجارة، وقدمت أخرى لنبيل، وابتسمت.

لكنني الآن أرى ما لا يراه نبيل، عربة جيب تقف أمام باب الصالة ينزل من بابها الأمامي ضابط شاب يتقدم بسرعة إلى الجوازات وفي يده جواز سفر أخضر يدفع به إلى الموظف الشاب الذي يبتسم، ومن الخلف نزل شرطيان وجذبا رجلًا نزل ووقف بينهما فدفعاه أمامهما خلف الضابط. إنه سيد الغريب. هو نفسه بلحيته الطويلة ونفس بنطلونه الذي رأيته يرتديه من قبل وفوقه يرتدي قميصًا لم يجد الوقت، أو لم يشأ، ليغسله ويكويه. لقد رآني فَوْرَ نزوله من العربة كما رأيته، ونظر إليّ كمن كان يعرف أنني في انتظاره. يذكُرني كما أذكره بلا شك. ولم أره ينظر إلى أحد آخر، أدخلوه من باب إلى غرفة ولم نره بعد ذلك. لكن المسافرين جميعًا أدركوا المسألة الآن. وبدأ المصريون يتحدثون في هدوء، لم يكن صعبًا أن يدرك نبيل ما يحدث، فبعد أن حدثني نظر إلى حيث أنظر وقال:

- مقبوض عليه ويُرَحَّل. يا ساتر يا رب!

ورأيت وجهه يمتقع ويشحب، وابتعد عني، وراح يدور بعصبية بين المسافرين لوقت ليس بالقصير.

أدركت أن سيد الغريب سيصعد إلى الطائرة قبلنا جميعًا، فلا متاع معه ليزنه، وإجراءات سفره لا بد أن تتم الآن، وأن الشرطيين سيصحبانه حتى يجلس بالطائرة، وأنّا لن نرى شيئًا من ذلك، سنجده جالسًا في الطائرة حين نصعد إليها.

بدا في حديث المصريين الهامس أنهم يعرفون قصته، لكن الدهشة كانت ترشح على كثير من الوجوه، ورأيت الخوف أيضًا على وجوه كثير من النساء اللاتي أرى وجوههن مكشوفة الآن. نحن في المطار.

رأيت نبيلًا يتحدث مع المصريين، فأدركت أنه يتقصّى قصة سيد الغريب.

لماذا لم يحاول أن يسألني حقًّا؟

- يقولون إنه طبيب..

وقاطعته قائلًا:

- أعرف القصة كلها.

لكنه قال:

- لقد أطلقوا سراحه اليوم، يقولون إن وكيلًا جديدًا لوزارة الصحة زار تبوك وعرف قصته فطلب أن يراه. كان هذا الوكيل زميلًا له في الجامعة في مصر، وهو الذي رتب أمر ترحيله دون محاكمة. إنه محظوظ جدًّا.

ولم أفكر فيما إذا كان سيد الغريب محظوظًا. فكرت كيف يعرف الناس في تبوك كل شيء ولا أعرف أنا شيئًا. وبدأ المسافرون في الانتظام في طابور طويل لوزن ما معهم من متاع.

***

أحسست في المسافة القصيرة بين باب الصالة وباب الطائرة أني أنا والكون شيء واحد، ساخن وفارغ. وقدرت كيف أسرع نبيل ليسبقنا جميعًا

ويصعد سلم الطائرة هاربًا مما تقذفنا به الشمس من لهيب رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف. لكن نبيل كان يبدو خائفًا وهو يقترب من الميزان. قال لي: إنه خائف من هذه الرحلة، وإنه حين ركب الطائرة أول مرة لم يخش شيئًا. قلت له إن الخوف شعور طبيعي في السفر بالطائرات.. ولم أر صفحة وجهه تعود إلى صفائها إلا بعد أن تركنا صالة السفر ودخلنا إلى أرض المطار. لقد سبقنا جميعًا. وتأخرت أنا الذي مشيت على مهل أنظر ناحية اليمين فأرى طائرة هليوكوبتر صغيرة صفراء على جانبها صورة العلم الأمريكي وتحته قرأت «القوات الجوية للولايات المتحدة الأمريكية»، وأنظر إلى يساري فأرى طائرة هليوكوبتر أخرى.

جلستُ صامتًا بجوار نبيل الصامت. رأيت سيد الغريب يجلس في المقعد الأول خلف كابينة القيادة، بعيدًا عنا جميعًا في الدرجة الأولى التي لا يشغلها أحد. لا بد أنهم اختاروا له هذا المكان حتى لا يكلمه أحد. توقعت أن يعلق نبيل على هذا الكرم في الترحيل، لكن نبيل كان لا ينظر إليّ. شَخَصَ بعينيه إلى لا شيء وراح يقرأ «الفاتحة» أكثر من مرة بصوت أسمعه بوضوح رغم صوت محركات الطائرة!

ربطنا الأحزمة، وامتنعنا عن التدخين، وطافت علينا إحدى المضيفات بعلبة البونبوني، وتحركت الطائرة مرتفعة عن الأرض، فرأيته يغمض عينيه، وسمعته يقول: «الحمد لله»، واستوت الطائرة في الفضاء، فراح الركاب يفكون أحزمتهم، وتنهد نبيل وقال:

- الآن ليحدث ما يحدث!

ربّتّ على ساقه أشجعه فقال:

- أنا لن أعود مرة أخرى!

نظرت إليه في دهشة. قال:

- هذا قراري ولا رجعة فيه. كل فتاة سأخطبها ستتركني وتتزوج. لا بد أن أظل في مصر لأحافظ على ما أملك.

وسكت لحظة وقال:

- أنت أيضًا يجب أن لا تعود.

تأملته وقلت:

- أنا بالفعل لن أعود يا نبيل.

- ستبقى في مصر؟

سألني وقد اتسعت عيناه ببهجة مفاجئة. قلت:

- لا.

ورأيت الدهشة تأخذ مكانها فوق وجهه، وأنا لا أعرف كيف أجبته بذلك لكن لا إجابة أخرى عندي حقًّا. هذا ما أشعر به كأنه يقين، وجاءنا صوت قائد الطائرة:

«أيها السادة سوف تعود الطائرة إلى المطار بسبب عطل فني بسيط، نأسف على هذا الإزعاج، ونأمل تعاونكم معنا بالحفاظ على هدوئكم، والبقاء في مقاعدكم، والامتناع عن التدخين، وربط الأحزمة».

- ها نحن أولاء فيما يبدو لن نسافر اليوم.

قلت، لكن لم يبدُ أن نبيلًا استمع إلى شيء من كلامي. امتقع وجهه وشحب، وزاغت عيناه، وتضاءل في مقعده كمن يود الاختفاء!

- نبيل! ماذا حدث؟!

كان ينظر إليّ في رعب.. رعب لم أعرف من قبل أنه يمكن أن يصيب البشر. ولم نكن قد ارتفعنا كثيرًا، لقد أحسست بالطائرة تهبط، ولم أجد وقتًا لأنادي إحدى المضيفات إذ انشغلتُ بربط حزامي حولي، ثم رحت أربط حزام نبيل حوله، وهو ذاهل عني لا يكاد يحس بي.

ارتطمت عجلات الطائرة بالأرض بقوة أفزعتنا، فارتفعت صيحات الركاب، وكاد قلبي ينخلع وأنا أرى نبيلًا يتضاءل أكثر، وسمعت صوت صفير المحرك العالي، وصوت احتكاك العجلات القوي بالأرض، وسمعت بالكاد صوت نبيل وهو يقول:

- لا يوجد عطل فني يا أستاذ إسماعيل.

- ...

وفي اللحظة التي توقفتْ فيها الطائرة، رأيت من خلف زجاج النافذة الصغيرة عددًا من الجنود يقبل نحوها بسرعة.

- لا يوجد عطل فني يا أستاذ إسماعيل، ليتك تنهض من جواري الآن. لقد سَرَقْتُ الخزانة. عرفت رقمها أخيرًا، وأخذت منها خمسين ألف ريال خبأتها في العفش.

بسرعة انفتح باب الطائرة..وبسرعة وجدت إلى جواري وأمامي ثلاثة من الجنود ينقضون على نبيل يجذبونه بقوة وأنا عاجز حتى عن الكلام، والركاب جميعًا ينظرون إلى ما يحدث في هلع، والمضيفات المصريات وقفن مشدوهات منكمشات بعضهن إلى جوار بعض يكدن يتلاشين والفزع على وجوههن، ولم أرَ وجه سيد الغريب، ظل جالسًا في مكانه لا يتحرك ولا يهتم بأن يعرف ما يدور بالطائرة!

***

من النافذة الصغيرة أيضًا رأيت عم عبدالله وعابدًا ومعهما الضابط الكبير أبو حكيم وحولهم عدد من الجنود، والجنود الثلاثة يدفعون نبيلًا ناحيتهم، ولا يكفون عن ضربه على قفاه ومؤخرة رأسه بأيديهم، وركله في ظهره بأرجلهم، ورأيت عابدًا يتقدم بسرعة نحو نبيل يقابله بركلة شديدة في بطنه، فينحني نبيل، ولا يكف الجنود عن ضربه على ظهره وقفاه ورأسه، وعابد يعود إلى الخلف خطوة ثم يهجم ضاربًا بكل قوته، مرة بيده، ومرة بقدمه،حتى سقط نبيل فوق الأرض على ظهره،ورأيت الدم يغطي وجهه، لكنهم انحنوا يمسكون بقدميه يجرونه جرًّا، يسحلونه، على أرض المطار، ويدورون من خلف الطائرة فلم يعد ممكنًا لي رؤيته، لكن الجالسين في الجانب الآخر، الذين كانوا قد اندفعوا إلى جانبنا يحاولون الرؤية معنا، أسرعوا بالعودة إلى جانبهم،ووقفوا متزاحمين ينظرون من النوافذ الصغيرة. ولم أحاول معاودة النظر..

***

حضرات الركاب..نعتذر لكم عما حدث منذ قليل، ونوجه عنايتكم إلى أننا سنقلع على الفور. رجاء الجلوس في مقاعدكم والتزام الهدوء، وربط

الأحزمة والامتناع عن التدخين. نتمنى لكم رحلة طيبة ووقتًا سعيدًا على طائرات الخطوط الجوية السعودية.. شكرًا.

ورأيت المضيفات يتحركن بسرعة، وراحت واحدة منهن تدور علينا بعلبة البونبوني مرة أخرى،وكان قائد الطائرة يعيد ما قاله منذ قليل، ولكن باللغة الإنجليزية!

القاهرة

1986-1988

للمؤلف

الروايات:

1 - في الصيف السابع والستين.

2- ليلة العشق والدم.

3- المسافات.

4- الصياد واليمام.

5 - بيت الياسمين.

6- البلدة الأخرى.

7 - قناديل البحر، حوِّلت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل.

8 - لا أحد ينام في الإسكندرية، حوِّلت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشدي.

9- طيور العنبر.

10- برج العذراء.

11 - عتبات البهجة.

12 - شهد القلعة.

13- في كل أسبوع يوم جمعة.

14- الإسكندرية في غيمة.

15- هنا القاهرة.

16- أداجيو.

17- قطط العام الفائت.

18- قبل أن أنسى أني كنت هنا.

المجموعات القصصية:

1 - مشاهد صغيرة حول سور كبير.

2 - الشجرة والعصافير.

3 - إغلاق النوافذ.

4 - فضاءات.

5 - سفن قديمة.

6 - ليلة إنجيلا.

كلها نفدت وهي الآن في مجلد واحد بعنوان: «أشجار السراب».

كتب متنوعة:

1 - مذكرات عبد أمريكي - ترجمة عن الإنجليزية - تأليف فريدريك دوجلاس.

2 - 24 ساعة قبل الحرب، مسرحية.

3 - أين تذهب طيور المحيط؟، أدب رحلات.

4 - ما وراء الخراب، مقالات في الدين والآخر والهوية والنهضة والتراث.

5 - السبت فات والحد فات، مقالات.

6 - لكل أرض ميعاد، أيام التحرير.

7- من الذي يصنع الأزمات في مصر، مقالات.

8 - حكايات ساعة الإفطار، حكايات قصيرة .

9- ما وراء الكتابة، تجربتي مع الإبداع.

10- أنا والسينما.

الجوائز:

1 - الجائزة الأولى في القصة القصيرة «نادي القصة» بالإسكندرية عام 1969.

2 - جائزة «نجيب محفوظ» في الرواية عن «البلدة الأخرى»، الجامعة الأمريكية، 1996.

3 - جائزة الدولة للتفوق في الآداب 2004.

4 - جائزة الدولة التقديرية في الآداب 2007.

5 - جائزة «ساويرس» في الرواية لكبار الكتّاب عن رواية «في كل أسبوع يوم جمعة» 2011.

6 - جائزة «كتارا» للرواية العربية عن رواية «أداجيو» 2015.

7 - جائزة «الشيخ زايد للآداب» عن كتاب «ما وراء الكتابة» عام 2016.

الترجمات للغات أجنبية:

1 - البلدة الأخرى، للإنجليزية والفرنسية والألمانية.

2 - لا أحد ينام في الإسكندرية، للإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

3 - بيت الياسمين، للفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

4 - عتبات البهجة، للفرنسية واليونانية.

5 - المسافات، للإنجليزية.

6 - طيور العنبر، للإنجليزية.

7 - في كل أسبوع يوم جمعة للألمانية.

8 - آداجيو للفرنسية والإنجليزية.

للتواصل مع الكاتب

Facebook: ibrahimabdelmeguid

Twitter: @ibmeguid

E.mail: ibrahimabdelmeguid@hotmail.com

***